
جورج سيمنون
المجهولون
في المنزل
رواية
بوليسية

المجهولون في المنزل



اسم المؤلف : جورج سيمنون
العنوان الأصلي للكتاب : Les inconnus dans la maison
عنوان الكتاب : المجهولون في المنزل
المترجم وجيه العمر
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
تاريخ الطبع : ١٩٩٦

اللوغو : علي شمس الدين

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون ٧٧٧٢٠١٩٠ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد ٣١٨١ - ١١ فاكس ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252



جورج سيمنون



ترجمة : وجيه العمر

المجهولون في المنزل

منشورات.





٦

القسم الأول

ـ ١ ـ

ـ ألو، روجيسار؟

كان نائب الجمهورية واقفاً بالقميص، قرب السرير، الذي ظهرت منه نظرة زوجته المندهشة. كان يشعر بالبرد، ولاسيما في قدميه لأنه نهض على نحو مباغت بحيث لم يجد خفيه.

ـ من على الهاتف؟

فقطّب حاجبيه، وكرر مستهدفاً زوجته:

ـ لورسا، أهذا أنت، ياهكتور؟

ثار اهتمام زوجته، فدفعت اللحاف، ومدّت ذراعاً طويلة شديدة البياض نحو السماعة الثانية.

ـ ماذا تقول؟

وأعلن صوت المحامي لورسا، وهوابن عم شقيق لزوجة نائب الجمهورية بهدوء قائلاً:

ـ لقد وجدت مجهولاً في البيت... في سرير الطابق الثاني... وكان ينازع في اللحظة بالذات التي وصلت فيها...

ياجيرار، يحسن بك تماماً أن تهتم بالموضوع... إني منزعج تماماً... ولدي انطباع أن في الأمر جريمة...

وعندما علق نائب الجمهورية السماعة، قالت لورانس روجيسار التي كانت تكره ابن عمها:

ـ إنه لايزال مخموراً!

◆ ◆ ◆

مع هذا، في ذاك المساء، بدا كل شيء في مكانه، وعلاوة على ذلك كانت تمطر، مما زاد في ركود الأمور. كان أول مطر بارد في الموسم؛ كما إنه وإذا استثنينا بعض العشاق، فلم تجد سينما شارع آلّيه أحداً يدخل إليها. مما زاد في غضب عاملة الصندوق التي بقيت محصورة بلا مبرر في قفصها الزجاجي حيث تجمّدت وهي تنظر إلى قطرات الماء تمر أمام كرات المصابيح الكهربائية.

كانت مدينة مولان هي مدينة مولان في الأيام الأولى من شهر تشرين الأول. وفي فندق باريس وفندق ولي العهد وفندق نهر آلّيه، كان ممثلو التجارة المسافرون يأكلون عل طاولة الضيوف، تقوم بخدمتهم فتيات بأثواب سود، وجوارب سود، ومريلة بيضاء، ومن حين لآخر تمر سيارة في الشارع، ذاهبة إلى حيث لانعرف، إلى نفير أو إلى كلرمون، وقد يكون إلى باريس.

كانت ستائر المخازن مسبلة، واللافتات تتلقى ماء السماء مثل القبعة الكبيرة الحمراء لمخزن بلوشيه، ومقياس الوقت العملاق لمخزن تيلّيه، إلى جانب رأس الحصان الذهبي لمحل جزارة الخيول..

وماكان يصفر خلف المنازل، إنما هو القطار البطيء لمونلوسون، وفي داخله بالكاد عشرة أشخاص.

وفي الحاكمية، كان يقدم العشاء لحوالي عشرين شخصاً. يسمونه عشاء الشهر، ويجمع بانتظام المدعويين نفسهم.

كان من النادر جداً رؤية نافذة دون درفة خشبية، والناس في النور. والخطوات، عندما تكون هناك خطوات في متاهة الشوارع التي جعلتها الأمطار لامعة، كانت خفيّة، وكأنها خجلة.

وفي ركن شارع لكتّاب العدل ووكلاء الدعاوي، كان منزل لورسا، أو بالأحرى لورساده سان مارك، يبدو أكثر إغفاء أو أكثر سرية من المحالّ الأخرى بجناحيه، وفسحته المبلطة والتي يفصلها جدار مرتفع عن الشارع، وفي هذه الفسحة، وسط فسقية فارغة، كان تمثال لأبولو لايخرج الماء من الأنبوب الخارج من فمه.

في غرفة الطعام في الطابق الأول، أدار هكتور لورسا ظهره المستدير إلى الموقد، حيث تحترق كريات على مصبّعة وتنشر دخاناً أصفر.

كان له جيبان تحت عينيه، لاأصغر ولاأكبر مما هما عليه في الأمسيات الأخرى، وذلك النوع من السيولة في حدقتيه الذي يجعل نظرته غامضة ومقلقة.

كانت الطاولة مستديرة، وغطاؤها أبيض. كان لورسا يأكل بوساخة، وقد انحنى على صحنه وكأنه يحاول أن يرمّه، ويمضغ بضجة، ويتهد أحياناً من السأم أو من التعب.

وعندما ينتهي من لون، يرجع كرسيه بعض الشيء كي يعطي راحة لبطنه ومن ثم ينتظر.

كان المرء يشعر تماماً أنه ينتظر، لدرجة أن ذلك يصبح إشارة لنيكول التي تلتفت قليلاً إلى الخادمة الواقفة قرب الجدار.

وعندها تقوم الخادمة بفتح كوة، وتصيح في فراغ رافعة ألوان الطعام قائلة:

- التالي!

تحت، وفي أقصى أعماق المطبخ الرمادي، المعقود وكأنه كنيسة خاصة، توجد امرأة قصيرة نحيلة وبشعة تأكل على طرف طاولة فتنهض، وتخرج لوناً من الطعام من الفرن، وتضعه في الجهاز الرافع.

دوما، وبعد بضعة أمتار، يتوقف الجهاز، ولعلها دواليب انكمشت، فيتوجب إعادة العمل إلى أن ترى الخادمة التي تراقب في الأعلى بأعجوبة الأطعمة المنتظرة تصل.

كانت المدخنة مصطومة. والبيت مليئاً بأشياء لاتعمل أو تعمل على نحو رديء. كل واحد كان يشعر بذلك. كان لورسا يصدر تنهدة عند كل عطل لرافع ألوان الطعام، وقد وضع مرفقيه على الطاولة؛ وعندما تدوّم هبة ريح الدخان فوق كريات اللحم، تظهر نيكول سوء مزاجها بأن تدق بأصابعها على الطا ولة.

- وبعد، ياأنجيل؟

- إليك، أيتها الآنسة.

كانت نيكول تشرب الخمر الأبيض من الدورق، ويصب أبوها لنفسه من زجاجة خمر بورغونيا ويفرغها تماماً في فترة وجبة.

ـ أتستطيع الآنسة تسديد حسابي مباشرة بعد العشاء؟

سمع لورسا، دون أن يعطي ذلك مع هذا انتباهاً مبالغاً فيه. بالكاد كان يعرف الخادمة، وكانت فتاة كبيرة الجسم أقوى من اللواتي اعتاد عليهن، مكينة، عزومة، بقلّة احترام هادئ.

ـ هل دفتر خدمتك جاهز؟

ـ لقد أعطيته إلى فين.

وفين هي جوزفين، القزمة المكشرة في الأسفل والتي كانت ترسل ألوان الطعام من خلال الجدار.

ـ حسناً.

لم يسأل لورسا ابنته عن سبب ذهاب الخادمة، وإن كانت هي التي تترك الخدمة أو أنهم طردوها. فكل خمسة عشر يوماً كان يرى خادمة جديدة، والأمر لديه سيّان.

أكل كستناء مسلوقة واستطاع أن يملأ بها سترته البيتية من المخمل الأسود. لم يكن لذلك أهمية، لأن السترة كانت وسخة. كان الماء يُسمع وهو يسيل ببطء في إنبوب النزول، ولاشك في أن هذا الأنبوب أيضاً كان بحاجة إلى إصلاح.

وبعد أن أنهى لورسا أكل الكستناء، انتظر لحظة ليتأكد من أنه لم يتبق شيء يؤكل، ومن ثم لف منشفته على شكل كرة ووضعها على الطاولة، لأنه لم يرغب مطلقاً الرضوخ لثنيها. ونهض.

كانت الأمور تجري على هذا المنوال كل مساء، دون أي تبديل. لم يكن ينظر إلى نيكول. وبعد أن يستدير إلى الباب، كان يدمدم قائلاً:

ـ تصبحين على خير.

في هذه الساعة، كانت مشيته ثقيلة، غير دقيقة. منذ الصباح، وجد لورسا الوقت لشرب زجاجتين أو ثلاث من خمر بورغونيا، بالأحرى ثلاث، دوماً من النوع نفسه، كان يأتي بها من القبو بنفسه منذ أن يفيق ويجسّها بحذر.

ومن الخارج ، كان بالامكان تتبع أثره، من الأنوار الضعيفة المتسربة من مغالق النوافذ بعضها بعد بعضها الآخر والتي كانت تصل في النهاية إلى مكتب عمل المحامي، وهي آخر غرفة في الجناح الأيمن.

كان الباب مبطّناً على الدوام، حتى منذ أيام أبي لورسا الذي كان هو أيضاً محامياً. ولعل ذلك منذ أيام جدّه الذي ظل عشرين عاماً عمدة المدينة. كانت هناك مزق في قماش البركال الأسود وكانها في طاولة بليار في الريف.

وفي الموقد، بدل أثفية الحطب أو شبكة الكرات، لعلهم لسبب أو لآخر وضعوا مؤقتاً مدفأة من حديد الصب، ومن ثم بقيت هناك بقسطلهاالقصير المعقوف، كانت تصدر شخيراً ومن ثم تحمر، وفي بعض الأحيان كان لورسا يقترب منها وكأنه يقترب من كلب طيب، ويدخل في فوهتها جرافات من الفحم الحجري المنشطة، ويقرفص كي يحرّك الجمر.

انطلق قطار مونلوسون البطيء. وصفر قطار آخر من فوق المدينة، لكنه لم يكن سوى قافلة للبضائع وكان فيلم يرتجف على الشاشة من أجل بضعة أشخاص تفرقوا في الصالة، التي كانت تفوح منها رائحة الثياب المبللة. وقاد الحاكم ضيوفه إلى غرفة التدخين وفتح علبة للسيجار.

استغل روجيسار، نائب الجمهورية عدم وجود لعبة بريدج هذا اليوم فنام مبكراً، وقرأت زوجته بجانبه في السرير.

تمخّط لورسا على نحو مايفعل الشيوخ والقروبون، وذلك بأن فرد منديله الكبير بكامله، وأحدث صوتاً شبيهاً بصوت البوق، ثلاث مرات، على خمس دفعات، ومن ثم أعاد ثني منديله بكل دقة.

كان وحيداً في عرينه المدفأ أكثر من اللازم والذي أغلق بابه بالمفتاح، حسب مزاجه، ولنقيصة فيه حسب قول نيكول.

كان شعره الرمادي بالطبع أشعث ويزيد عدم ترتيبه بتمرير أصابعه عكس نبت الشعر. وكانت لحيته مقصوصة بتدبيب، وتلوّن شارباه بالأصفرالبني مكان لفافة التبغ.

كانت أعقاب لفائف التبغ في كل مكان، على الأرض وفي المنافض، وعلى المدفأة وعلى تجليد الكتب.

كان لورسا يدخن، ومضى بخطى ثقيلة ليتناول الزجاجة التي تركت عند زاوية المدفأة لتسخن قليلاً.

وتمر السيارات في شارع باريس، على بعد بضع مجموعات من المنازل، ومسّاحات زجاجها تتحرّك، ويظهر المطر على مصابيحها، ووجوه باهتة في داخلها.

لم يكن لورسا يعمل شيئاً، كان يترك لفافته تنطفئ، ويعيد إشعالها، ويبصق عقبها في أي مكان كان، ومع هذا كانت يده تجتذب كتاباً وتفتحه على أي صفحة كانت.

عندها، يقرأ قليلاً، ويشرب جرعات صغيرة من النبيذ، ويخرخر، ويصالب ساقيه ويفكّ مصالبتهما. أما الكتب، فكان

يكدّسها حتى السقف. وكذلك الأمر في الممرات، وفي أكثر غرف المنزل، كتب له، وكتب من أيام أبيه وجده.

ومن دون رغبة، كان يقف أمام رفّ من الكتب، ولعله ينسى أنه كان هناك، ويدخن لفافة تبغ كاملة قبل أن يمسك كتاباً يحمله إلى مكتبه على نحو ماتفعل الكلاب الفتية عندما تخبئ قطع الخبز تحت قش حجرتها...

استمر ذلك منذ عشرين عاماً، منذ ثمانية عشر عاماً بالضبط، ومنذ ذلك الحين لم يستطع أحد جعله يتناول العشاء في المدينة، لاعائلة روجيسار الذين كانوا أولاد عمه والذين كانوا يقدمون عشاء تتبعه لعبة بريدج كل يوم جمعة، ولا عميد المحامين الذي كان صديقاً حميماً لوالده، ولا ابن حميه دوسان، الذي كا يستقبل رجال السياسة، وأخيراً حتى ولا الحكام المتتابعون، الذين في البداية، لم يكونوا يعرفون وأرسلوا إليه دعوة.

كان يحك نفسه وينتفض، ويسعل، ويتمخّط، ويبصق. كان يشعر بالحرارة. وتتغطى سترته البيتية بالرماد الناعم. ويقرأ عشر صفحات من بحث في أحكام القضاء ومباشرة بعدها يقرأ مذكرات من القرن السابع عشر بادئاً من منتصفها.

كلما مرت الساعات كان يزداد احديداباً، وتزداد سيولة عينيه، وتصبح حركته بطيئة وكأنها حركات كهنوتية.

وغرفة نومه، تلك التي أسموها الغرفة، أي الغرفة التي منذ أجيال نام فيها سادة المنزل والتي شغلها هو نفسه مع زوجته، كانت في الجناح الآخر من الطابق. لكن مضى زمن طويل لم يعد يذهب إليها. وعندما تفرغ الزجاجة، أحياناً

حوالي منتصف الليل، وأحياناً أخرى في وقت متأخر أكثر بكثير، عند الساعة الواحدة أو الثالثة صباحاً، كان ينهض ولاينسى أن يدير زر الكهرباء، ثم يشق النافذة خوفاً من الغازات المنتشرة من المدفأة.

ويدخل إلى مكتب مجاور، وهو المكتب القديم لأمين السر، حيث نصب سريراً حديدياً، وترك الباب مفتوحاً، ويخلع ملابسه، ويدخّن أيضاً وهو متمدد حتى اللحظة التي يتنفس بها بتنهدة مسموعة.

في ذلك المساء ـ وكان ثاني أربعاء في الشهر، بما أنه في مقر الحاكم أقيم عشاء المعتادين ـ أعاد لورسا حك المدفأة باهتمام زائد، لأنه بفضل البرد في الخارج، والمطر على ألواح الزجاج، فإن الدفء المكتف يصبح مبهجاً أكثر للحواس.

كان يسمع قطرات الماء، وأحياناً صرير مغلق نافذة لم يحكم إغلاقه؛ فتهب الريح وتنتشر هبّات مفاجئة في الشوارع. ويسمع أيضاً، بوضوح ضربات مؤقتة موسيقية، إنه صوت ساعته الذهبية في جيب صدارته.

أعاد قراءة صفحات سفر تيمور لنك والتي كانت تفوح منها رائحة الورق القديم وكان تجليدها يتفتت. لعله كان سينهض ليجلب كتاباً أكثر تشويقاً عندما نصب ببطء رأسه، مستغرباً وقد ثار اهتمامه.

في العادة، فيما عدا صافرات قطارات الشحن ومرور السيارات البعيد لم تكن أية ضجة تصل إليه، ماعدا خطوات جوزفين القزمة والتي، عند الساعة العاشرة، دون تمييز، كانت تنام بالضبط فوق المكتب، وكان لها هوس، قبل أن تتمدّد، بأن

تجول عشرين مرة في غرفتها في جميع الاتجاهات.

إلا أن فين نامت منذ زمن طويل، وكانت ضجة جديدة غير اعتيادية أبداً وصلت إلى لورسا في استرخائه.

فكر أولاً بفرقعة سوط مثلما كان يسمع صباحاً عند مرور سائق عربة القمامة في الشارع.

لكن ذلك لم يكن آتياً من الشارع، ولم يكن سوطاً. كان ارتداد الضجة أعمق وأطول. ولقول الحق، كان وكأنه تلقى صدمة على صدره، وبعد أن أصاخ السمع، عبّر وجهه عن الضجر، عن تعكير المزاج، حتى عن شعور وإن لم يكن قلقاً، إلا أنه كان يشبهه.

ماكان خارقاً، كان الصمت الذي تبعه. صمت كثافته غير عادية حيث يظن المرء أن موجات مضطربة تهتز.

لم ينهض مباشرة. ملأ كرسيه وأفرغه، ووضع لفافة تبغ في فمه، وانتصب، محاذراً، وسار إلى أن وصل إلى الباب وأصاخ السمع قبل أن يفتحه.

في الممر، أدار زر الكهرباء ولم يكشف ضوء المصابيح الثلاثة المغبرة التي أعطت مرتسم الممرّ سوى الوحدة والصمت.

وقال بصوت منخفض:

ـ نيكول!

إنه متأكد، الآن، أنه سمع تفرقع سلاح ناري. ومازال يقول لنفسه أن لعل ذلك أتى من الخارج، لكنه لم يعد يصدق ذلك أبداً.

لم يجن جنونه، وسار ببطء، بكتفيه المتسديرتين كما يفعل

على الدوام، بتمايله كالدب واتهمته ابنة عمه روجيسار أنه اعتمده ليؤثر على الناس. وكانت تروي حكايات أخرى على حسابه!

وصل فوق الدرج الحجري الأبيض ذي الدرابزين الحديدي، وانحنى فوق البهو في الأسفل وكان فارغاً.

ـ يانيكول!

ومهما تكلم بصوت خفيض، كان صوته يتردّد في المنزل. لعله كان سيستدير وينغمس مجدداً في الهدوء الدافئ لمكتبه. ظن سماع خطى خفية فوق رأسه، بينما مامن أحد كان يسكن هذا الجزء من الطابق الثاني وفيه الغرف ذات السقوف المحنية التي استعملها الخدم فيما مضى عندما كان لديهم مدير خدم، وسائق وبستاني ووصيفات.

كانت نيكول تنام في طرف الجناح الأيسر، وتقدم أبوها في ممر مماثل للذي يوصل إلى غرفته، سوى أنه كان ينقص مصباح من المصابيح الثلاثة المدلاة من السقف. وتوقف أمام باب، وشعر أن نوراً يخرج من تحته وأن هذ النور انطفأ فجأة.

ونادى مرة ثانية قائلاً:

ـ نيكول...

وطرق على الباب، فسألت ابنته قائلة:

ـ ما الأمر؟

ولعله يقسم أن الصوت لم يأت من السرير، الذي يفترض أنه إلى اليسار، وعلى الأقل كان هناك المرة الأخيرة، وقد يكون الأمر قد حدث قبل سنتين، عندما دخل لورسا إلى غرفة ابنته. وقال ببساطة:

- افتحي!

- لحظة...

طالت اللحظة كثيراً، وتحرك شخص وراء الباب محاولاً جعل حركاته صامتة أكثر مايمكن.

في نهاية الممر، كان هناك سلم حلزوني يخدّم المنزل بكامله ويشكل سلّم الخدمة.

كان لورسا لايزال ينتظر عندما صرت درجة من هذا السلم. ولم يكن هناك اي شك بهذا الشأن، وعندما التفت، باكثر حيوية ممكنة، كان متاكداً، تمام التاكيد ان احداً مرّ، رجل بالأحرى وليس امرأة، ولعل باستطاعته التأكيد أنه كان شاباً يرتدي ممطراً بلون أسمر فاتح.

فتح الباب، ونظرت نيكول إلى أبيها بهدوئها المعتاد، دون فضول ودون محبّة، هدوء تولّد من لامبالاة تامة.

- ماذا تريد؟

كان مصباح السقف ومصباح السرير مضاءين، والسرير غير مرتّب، إلا أن لورسا تراءى له أن عدم الترتيب مصطنع. وبالنسبة لنيكول، رغم أنها كانت في مبذلها، كانت لاتزال لابسة جواربها.

سألها وقد نظر مجدداً باتجاه سلم الخدم:

- الم تسمعي شيئاً؟

شعرت بحاجة لأن تقول:

كنت نائمة.

- هناك شخص في المنزل.

- أتظن ذلك؟

كانت ملابس نيكول مبعثرة على السجادة الصغيرة.

ـ لدي انطباع بأن أحدهم قد أطلق عياراً نارياً...

واتجه نحو نهاية الممر. لم يكن خائفاً. ولم يكن قلقاً. لعله كان سيرفع كتفه ويعود إلى مكتبه. ومع هذا، لو أن شاباً اجتاز المجال المكشوف في نهاية الممر، فمن الأفضل الذهاب لاستجلاء الأمر.

والأغرب، أن نيكول لم تتبعه مباشرة. تأخرت في الغرفة، وعندما التفت، بعد أن شعر بها خلفه كانت قد خلعت جوربها.

كان الأمر سيّان بالنسبة له. كانت تستطيع أن تفعل ماتشاء. وكان يسجل هذه التفاصيل دون أن يعي ذلك.

ـ إني متأكد أن رجلاً نزل قبل قليل. وبما أنني لم اسمع الباب في الأسفل، لعلّه متربّص في مكان ما في العتمة.

ـ أتساءل عما يبحث عنه لص هنا. عدا عن الكتب القديمة...

كانت نيكول أطول منه، ممتلئة بعض الشيء، بالأحرى سمينة قليلاً، وشعرها كثيف بلون أصهب محمرّ، وعيناها شقراوان بسحنة بيضاء.

تبعته دون اندفاع ودون خشية، وهي مكتئبة مثله.

واعترف قائلاً:

ـ لم أعد أسمع شيئاً.

نظر إلى ابنته، وفكّر أنه كان بإمكانها استقبال شاب، وكاد مرة ثانية يعود إلى مكتبه.

وجعلته الصدفة يرفع رأسه نحو بئر السلم ورأى هالة، إنها هالة مصباح.

ـ هناك مصباح مضاء في الطابق الثاني.

ـ لعلها فين؟

فرماها بنظرة ثقيلة، محقّرة. ما الذي ستفعله فين، في منتصف الليل في هذا الجناح من المنزل الذي لم يعد يستعمل إلا للتخلص من الأشياء الزائدة. وعلاوة على ذلك، فإن فين ، عندما سافر لورسا، كانت خائفة لدرجة أنها فرضت أن تنام في غرفة نيكول، حيث جلبت سريرها!

صعد، ببطء، درجة درجة، وهو متيقن من أنه يزعج ابنته. كانت المرة الأولى منذ سنوات التي يخرج فيها من الحلقة الضيقة لذهابه وإيابه المعتادين.

وكان على هذا النحو يدخل عالماً مجهولاً تقريباً، وحرك خياشيمه، لأنه كلما تقدم، كان يعتقد بوضوح أنه يشم رائحة بارود.

كان ممر الطابق الثاني ضيقاً. فيما مضى وضعوا فيه سجادة قديمة ـ ولعل ذلك عندما بدّلوا سجاد الطابق الأول، وحصل ذلك قبل ثلاثين عاماً أو أكثر! وكانت هناك رفوف على الجدران ممتلئة كتباً غير مجلّدة، ومجلاّت، ودوريات مصورة، ومجموعات غير متجانسة من الصحف.

مشت نيكول على الدوام، هادئة على أعقاب والدها.

ـ ترى أنه لايوجد أحد!

ولم تضف قولها:

ـ لقد أكثرت من الشراب مرة أخرى!

إلا أن ذلك كان واضحاً في نظرتها.

وأجاب وهو يشير إلى مصباح محترق

ـ لابد أن يكون أحدهم مع ذلك قد أشعل هذا المصباح!

وانحنى وتابع قائلاً:

ـ وجلب لفافة التبغ هذه التي لاتزال ساخنة!

ولفافة التبغ التي لمها كانت أحرقت السجادة المحمرّة ذات اللحمة الظاهرة.

ونفخ لأنه صعد السلم، وقام ببضع خطوات وهو متردّد، ويتساءل دوماً إن لم يكن الأفضل أن يعود إلى غرفته.

إن ذكرياته عن هذا الطابق تعود جميعاً تقريباً إلى أيام طفولته، عندما كانت الغرف الثلاث التي إلى اليسار غرفاً للخدم. الأولى غرفة إيفا، وهي وصيفة كانت فترة طويلة هواه الخفي وفاجأها ذات مساء برفقة السائق بوضع لم ينسه مطلقاً.

والغرفة التي في الأخير هي غرفة أوزيب، البستاني، والذي كان يأتي إليه لصنع أفخاخ لعصافير الدوري.

شعر أن باب الغرفة لم يكن محكم الاغلاق. تقدم، وظلت ابنته هذه المرة خلفه بينما دفع الباب دون فضول، ليرى ماحل بغرفة أوزيب.

لم تترك الرائحة أدنى شك، وعلى كل حصلت حركة خفيفة أو بالأحرى رعدة حياة.

بحث عن زر الكهرباء. ولم يعد يعرف في أية جهة هو. أضاء المصباح ووجد لورسا نفسه أمام عينين تنظران إليه.

لم يتحرك. لم يكن بإمكانه ذلك. كان في الموقف أمر هائل جداً، في هاتين العينين.

كانت عيني رجل تمدّد على سرير ولم يخبئ الغطاء سوى

جـزء من جسـمـه. كـانت سـاق تتدلـى، أحـاط بهـا رباط ثخـين، ولعله ميزاب، مثل مايوضع حول الأطراف المكسورة.

كل ذلك، كان يراه بالكاد. وماكان يؤخذ بالاعتبار. إنما هما عينا هذا المجهول اللتان تنظران إليه بثبات، في بيته، تحت سقفه، وقد ملأهما استفسار واسع.

كـان الجـسم جسم رجل، والوجـه والشـعـر الكثيف، حلق كـالفـرشـاة، أمـا العينان فكانتـا عيني طفل، عينـان واسعتـان خائفتان ظن لورسا فيهما دموعاً متأرجحة.

اهتز الأنف، وتحركت الشفتان. وكان بداية برطمة، تلك التي يقوم بها من يحاول الصراخ أو البكاء.

صوت.. صوت بشري... شيء من القرقرة، أو الاستهلال وكأنه النداء الذي يقوم به الوليد...

ثم مباشرة بعدها، خسف وثبات مفاجئ لدرجة أن لورسا توقف لحظة عن التنفس.

وعندمـا استعـاد رشده، مرّر يده في شعره وقـال بصوت سمعه وكأنه صوت شخص آخر:

ـ لقد مات حتماً..

واستـدار نحو نيكول التي كـانت تنتظر، أبعـد بقليل، في المـمـر، وقـدمـاها عـاريتـان فـي خفـهـا من القـمـاش الأزرق السماوي. وكرر قوله:

ـ لقد مات حتماً...

ثم قال وقد انشغل فكره:

ـ من هو؟

لم يكن ثمـلاً. ولـم يكن مطلقـاً ثمــلاً. وكلمـا تقـدم النهـار

تصبح مشيته أكثر ثقلاً، وكذلك رأسه، ولاسيما رأسه. وتتصل أفكاره برخاوة بعضها ببعضها الآخر، وقد يحدث أن يقول كلمات بصوت منخفض، كلمات لم يكن باستطاعة أحد فهمها وكانت المعالم الوحيدة الظاهرة في حياته الداخلية.

نظرت إليه نيكول بشيء من الاندهاش، وكأن الأمر الهائل، هذا المساء، لم يكن الطلق الناري، والمصباح المضاء، ولا هذا الرجل الذي ينازع خلف الباب، بل لورسا نفسه الذي ظل هادئاً ومتثاقلاً.

أغلقت عاملة صندوق السينما أخيراً القفص الزجاجي الذي كان يتسبب في عذابها طيلة الشتاء بالرغم من أكياس الماء الساخن التي كانت تأتي بها، كان الرجال والنساء يتردّدون لحظة تحت النور ثم يدخلون في العتمة المبللة. وبعد قليل تفتح الأبواب وتغلق في أحياء مختلفة، وأصوات في شوارع صاخبة:

ـ إلى الغد...

ـ تصبح على خير...

وفي الحاكمية كانوا يقدمون شراب البرتقال، مما يشكل علامة أولى.



ـ ألو! روجيسار!...

كان نائب الجمهورية واقفاً، مرتدياً قميص نوم، لأنه لم يستطع التعود على المنامة، وقطب حاجبيه، ونظر إلى زوجته التي رفعت بصرها عن كتابها.

ـ ماذا تقول؟ ماذا؟

عاد لورسا إلى مكتب عمله، ووقفت نيكول بمبذلها قرب الباب. أما فين القزمة، فلم تبدر عنها علامة حياة وهي إن كانت مستيقظة فلعلّها ظلت مسمّرة من الخوف، في أكبر عمق من سريرها، وهي تراقب كل ضجة في المنزل.

اراد لورسا بعد أن يعلق السماعة، أن يصب لنفسه كأساً، إلا أن الزجاجة كانت فارغة. وقد استنفد مؤونته لذلك اليوم. وسيكون مجبراً على النزول إلى القبو حيث لم يقرروا أبداً تركيب الانارة الكهربائية.

وقال لابنته:

ـ أعتقد أنهم سيسألونك. يحسن بك أن تعملي التفكير. ولعل من الأفضل أن ترتدي ملابسك؟

نظرت إله بقسوة: لم يكن لذلك أهمية بما أنهما لم يكونا يحبان أحدهما الآخر. وبما انه مقبول على الدوام انهما لايهتم أحدهما بالآخر خارج وجبات الطعام. ولم يكن ذلك إلا جري العادة، ولأن الأمور تجري على هذا النحو، لذا كان الناس يفاجئونهما لوحدهما، دون أن يقول واحدهما أي شيء.

ـ إن كنت تعلمين من هو هذا الرجل، لعل من الأعقل الاعتراف بذلك مباشرة. أما بالنسبة للذي رايته يمرّ...

كرّرت ماأكدته سابقاً قائلة:

ـ لاأعرف شيئاً...

ـ كما يحلو لك، سيستجوبون فين ودون شك أيضاً هذه الفتاة التي طردتها...

لم يكن ينظر إليها، لكن ذلك لم يمنعه من الشعور بأن ذلك يؤثر عليها.

وقرّر قائلاً بعد أن نهض وتوجه نحو الباب:

ـ لن يتأخروا في الوصول.

سيطول الأمر! لن يأتي روجيسار وحده، لكنه سينبه كاتبه، ومفوض الشرطة أو الفرقة السيارة.

كانت هناك مشروبات روحية وخمور عذبة في خزانة جدارية من غرفة التدخين؛ ولم يكن لورسا يشرب منها مطلقاً وبحث عن شمعة من أجل النزول إلى القبو! وجد شمعة في المطبخ حيث كان يتلمس طريقه بيده، لأنه كان كالغريب في منزله ولم يكن يعرف منه سوى قطاعه.

فيما مضى، في هذا المطبخ، أيام إيفا...

أخذ زجاجة من الخزانة المعتادة، وصعد وهو يتنفس بجهد، ، توقف في الطابق الأرضي ودفعه الفضول للذهاب لتفحّص باب الخدم المطل على الطريق المسدود للدباغين.

لم يكن الباب مغلقاً بالمفتاح. فتحه، وفاجأه على نحو غير سارّ البرد ورائحة القمامة، فأعاد إغلاقه وسار نحو مكتبه.

لم تعد نيكول هناك. لعلها ذهبت لارتداء ملابسها. سمع صخباً في الشارع، وفتح قليلاً مغلق النافذة، ورأى شرطياً على دراجة من المحتمل أن روجيسّار نبّهه وكان ينتظر بجانب الرصيف.

نزع ختم الشمع بعناية، وفتح القنّينة وهو يفكر بالرجل الذي في الأعلى، الميت الذي تلقى رصاصة في صدره، عن قرب شديد تقريباً، رصاصة أطلقها رجل لعله لم يكن شجاعاً، لأنه بدل أن تصيب القلب، فقد انغرزت في مكان أعلى بكثير، تقريباً في العنق. ولأجل هذا دون شك، فبدلاً من أن يصرخ، لم

يستطع الجريح إصدار إلا نوع من القرقرة. لقد مات، وساقه خارج السرير، بسبب فقدانه دمه بالكامل.

كان عملاقاً، ويزيد تأثيره قوة كونه ممدداً بلا حراك. لوكان واقفاً لكان أطول من لورسا بمقدار رأس، وكانت ملامحه قاسية، ملامح فلاح شديد، وإنسان فظ بلا وعي.

ولعل لورسا كان سيدهش كثيراً، بعد أن شرب نصف كأس من خمر بورغونيا، أن يسمع نفسه يقول:

- إنه لأمر مضحك!

حصلت ضجة فوقه. فقد اضطربت القزمة في سريرها لكنها لن تنهض إلا إذا أجبرت على ذلك.

وفي فندق باريس، كان ثلاثة مسافرين يلعبون لعبة البيلوت مع رب العمل الذي كان ينظر إلى الساعة من حين لآخر. وأغلقت أماكن شرب الجعة. وأغلق بواب الحاكمية، هو أيضاً، الأبواب الثقيلة، وابتعدت آخر سيارة.

ازدادت مدة هطول المطر، على نحو مائل، بسبب الريح الآتي من الشمال الغربي، والذي كان هنا فوق البحر، يهب كالعاصفة.

وضع لورسا مرفقيه على مكتبه، وجعل يحك رأسه، وترك الرماد يتساقط على ظهر سترته، ثم نظر حوله بعينيه الواسعتين بلونهما الأخضر المزرق، وكان يتنهد، بالأحرى يتنفس بصعوبة ويتمتم قائلاً:

- سوف يمرضون من ذلك!

وهم، كانوا جميع الناس، وأولهم روجيسار، أو بالأحرى لورانس زوجته، التي كانت تهتم أكثر من غيرها بهذه الأمور،

جيدها وسيئها، بما كان يفعله الناس وبما يجب عليهم فعله: ثم الآخرون، كل من في القصر، على سبيل المثال، الذين لم يكونوا يعرفون أين يجلسون، عندما يقرر لورسا صدفة أن يرافع، والقضاة، والزملاء، كذلك أناس مثل دوش، والذي كان يحتك برجال السياسة وبدأ يتمنى وظيفة مستشار عام؛ وزوجته مارت، التي كانت دوماً مريضة، دوماً شاكية، ترتدي طيلة الوقت ملابس خفيفة.

وكانت مع هذا أخت لورسا، الذي لم تره منذ سنين؛ والشارع، علية القوم، أولئك الذين كان لديهم مايحتاجون إليه والذين يتظاهرون بذلك، والتجار وأصحاب الفنادق، وجماعة نقابة المبادرة مثل جماعة النادي الكبير، جماعة المدينة المرتفعة وجماعة المدينة المنخفضة.

سيكونون مجبرين على فتح تحقيق قضائي! لأن مجهولاً، في أحد أسرّة المنزل...

وهو، لورسا، كان على وجه الإجمال قريبهم جميعاً، جميع الذين يؤخذون بالاعتبار، إن بالدم أو بالمصاهرة، وكان حفيد العمدة القديم الذي كان يسمى شارع باسمه وله تمثاله النصفي في حديقة صغيرة عامة!

انهى كأسه وصب لنفسه كاساً ثانية لم يجد الوقت الكافي لشربها، لأنه سمعت في الشارع أصوات سيارات، اثنتان على الأقل؛ وكانت فين لاتزال في سريرها، ولم تعد نيكول، فوجب عليه أن ينزل، بخطى بطيئة، ليبحث عن مزالج الباب الذي لم يعتد على فتحه، بينما في الخارج كانت تغلق أبواب السيارات بصوت مرتفع.

ـ ٢ ـ

كانت الساعة الحادية عشرة عندما فتح عينيه؛ إلا أنه لم يكن يعرف ذلك بعد، لأنه لم يتجشم عناء مد ذراعه نحو صدراته لكي يأخذ منها ساعته. كان نور ضعيف كما في القبو يغمر الغرفة التي كانت درفات نوافذها مغلقة وفي هذه الدرفات، ظهر ثقبان صغيران شديدا الإنارة.

وكان لورسا ينظر إلى هاتين العينين البرّاقتين بأكبر جدية في العالم، تماماً، مثل الجدّية التي يوليها الأطفال للأمور التافهة؛ كان الأمر أن يحزر الطقس في الخارج. إلا أنه لم يكن متطيراً تماماً، وقد خلق لورسا لنفسه بعض المعتقدات لاستعماله الشخصي: مثل أن الأيام التي حزر فيها صحيحاً هي أيام جيّدة.

وقرّر: شمس ساطعة! ثم استدار بتثاقل لكي يصل إلى زر الجرس الذي أحدث ضجيجه في المطبخ الضريحي للقزمة. وكانت هذه فيه، تقوم بتقديم كأس خمر لمأمور يرتدي زياً

موحداً، جلس بلا تكلف أمام الطاولة، وسأل المأمور قائلاً:

ـ ما الأمر؟

فأجابت هي بلامبالاة:

ـ إنه لاشيء.

كان لورسا ينتظر وقد فتح عينيه، وسمع ضجيج المنزل، وكان بعيداً جداً مبهماً جداً فلم يستطع أن يكون عنه إحساساً دقيقاً. قرع الجرس مجدداً. فنظر مأمور الشرطة إلى فين التي رفعت كتفيها وقالت:

ـ لو أنه يموت على الأقل!

واخذت ركوة قهوة من جانب النار وهزتها وملأت ساكبة قهوة، وامسكت سكرية يغطيها الذباب وكانت على الطاولة. وفي الأعلى، لم تكلف نفسها قرع الباب، ولاأن تقول صباح الخير. وضعت الصينية على كرسي يستعمل بدل خزانة بجانب السرير، واتجهت إلى النافذة وفتحت الدرفات.

ظن لورسا أنه خسر. كانت السماء بلون أخضر مزرق، بلون الزئبق. إلا أنه في اللحظة التي تلت انكشفت السماء وعادت بعدها فاكفهرت من جديد، لأن غيوماً ماطرة كانت تجتاز السماء وكانت ريحها جليدية.

ـ من في الأسفل؟

إنها ساعة قليلة الإمتاع عليه أن يمضيها كل صباح؛ وقد تعوّد عليها، وله طرقه الخاصة لجعل الأمر أقل إضناءً. لم يكن عليه أن يسرع في الحركة، بسبب رأسه الفارغ أكثر مما يجب، ومعدته التي تتأثر بسهولة. الوقت اللازم للقزمة لكي تشعل النار بحركات عنيفة لدرجة كأنها تحقد على الأشياء.

أجابت وقد رمت قميص المحامي على السرير:

- إنه مليء بالناس في الأسفل وفي الأعلى!

- والآنسة؟

- لقد أوصدت على نفسها الباب مع أحد هؤلاء الرجال في قاعة الاستقبال الكبيرة منذ ساعة.

لم يعد تبدل مزاج القزمة طريفاً لأنهم تعودوا عليه منذ سنوات عديدة. كانت نيكول تبلغ السنتين من العمر عندما أخذتها فين على عاتقها، ودفعة واحدة، جعلت تكره باقي الناس ولورسا على وجه الخصوص.

لم يكن المحامي يهتم بذلك. ومبدئياً، لم يكن يرى شيئاً مما يجري في المنزل. وقد يحدث له مع هذا، دون قصد منه، عندما يفتح أحد الأبواب، أن يجد القزمة راكعة، تدفئ بين يديها أو على صدرها الفارغ قدمي الفتاة الشابة العاريتين.

ولم يكن هذا يمنعها من أن تقاطعها، أحياناً طيلة أسابيع، لسبب ما خفي.

بعد القهوة ببضع دقائق، يأتي دور زجاجة الماء المعدني، التي كان المحامي يشربها عن آخرها، وهو يتفرغر. وبعدها فقط كان بإمكانه النهوض. إلا أنه لايرتاح تماماً إلا بعد مضي ساعة من الزمن، بعد أن يكون قد تناول كأسين أو ثلاثة من النبيذ.

- وهل جاء نائب الجمهورية أيضاً؟

- إني لاأعرفه!

نادراً ماكان يستعمل الحمام المخصص له في الجناح الآخر، وهوملاصق لغرفة النوم. وكان يكفيه طشت في خزانة

الجدار، وكأس من أجل فرشاة أسنانه، ومشط. كان يرتدي ملابسه أمام فين المقرفصة أمام المدفأة والتي لم تستطع مطلقاً إشعالها من المرة الأولى.

ـ كيف حال الآنسة؟

وتبدو الأخرى، المتشبثة برأيها، وكأنها تعض بأسنان القوارض التي لها:

ـ وكيف تريد أن تكون؟

... .

جرت الأمور على نحو مضحك في اليوم السابق. فقد اتخذ روجيسار، وهو طويل جداً ونحيل جداً، مثل زوجته ، وكانوا يطلقون عليهما اسم: الخيطان! ـ هيئة منشغلة البال عندما شدّ على يد ابن عمه ليسأله، وقد قطب حاجبيه:

ـ ما الذي حكيته لي على الهاتف؟

ولعله لن يكون مستغرباً لو أن المحامي قهقه ضاحكاً وصاح قائلاً:

ـ لقد انطلى الأمر عليك؟

لكن كلا، كان بالفعل هناك جثة في السرير وقد يمكن القسم بأن لورسا كان فخوراً جداً بذلك، وسعيداً جداً بإظهاره. وأعلن قائلاً:

هاهو الأمر! لاأعرف من هو، ولا كيف جاء إلى هناك، ولا الذي حصل له. إن الأمر يضحك، أليس كذلك؟

كان الكاتب يسعل في كل لحظة ولم يكن بالإمكان الامتناع

عن النظر إليه بنفاد صبر، وفي النهاية بغضب، لأن نوبات سعاله لم تكن لها نهاية. كان هناك مفوض من الفرقة السيارة يدعى بينه أو ليزه، كان رجلاً صغيراً وقصيراً، عيناه كعيني السمك، قليل الشعر، وكان لديه هوس بقول عفواً في كل مناسبة. كان على الدوام بين ساقيك، دون أن يفعل ذلك عن قصد، بمعطفه من الجوخ ذي العقد بلون الشوكولاته، وصارمغيظاً.

واستعلم روجيسار الذي لم ينزعج في حياته على هذا النحو قائلاً:

ـ هل نيكول في المنزل؟

ـ إنها ترتدي ملابسها. ولن تتأخر في المجيء.

ـ أهي على علم بالأمر؟

ـ كانت بالقرب مني عندما فتحت هذا الباب.

وعلى وجه اليقين، كان لورسا قد شرب كثيراً، أكثر من العادة بقليل، وكان لسانه يتلعثم بعض الشيء. كان ذلك مزعجاً أمام الكاتب، والمفوض، ووكيل النيابة الذي وصل ورئيس الشرطة.

ـ أما من أحد في المنزل، يعرف هذا الرجل؟

كانت نيكول في وضع جيد جداً. ومنذ دخولهاا كان من المدهش أيضاً رؤيتها سيدة مجتمع.

كانت وكأنها دخلت غرفة استقبال فيها مدعوون ينتظرونها ومدت يدها إلى نائب الجمهورية قائلة:

ـ مساء الخير، ياابن العم...

ثم التفتت نحو الآخرين، منتظرة أن يقدموهم لها:

ـ أيها السادة...

كان ذلك تجلّياً، لأنها لم تكن مطلقاً على هذا النحو.

واقترح روجيسار الذي أ ثرت عليه الجثة بعينيها المفتوحتين فقال:

ـ هلا خرجنا من هذه الغرفة؟ ولعلّ باستطاعتك كسب الفرصة وإلقاء نظرة عليها، أيها المفوض؟

وصلوا إلى غرفة الطعام، لأن غرفة استقبال الطابق الأرضي لم تكن مستعملة منذ سنين.

ـ أتسمح، يالورسا، بأن أستجوب نيكول؟

ـ أرجوك. .إن كنت بحاجة إلي فأنا في مكتبي.

وأتى روجيسار للانضمام إليه، وحيداً، بعد مضي نصف ساعة.

ـ تدعي أنها لاتعرف شيئاً. إنها قصة مزعجة جداً، يالورسا. أعطيت الأوامر بنقل الجثة إلى المشرحة. ولاأود بدء التحقيق في الليل. وعلى سبيل المثال، سأكون مجبراً على ترك رجل في المنزل...

لم يكن المحامي يرى مانعاً في ذلك! كانت عيناه ملتبستين أكثر من أي وقت مضى، الزجاجة، على المكتب، كانت فارغة.

ـ أليس لديك حقاً فكرة عما يمكن أن يكون الأمر؟

ـ حقاً لا!

وقال ذلك بصوت من الممكن أن يعتبر تهديداً. أو أنه بالتأكيد كان يهزأ من ابن عمه.

وكان الموقف دقيقاً لدرجة أنه مهما أصبح سكيراً ومتوحشاً، فإنه لايزال جزءاً من المجتمع .

لم يكن يرتاد أية استقبالات اجتماعية، بالتأكيد، إلا أنه لم يكن على خلاف مع أحد وكان الناس يشدون على يده عندما يلتقونه في الشارع أو في قصر العدل.

وإذا ماشرب، فقد كان يقوم بذلك وحده، في ركن ما، ويظل محتشماً.

ماذا كان بالامكان لومه عليه؟ كان الناس مجبرين، على العكس، على إظهار شيء من الشفقة تجاهه، أو أن يتمتموا قائلين:

ـ يا للأسف! رجل كان ولاشك أكثر الموهوبين في المدينة!

كان ذلك صحيحاً، وكان ذلك يتجلّى للناس في المرات النادرة التي يقبل بها المرافعة.

لم يلحظ الناس شيئاً في البداية عندما فجأة، قبل ثماني عشرة سنة، بضعة أيام قبل عيد الميلاد، ذهبت زوجته وتركته وحيداً مع طفلة رضيعة عمرها سنتان. كان الناس يبتسمون رغماً عنهم. وطيلة أسابيع اصطدم الناس ببابه المغلق. وأعطاه أناس مثل روجيسار، وهم أقرباء من قريب أو من بعيد للورسا، دروساً في الأخلاق.

ـ عليك ألا تهمل نفسك، أيها الصديق القديم. من المستحيل العيش على هامش العالم مثل دابة مريضة.

كان ذلك مع هذا ممكناً، بما أنه دام ثماني عشرة سنةلثماني عشرة سنة لم يحتج خلالها أحداً، فما احتاج صديقاً ولاخليلة، ولا حتى كما يقال لخدم، بما أن فين، التي استخدمها، كانت تهتم بالدرجة الأولى بنيكول.

هو لم يكن يهتم بها. كان يتجاهلها، ويريد تجاهلها. لم يكن يكرهها بما أنها غير مسؤولة، لكنه كان يشك حسب تقاطع حساباته، أنها ابنة الآخر، وهوملحق بمكتب الحاكم في ذلك الحين.

هذه الكارثة من دون أن تكون ثمة كارثة أثرت على جميع الناس. بالضبط لأنها لم تكن متوقعة ، ولأنه لم تحصل فيها ضجة ولم يدر الناس بشيء فيما بعد.

كان اسمها جنفييف. وهي بنت إحدى أفضل عشر عائلات في المدينة. كانت جميلة وهزيلة. وعندما تزوجت لورسا، تأكد الجميع أنه زواج حب. ولم يحصل هذر، خلال ثلاث سنوات، ولاأية إشاعة سيئة. وفجأة علم الناس أنها ذهبت مع برنار، دون أن تقول شيئاً، وانها كانت خليلته منذ زمن طويل، ولعل ذلك منذ بداية زواجها، ويؤكد بعضهم أن هذا حصل قبل ذلك.

لم يصل خبر عنهما، منذ ذلك الحين. لاشيء! كل ماهنالك أن والدي جنفييف تلقيا بطاقة بريدية من مصر، مع التوقيع فقط.



كان فمه دبقاً، وسار في الممر، ووصل إلى السلم المرتفع ومنه كان بإمكانه رؤية رجلين بقبعة على رأس كل منهما، وقد جلسا في الأسفل وعلى الدرجات الأولى. نظر إليهما لحظة، بهذه النظرة التي تكونت له مع السنين، ثقيلة ومبهمة، يصعب تفسيرها، ويصعب تحملها، ثم وصل إلى الطابق الثاني حيث كنت تسمع ضجة كبرى.

سار المفوض بينه متراجعاً واصطدم به، وخاف، وتمتم قائلاً «عفواً» مرات عديدة. وكان معه رجال آخرون، ثلاثة، أحدهم مصوّر جهّز بآلة هائلة؛ وكانوا يعملون على طريقتهم، وقد وضع كل منهم غليوناً أو لفافة تبغ في فمه، ويجرون القياسات، ويبحثون، ويحملون قطع الأثاث في الغرفة التي وجد فيها الميت.

سأل لورسا بعد أن راقب المشهد:

ـ ألم يأت نائب الجمهورية؟

ـ لاأظن أنه سيأتي: فقاضي التحقيق في الأسفل.

ـ من الذي عيّن؟

ـ السيد دوكو. وأعتقد أنه يجري الاستجوابات. أستميحك العفو...

فسأل المحامي بهدوء قائلاً:

ـ وعن أي شيء؟

ـ عن... عن كل هذه الفوضى...

وابتعد لورسا وقد هز كتفيه. فقد آن الأوان ليتموّن من القبو.

كان المنزل بارداً، وممتلئاً، هذا الصباح، بتيارات هواء غير عادية، وبضجيج غريب. كان المرء يلتقي أناساً لايعرفهم يصعدون أو ينزلون الدرج. وأحياناً يرن الجرس، وكان شرطي هو الذي يفتح الباب.

في الشارع، كان خدم الجيران يمضون وقتهم على العتبات أو في النوافذ، بينما يصعد لورسا من القبو وهو يلهث، وقد حمل بيده زجاجاته الثلاث، ويتجول، غير آبه بأحد، بين رجال الشرطة.

وعندما وصل أمام قاعة الاستقبال الكبرى، فتح الباب. وبدت نيكول، طويلة جداً، ومستقيمة جداً، وبلا مبالاة مغالى فيها، ووقفت فطرياً أمام والدها. خلفها كان يظهر طيف دوكو، متصنع في لباسه، بزيت يلمع شعره، وبرأسه الذي يشبه رأس فأر مريض، وابتسامته المستهزئة التي تبناها. بشكل نهائي معتبراً إياها قاطعة.

كان لورسا يمسك زجاجة بيده، واثنتين في اليد الأخرى ولم يكن منزعجاً من ذلك، رغم نظرة دوكو الملحّة. ونظرت نيكول إلى الزجاجات، هي أيضاً. وبدلاً من أن تتكلم، بما أنه كانت هناك إمكانيات لأن تفعل ذلك، ابتعدت وهي تتنهد.

بدأ دوكو قائلاً:

- ياأستاذي العزيز...

كان يبلغ الثلاثين من العمر. وكان مدعوماً. ويكون كذلك على الدوام لأنه كان يعمل اللازم؛ وقد تزوج امرأة كان بها حول لكنها أوجدت له قرابة بالعائلات الموجودة.

- حسب ماقيل لي إنك نائم، ولم أظن أن من الواجب إزعاجك.

دخل لورسا إلى قاعة الاستقبال ووضع زجاجاته على الطاولة، ولعلها طاولة تم الإتيان بها من مكان آخر، لأنها لم تكن هناك في العادة. كانت الغرفة متسعة وخاوية. وكانت الأرض الخشبية الملمّعة يعلوها الغبار وكانت كراسي مذهبة مصطفة قرب الجدران، وكما لو أن الأمر من أجل حفلة رقص. ولم تفتح درفات سوى نافذة واحدة من النوافذ الأربع، وبما أنه لم تشعل نار، فقد احتفظ دوكو بمعطفه ذي السيور. ونهض

كاتب، جلس أمام أوراقه، عند ظهور لورسا. ولدى كل خطوة كانت الثريا ترنّ، وهي ثريا كبيرة ذات ذوائب من البلّور ولها اهتزازات موسيقية لأقل رجفة في الهواء.

ـ بناء على نصائح السيد نائب الجمهورية، بدأت باستجواب ابنتك.

كلا، بالتأكيد! لم يكن لورسا راغباً بالبقاء هنا، في الغرفة المتسعة جداً، والباردة جداً، والمكفهرة كثيراً. ولدى رؤيته ينظر حوله، كان المرء يشعر أنه يبحث عن ركن يتكوّم فيه، وعله كان يبحث عن كأس يشرب به النبيذ؟

ودمدم قائلاً وقد استعاد زجاجاته:

ـ تعال إلى مكتبي!

وتساءل الكاتب إن كان عليه أن يتبعه. ولم يكن دوكو يعلم أيضاً ماعليه أن يقرّر. ولورسا هو الذي قال له:

ـ سوف يطلبونك عندما يصبح ذلك ضرورياً!

ولم يكن بعد قد أشعل لفافة التبغ التي احتفظ بها بين شفتيه منذ الصباح والتي بدأت تتخرّب. وصعد السلّم. وتبعه دوكو. وبضربة من قدمه أغلق باب المكتب، وفي عرينه، عاد أخيراً نفسه، وكان ينخر، وينتفض ويتمخّط، ويأخذ كأساً من خزانة الجدار، ويسكب الخمر لنفسه، وينظر إلى القاضي ويقول ببساطة، والزجاجة في يده:

ـ كلا؟

ـ لاشيء مطلقاً في مثل هذه الساعة... شكراً... لقد كان لي حديث طويل مع ابنتك دام مايقرب من ساعتين... واستطعت إقناعها أخيراً بأنها تخطئ إن هي لم تتكلم...

ووجد لورسا، بعد أن دار باستدارة مثل خنزير برّي في وجاره، الوضع الجيد في مقعده المريح بجلده المهترئ حيث لم يكن عليه سوى مدّ يده لتحريك الجمر في المدفأة أو من أجل أن يصب كأساً لنفسه.



ـ لست بحاجة أن أقول لك، ياأستاذي العزيز، إنه عندما، في هذا الصباح، أولاني نائب الجمهورية الشرف الرهيب بـ...

كان الأمر صعباً، مع لورسا، لأنه لم يكن يصغي بل ينظر وكانت نظرته تقول:

ـ أيها الغبيّ الصغير!

ـ وليس إلا بعد إلحاحه أنني قبلت و...

ـ لفائف تبغ؟

ـ شكراً! وكان يقع تحت الحواس، أليس كذلك، أن أحداً ما في المنزل كان يعرف من أين أتى هذا الرجل.

وانطلاقاً من هذه الفكرة، بقي علي أن أختار بين...

ـ هيا، يادوكو، هلا حكيت لي حالاً ماقالته لك ابنتي؟

ـ كنت سأفعل ذلك! وأعترف أني وجدت بعض الصعوبة في إقناعها ، ولكن، بعد أن فهمت أنها تخضع لمشاعر نبيلة، وفي حالتنا بالرغبة في عدم خيانة بعض الصداقات...

ـ إنك تزعجني، يادوكو!

ولم يقل «تزعجني» بل كلمة أكثر فظاظة، وانغرز أكثر في مقعده المريح بينما بدأت حرارة الخمرة وحرارة المدفأة تخترقه.

ـ وستفهم أكثر ارتباكي بعد قليل، إننا جميعاً، مهما كنا، نؤمن بسهولة بالمظاهر، بالحقائق السطحية التي تحيط بنا ونجد صعوبة بالتخيل أنه تحت هذه المظاهر المطمئنة، توجد حياة تحتية تكون...

تمخط لورسا بدوي كالنفير، وبوقاحة، لكي ينهي الموضوع، وانكمش دوكو، وقد امتعض.

ـ كما يروق لك! اعلم اذن أن الآنسة نيكول، تخرج مع أصدقاء، في بعض الأمسيات. وفي أمسيات أخرى، تستقبلهم هنا...

وانتظر تأثير هذا الإفشاء ولم يهتز لورسا، وبدا على العكس بالأحرى مغتبطاً بما سمع.

وسأل قائلاً:

ـ في غرفتها؟

ـ في الأعلى، في الطابق الثاني، توجد غرفة، كما يبدو، وكأنها غرفة مهملات، اسموها: مشرب الفوضى...

رنّ جرس الهاتف. وفعل لورسا كما فعلت القزمة صباحاً: بقي زمناً طويلاً دون أن يجيب ولم يعتمد إلا عندما صار الرنين أكثر إلحاحاً.

ـ ما الأمر؟ أهذا أنت ياروجيسار؟ نعم! إنه بالمناسبة في مكتبي. كلا! لاأعرف بعد شيئاً. بدأ... حسناً! أعطيك إياه...

وأمسك دوكو بالسماعة، وهويرتجف.

ـ نعم... ، سيادة النائب الجمهوري.. نعم، سيادة النائبالجمهوري... تريد؟... حسناً، سيادة النائب الجمهوري...

ونظر إلى لورسا.

ـ نعم، إنه هنا... عفواً؟... أمرك، سيادة النائب الجمهوري... قلت له إن بعض الشباب اعتادوا أن يجتمعوا حيناً في المدينة، في مشرب قريب من السوق، وحينا آخرهنا بالذات... نعم، في غرفة في الطابق الثاني... كلا! ليس في تلك، بل في غرفة مجاورة. ومنذ خمسة عشر يوماً، قدّم شاب جديد للمجموعة... وكلعبة جعلوه يشرب، وبعدها، لكي يمتحنوه، تحدّوه بأن يسرق سيارة وينقل المجموعة إلى نزل يبعد عشرة كيلومترات عن مولان..،

«نعم... بالطبع، لقد سجلت الأسماء.. إنه كذلك! وقد فكرت بالأمر مباشرة... يتعلق الأمر بسيارة معاون العمدة التي وجدت ذات صباح برفرف مشوّه وبدم على.. نعم!... كيف؟... أستميحك عذراً سيادة نائب الجمهورية... سآخذ الورقة حيث سجلتها...»

ولأي شعور آخر إلا بأن يجعله يفتاظ، يمكن أن يخضع له لورسا وهو يدور في الغرفة؟ وكلما رماه دوكو بنظرات نفاد صبر، وحتى بنظرات متوسلة تجوّل وهو يلهث.

ـ إليك، سيادة النائب الجمهوري... هناك أولاً إدمون دوسان... نعم، ابن شارل دوسان... لاأعرف على وجه الضبط... من الصعب، معرفة دور كل منهم... وبعده، جول دايا، ابن مجهّز لحم الخنزير في شارع أليّه... صح!... أفكر بالعودة إلى هناك... لقد سجلت الأسماء فقط، وبينها اسم موظف في البنك... وأبوه أمين صندوق في: مصرف تسليف المركز. حيث يعمل الابن أيضاً: دستريفو... ألو! نعم، ياسيادة النائب الجمهوري... ومن ثم من يدعى لوسكا... وأخيراً الجديد، إميل

مانو، وأمه أرملة تعطي دروساً في تعليم البيانو.. ولدى عودتهم من النزل، كان مانو مغتاظاً.... ورأوا جميعاً شيئاً ما على الطريق، خيالاً طويلاً يمد ذراعيه... وحصلت بعدها صدمة...

«وعندها، فإن الشباب، الذين توقفوا، وجدوا رجلاً جريحاً... نعم، ياسيادة النائب الجمهوري، كانت الآنسة نيكول معهم...

«لعلهم جن جنونهم، ذلك مؤكد!... يبدو أن الشخص هددهم وأن الفتاة هي التي اقترحت جلبه إلى بيتها...

«نعم، بدون علم السيد لورسا...

«كلا! أعلمت الطباخة بذلك في اليوم التالي... بالتأكيد! سأستجوبها بعد قليل...

«وإدمون دوسان هو الذي ذهب لاستدعاء الدكتور ماتري... كانت ساق الرجل مكسورة، وانتزع منها اللحم على طول عشرة سانتيمترات...

«نعم! إنه لايزال هنا...»

«هو» كان يصب لنفسه، بهدوء! لأن الحديث بالتأكيد كان عن لورسا!

- ألو... قلت؟.. عفواً! أحدثوا ضجة بالقرب مني... لقد طلبت منها ذلك... لقد اجتمعوا عدة مرات منذ ذلك الحين، نعم... تدعي أن الجريح لايطاق، وأن له أنواعاً كثيرة من المتطلبات...

وابتسم لورسا كما لو أن الأمر قد سلاّه أن يعلم، أنه خلال أسبوعين عاش جريح تحت سقفه، دون علم منه، دون أخذ زيارات الدكتور ماتري بالحسبان (وكانا معاً في الثانوية)

واجتماعات هؤلاء الشبان ويعرف على الأقل واحداً منها، وهو دوسان، ابن شقيقته، ابن المزعجة كما كان يدعوها.

- يقيناً!... نعم... نعم. إني أفهمك... كذلك فقد أكدت على هذه النقطة... بدت لي صريحة جداً... وأضافت أنها البارحة مساءً تلقت زيارة إميل مانو... نعم، ابن الأرملة التي تعطي دروساً في البيانو... على كل، إنها تعطيها دروساً، هي أيضاً... ألو!... لم أعد أسمع شيئاً... صعدا معاً ليريا الجريح... ومن ثم استقبلته نيكول في غرفتها...

وألقى نظرة منزعجة نحو لورسا، الذي لم يبدُ عليه أي انزعاج! وعلى العكس! يمكن التأكيد أنه كان مبتهجاً!

- بالتأكيد... دهشت أنا أيضاً.. ذلك ممكن... لقد فكرت بالأمر... وقرأت هذا الكتاب... أعرف هذه النماذج من الفتيات اللواتي يعترفن بذنبهن خطأً... لكنك تعرف أنها بالأحرى إيجابية... غادرها رفيقها حوالي منتصف الليل إلا عشرين دقيقة... لم ترافقه إلى الباب...

ما الفكرة التي قالها النائب الجمهوري في الطرف الثاني من الشريط؟ لم يستطع القاضي دوكو الامتناع عن الابتسام.

- هذا صحيح! كانوا يدخلون إليه كما يدخل الناس إلى المطحنة... يبدو أن الباب الصغير المطل على زقاق، لايغلق أبداً... سمعت الطلق الناري، بضعة لحظات بعد ذهاب إميل مانو... وتردّدت بالخروج من غرفتها... وعندما كانت على وشك أن تقرّر ذلك، دخل أبوها في الممر... إنه عمل صعب في التأكد، نعم... حسناً! سأقول له ذلك... إلى اللقاء القريب، ياسيادة النائب الجمهوري...

ودوكو، الذي كان لديه الانطباع بأنه انتقم بعض الشيء، التفت إلى رفيقه قائلاً:

- رجاني النائب الجمهوري أن أقول لك إنه منزعج جداً وإنه سيفعل المستحيل لكي لاتتهم الآنسة نيكول، في الصحف... هل سمعت ماقلته له... لاأرى أشياء كثيرة يمكن أن تضاف... إني من رأي النائب الجمهوري نفسه: إنها قضية دقيقة جداً ومزعجة جداً للناس جميعاً.

- ستكون لطيفاً إن أنت هجأت لي الأسماء وأعطيتني العناوين.

- ليست لدي جميعاً... وابنتك، بالنسبة لبعضهم، مثل مانو، لم تكن متأكدة تماماً... يبقى علي أن أطلب منك، من طرف النائب الجمهوري، أن تقبل بالخضوع لاستجواب رسمي.. إنه في منزلك أن...

وكان لورسا قد فتح الباب، وصاح بأعلى صوته في الممر:

- اجعلوا الكاتب يصعد... هيا! أحدكم هناك... ليصعد كاتب القاضي...

انشغل روجيسار بمخابرة السيدة دوسان، وكانت، مكتئبة وترتدي ملابس شاحبة، ولعلها بلون خبازي، وتجر نفسها بحركات سيدة راقية، من ديوان لآخر، ولاتقوم بجهد حقيقي إلا من أجل ترتيب الأزهار في أوانيها بأناملها الضامرة. وكانت تشبه أقل مايمكن لورسا. كانت العنصر المترف في العائلة! وتزوجت دوسان الذي يتصنع الأناقة نفسها. خلف ممر الأشجار، بنيا أفخم دارة في مولان، دارة نادرة يقوم على الخدمة فيها مدير خدم بقفاز أبيض.

ـ ألو! أهذا أنت. ياصديقتي العزيزة؟ كيف حالك؟ إني متأسف. مع هذا يجب أن أنبهك إلى أن ابنك... بالتأكيد! سنعمل مايكون بوسعنا عمله...

بدا للورسا أنه يسمع المخابرة الهاتفية، وأنه يرى أخته المذعورة. بين الوسائد والأزهار، تقرع الجرس لوصيفة وتقدم لنفسها إغماء كاملاً.

ـ هل طلبتني، ياسيادة القاضي.

ـ تفضل بتسجيل أقوال السيد لورسا...

فتلا هذا بسخرية عنيفة قائلاً:

ـ هكتور دومينيك فرانسوا لورسا ده سان مارك... محام في نقابة محامي مولان... ثمان وأربعون سنة... زوج جنفييف لورسا، غروزيير قبل زواجها، ذهبت ولم تترك عنواناً...

رفع الكاتب رأسه ونظر إلى رئيسه، متسائلاً إن كان يتوجب عليه كتابة هذه الكلمات الأخيرة.

ـ اكتب: «أجهل مافعلت واستطاعت أن تفعله المدعوة نيكول لورسا؛ وأجهل ماجرى في غرف منزلي التي لاأشغلها والتي لايهمني أمرها بأي شكل كان. ظننت أني سمعت طلقاً نارياً، ليلة الأربعاء للخميس، فأخطأت باهتمامي بالأمر، واكتشفت، ميتاً برصاصة، في سرير في الطابق الثاني، رجلاً لاأعرفه. ولاأضيف شيئاً آخر.»

واستدار نحو دوكو، الذي كان يصالب ويفك مصالبة ساقيه.

ـ لفافة تبغ؟

ـ شكراً

ـ خمر بورغونيا؟

ـ قلت لك...

• انك لاتشرب مطلقاً في مثل هذه الساعة! بئس الأمر! والآن!...

انتظر، مظهراً بوضوح أنه يرغب بالبقاء وحيداً في مكتبه.

ـ علي أيضاً أن أطلب السماح منك باستجواب خادمتك... أما بالنسبة للخادمة المطرودة البارحة مساءً، فإن البحث جارٍ عنها منذ الآن... لعلك تفهم أفضل من أيٍ كان...

ـ من أي كان، نعم...

ـ أن صورة الميت وبصماته أرسلت إلى باريس من قبل المفوض بينه...

ودمدم لورسا دون سبب، مثلما ينشد المرء لحناً قائلاً:

ـ مسكين أنت يابينه!

ـ إنه موظف له قيمته يقوم...

ـ نعم! له قيمته يقوم!

لم يكن قد أنهى زجاجته الأولى. لكن على العكس أنهى أمر سوء المزاج في الصباح؛ والطعم السيء في فمه وشعوره بفراغ في رأسه.

ـ من الممكن أن أجبر على...

ـ أرجوك!

ـ ولكن...

سحقاً لدوكو! ملّ لورسا وفتح الباب.

ـ إنك متفق معي أنني بذلت كل مابوسعي لكي...

ـ نعم، ياسيد دوكو...

واتّخذ هذا الاسم في فمه شبه مسبّة.

ـ أما بالنسبة للصحفيين...

ـ ستتدبر أمرك، اليس كذلك؟

وبأسرع من ذلك، قسماً! لايستطيع المرء التفكير بهدوء إذا كان رأس دوكو أمام عينيه، ولم يكن هناك حتى رائحة كريهة لمستحضر جمالي أو دهن الشعر إلا واستطاع إشباع المكتب بها!

وهكذا فنيكول...

شدّ على يد القاضي، وعلاوة على ذلك على يد الكاتب، ولينتهي الموضوع، أعاد إغلاق الباب بالمفتاح.

نيكول...

واهتاج على المدفأة وكاد اللهب المرتد يصيبه في ساقيه.

يكول...

جال مرّتين حول المكتب، وصب لنفسه كأساً مليئة خمراً، وابتلعها دفعة واحدة، وهو واقف، ثم جلس وتأمل الورقة الصغيرة التي خربش عليها الأسماء التي تلفظ بها دوكو.

نيكول...

وهو الذي حسبها فتاة مخلّعة الحركات متشبثة برأيها! وانطلقت سيارة: إنه دوكو بلا ريب.

جال الناس في البيت بكامله.

ماذا بالامكان أن تفعل نيكول؟

ـ ٣ ـ

لم يضحك. لم تكن حتى ابتسامة بل اندهاش شديد تبعه شعور بالفرح، بابتهاج مطوّق وكأنه حمّام دافئ.

لم يكن الوقت بعيداً عن الساعة الواحدة. دخل لورسا إلى غرفة الطعام ووجد فيها القزمة تضع الصحون والملاعق والشوك على المائدة بغضب شديد. ومكث، دون أن يعرف لماذا بالضبط، وظهره باتجاه الموقد حيث كان الدخان يتصاعد من كرات اللحم الصغيرة.

وعندها، قالت فين بعد قامها بحركتين أو ثلاث تدلّ على نفاد الصبر كالتي يشرع بها المرء تجاه ذبابة عنيدة، وهي تفتش عن درج الفضيات:

ـ لم أعتقد أنني قرعت الجرس؟

نظر إليها مندهشاً، ودهش أكثر أيضاً من رؤيتها قصيرة لهذه الدرجة وبشعة لدرجة كبيرة وشريرة جداً أيضاً، ولم يكن بعيداً عن التساؤل عما تفعله في منزله. لاحظ أيضاً أن درج

الصحون والملاعق والكؤوس هو الدرج الذي كانوا فيما مضى يضعون فيه المناشف وأدهشته فكرة أنه لم يلحظ التبديل مطلقاً.

في الأيام الأخرى، كان ينتظر صوت الجرس مثلما كان يحصل في الزمن الذي كان فيه المنزل مسكوناً حقاً. بعد قرع الجرس، كان يحصل له أن يتأخر أيضاً ربع ساعة أو أكثر في مكتبه، وأن ينتبه للأمر فجأة، فيذهب إلى غرفة الطعام حيث يجد نيكول مشغولة بالقراءة وهي تنتظره.

دون أن تنبس ببنت شفة، كانت تغلق الكتاب وتوجه نظرة للخادمة فتبدأ بتقديم الطعام.

إلا أنه وصل أولاً، قبل نيكول. وتساءل لحظة لماذا خرجت القزمة من أعماق مطبخها واهتمت بالمائدة، ثم تذكر أن الخادمة الثانية تم طردها.

كان الأمر مثيراً للفضول! ولم يستطع أن يقول فجأة ما الذي يثير الفضول. كان لديه شعور غامض بوجود أمر جديد. كان هنا، في بيته، في منزل ولد فيه ولم ينقطع مطلقاً عن سكناه.

واستغرب فجأة أن يطلق ناقوس هائل لدير من أجل إعلام شخصين فقط أن الوجبة قدمت.

خرجت فين، دون النظر إليه. كانت تكرهه بكل جوارحها ولم تكن تمتنع عن أن تقول لنيكول:

ـ الدابة القذرة والدك...

قرع الجرس. ودخلت نيكول، هادئة، رائعة تقريباً، وليس مطلقاً بوجه شابة تم استجوابها طيلة ساعتين من قبل قاضي

التحقيق. لم تبك. وللمرة الأولى لاحظ لورسا تفصيلاً مدهشاً: كانت ابنته تهتم بأعمال المنزل! كان أمراً قليل الأهمية؛ ولدى دخولها ألقت نظرة إلى كل صغيرة على المائدة، كانت نظرة عابرة لسيدة المنزل. ثم فتحت كوة رافعة ألوان الطعام، وقالت بصوت خفيض، وقد انحنت في داخلها:

ـ ارسلي، يافين...

فكّرت بالأمر! ونابت عن الخادمة وجلبت ألوان الطعام إلى الطاولة وجلسن مكانها. كل ذلك دون نظرة إلى أبيها، ودون كلمة عما جرى، ودون فضول بالنسبة لردود فعله.

ولم يفلح شيء، لاأكله بوساخة كالعادة، ولاتناوله خمر بورغونيا، ولامضغه بضجة، لم يكن يستطيع الامتناع عن العودة إلى نيكول والتي لم يكن يتجرأ على فحصها صراحة وإنما بنظرات خفيفة وخفية.

أمر مدهش، أحب أن يحدثها، وأن يقول لها أي شيء كان، وأن يسمع صوتها وصوته هو بالذات في غرفة الطعام حيث لم يكن يسمع سوى ضجيج الشوك وأحياناً انفجار كرية لحم.

وقالت في رافعة ألوان الطعام:

ـ التالي، يافين!

كانت سمينة بعض الشيء ومع هذا لم تكن تعطي انطباعاً بالرخاوة. وذلك ماأدهش لورسا. كان في بلادة نيكول، وفي هدوئها شيء وكأنه قوة كامنة.

هاهو على مضض منه يسحب من جيبه مع ذرارة تبغ، الورقة المدعوكة والتي كتب عليها الأسماء وقال:

ـ ماذا يفعل، إميل مانو هذا؟

كان متضايناً لأنه تكلم، ولأنه فصم عرى تقليد خلال سنوات عديدة. وكاد أن يحمر في خيانته شخصه بالذات.

استدار وجه نيكول نحوه وكانت عيناها واسعتين، وجبينها هادئاً. وخفضت نظرها على غطاء الطاولة، وعلى الورقة. فهمت وأجابت قائلة:

- إنه مستخدم في مكتبة جورج.

أوشكت أن تحصل محادثة حقيقية. ولعل ذلك كان سيحصل لو أنها قالت فقط بضع كلمات بلا طائل، كلمات زائدة على تلك الضرورية تماماً للجواب؟

توقف الأمر عند هذا الحد. نظر لورسا بثبات وبرباطة جاش إلى قطعة الورق الصغيرة الموضوعة على غطاء الطاولة وصار يمضغ أنشط من ذي قبل.

كان معتاداً، حوالي الساعة الثالثة، أن يتنزه مثلما ينزه المرء كلباً، وبهيئة أن أحداً يقوده من رسنه؛ واستدار بالضبط حول مجموعات البيوت نفسها.

في هذه المرة، ولدى خروجه من بيته، خرج عند القاعدة وتوقف، والتفت، وظل هناك، على جانب الرصيف يتأمل منزله.

لم يكن بالامكان شرح ماكان يشعر به وما إن كان مسروراً أم لا. كان ذلك مدهشاً، هاهو الأمر! كان يرى منزله! يستعيد صورته مثلما عندما كان طفلاً أو شاباً، ووجده مثلما كان يجده عندما يأتي أثناء العطلة من باريس في الزمن الذي كان يدرس فيه الحقوق.

لم يكن انفعالاً. وعلى كال فما من سبب في الدنيا كان يدفعه لأن يكون منفعلاً . كان يظهر التذمر عن قصد.

لكن لم يكن غريبا أن يقول لنفسه إن... وأخيراً، الأمسيات الشهيرة، لعلهم كانوا يشعلون الأنوار! ومن الخارج لابد أن الناس كانوا يرون النور يتسلل من خلال شقوق مغالق النوافذ.

هذا الباب، في الزقاق، يظل مفتوحاً طيلة الليل. ألم يباغت الجيران مطلقاً خيالات كانت تتسلّ؟

ونيكول، في غرفتها، مع هذا...

وتوجب عليه الرجوع إلى قطعة الورق الصغيرة: مانو! إميل مانو! اسم يتناسب تماماً مع الممطر ذي اللون البيج، ومع الخيال الذي رآه في نهاية الممر وأخيراً، عندما كانا في الغرفة، كلاهما، أليس؟...

سار وهو يهزّ رأسه، كتفاه مستديران، وقد وضع يديه خلف ظهره، وتوقف فجأة أمام فتاة صغيرة كانت تنظر إليه. كانت جارة، بالتأكيد. في الزمن الماضي كان يعرف سكان جميع المنازل، إلا أنه حصلت بالتأكيد انتقالات ووفيات. وولادات أيضاً! هكذا، لأية عائلة تنتسب هذه الطفلة؟ بماذا كانت تفكر وهي تتأمله؟ ولماذا خافت؟

لعل والديها قالا لها إنه بعبع، أ و غول؟

في اللحظة التالية،باغت نفسه يتمتم قائلاً:

ـ من الصحيح أنها تتلقى دروساً في تعلم البيانو!

عاد إلى نيكول. ونادراً ماسمع البيانو، كان الأمر شاقاً بالأحرى. إلا أنه لم يدرك مطلقاً أن نيكول كانت تدرس البيانو. ولم يتساءل مطلقاً لماذا، ولافيما إن كانت تحب الموسيقا، ولاكيف انتخبت استاذها، كان جرى له، أن صادف في الدرج أو في الممرات امرأة شعرها رمادي وجهت له تحية حارة.

كان الأمر يدعو للاستغراب! ومما يزيد الاستغراب أيضاً أنه حصل في شارع أليه، الذي كان خارج دائرته، وأنه توقف أمام واجهة مكتبة جورج، وهي واجهة حزينة وكامدة، من الطراز القديم، إنارتها سيئة جداً مساءً بحيث يفترض الناس المخزن مغلقاً عن بعد.

دخل وعرف جورج الشيخ، وقد عرفه دوماً شيخاً، خشناً، خبيثاً، يعتمر قبعة رجال الشرطة، وشارباه كشاربي الفقمة وحاجباه كثيفان.

كان الكتبي يكتب أمام مقرأ مرتفع ولم يرفع رأسه ومع هذا في مؤخرة المخزن في مجال الطول، في القسم الذي ينيره مصباح كهربائي من الصباح حتى المساء، حيث كانت مرتبة الكتب المجلدة بقماش أسود والمعدة لتأجيرها نزل شاب من على سلم.

في البداية، تقدم على نحو طبيعي، وبدا كأي كان: شاب مثلما يمكن أن يرى أمثاله لدى جميع الكتبيين أو في أي مخزن ـ لم يكن مكتمل التكوين تماماً، وعنقه طويلة، وشعره بالأحرى أصهب، وملامحه غير محددة.

فجأة توقف. لعله دون شك عرف المحامي، الذي دلّوه عليه في الشارع؟ من يعلم؟ ولعله رآه في منزله بالذات، بما أن...

كان شديد الشحوب، متوتّراً من رأسه وحتى قدميه، نظر حوله وكأنه يطلب المساعدة.

وفاجأ لورسا نفسه يلعب، ويدير عينيه الواسعتين الشرستين!

ـ ماذا... ماذا أنت...

لم يكن يستطيع! انكمشت حنجرته! ورؤيت جوزة حلقه ترتفع وتهبط فوق ربطة عنق لونها أزرق صريح.

دهش الشيخ جورج، ورفع رأسه.

ـ أعطني كتاباً، أيها الشاب!

ـ اي كتاب، أيها السيد؟

ـ كتاباً ما. اي كتاب أردته...

وقال الكتبي:

ـ أرِ السيد آخر المستجدات!

اندفع الغلام، ولم يمسك إلا في الوقت المناسب كدسة من الكتب كادت تقع. كان شاباً حقاً! لم يكن يبلغ التاسعة عشرة، لعله كان يبلغ السابعة عشرة فقط!! نحيل مثل بعض الفراريج التي زاد نموها! بالأحرى ديك صغير بدأ يأخذ نفسه مأخذ الجدّ!

كان هو، الذي وراء مقود السيارة...

دمدم لورسا في عبه. حنق على نفسه لأنه فكر بكل هذه الأمور وحتى بأنه اهتم بها. لقد استطاع أن يقاوم طيلة عشرين عاماً، والآن، بسبب قصة سخيفة...

ـ لابأس! هات هذا! لاحاجة للفّه!

تكلم بخشونة وبخبث.

ـ كم؟

ـ ثمانية عشر فرنكاً، أيها السيد. سأعطيك غلافاً...

ـ لاحاجة لذلك!

وخرج أخيراً، ودس الكتاب في جيبه، وشعر بحاجة إلى

الشرب. وبالكاد تعرّف على شارع أليه، وهو مع هذا أهم شارع في مولان. وعلى سبيل المثال، بالقرب من بائع السلاح الذي لم يتبدّل اكتشف مخزناً كبيراً للأسعار الموحّدة بمصابيحه الكروية شديدة الإنارة، وبضاعته المعروضة على الرصيف، أجبان بالقرب من قسم الأصواف مع موسيقى مسجلة على جهاز لاقط الأصوات.

أبعد من ذلك، وهو يسير هابطاً في الشارع، قرأ فوق جزارة الخنازير بواجهاتها الرخامية الثلاث: مجزرة دايا الراقية للخنازير.

دايا الذي كان يأتي لبيته أيضاً، مع دوسان وباقي الزمرة!

هل كان أحد الأشخاص الذين يتحركون في المخزن؟ بائعات باللباس الأبيض، غضّات جداً، يذهبن ويعدن بسرعة مجنونة... ورجل يرتدي سترة من النسيج المحبّك بخطوط ناعمة مع مريلة بيضاء... كلا! هذا محمرّ، ولاتبدو له رقبة، يبلغ على الأقل أربعين عاماً...

لعله الأصهب الذي يرتدي ملابس شبيهة، ويقطع لحم الأضلاع؟

كانت الدكان ناجحة، حتى إن المرعقد يتساءل كيف يمكن لمدينة صغيرة أن تبتلع هذه الكميات الكبيرة من لحم الخنزير!

أي مشرب قيل له إن الشباب يترددون عليه؟ لم يسجّل ذلك. وتذكّر أنه قرب السوق، وانغمر في هذا الحي المظلم، ذي الشوارع الضيقة.

مشرب الملاكمة! إنه هو! نافذة ليست واسعة جداً، بألواح

زجاجية صغيرة، تحجبها ستارة من النوع الفلاّحي. غرفة صغيرة، وطاولتان قائمتان وبضعة كراس بالقرب من طاولة شرب مرتفعة.

كان فارغاً. تقدم لورسا وكأنه دبّ، منزعج، وحذر، ونظر إلى صور الفنانات والملاكمين الملصوقة على المرايا، والمقاعد المرتفعة جداً (بلاظهر)، وعدّة الكوكتيل.

برز رجل أخيراً من خلف طاولة الشراب، وكأنه خرج من فتحة باب أرضي، وكان الأمر مشابهاً تقريباً، لأنه كان عليه أن ينحني وأن يمرّ مما يشبه الحفرة لكي يأتي من الغرفة لمجاورة.

كان الرجل ذو السترة البيضاء، يأكل شيئاً ما، وينظر إلى المحامي، وقطب حاجبيه، ودمدم قائلاً وهو يمسك منشفة:

ـ ماالأمر؟

هل كان يعرف لورسا؟ هل كان على علم بما جرى؟ بالتأكيد...

ومن المؤكد أيضاً أنه شخص قليل الجدارة بالاحترام، أنفه مكسور وجبينه مسطح، لعله مصارع أو ملاكم معرض.

ـ الديك نبيذ أحمر؟

كان الآخر يستمر في المضغ، ومد زجاجة في النور لكي يرى إن كان مايزال فيها مايكفي من الخمر، وصبّ أخيراً، بهيئة غير مبالية. كان الخمر به طعم من السدادة... ولم يتكلم لورسا عن شيء، ولم يطرح أسئلة. وذهب، واجتاز الحي المظلم بخطئ أوسع وعاد إلى بيته ومزاجه معكّر.

توجب عليه صعود الدرج، بما أنه وجد نفسه في الطابق

الأول، إلا أنه لم ينتبه لذلك. وهجم، وأشعل مؤقتة الإنارة لينير طريقه، وشعر بشيء ثقيل في جيبه و تذكّر أنه كتابه.

ودمدم قائلاً:

ـ أيها الأبله!...

كان في عجلة من أمره في سبيل أن يعود إلى ركنه، وأن يغلق الباب المبطّن، وأن...

وعلى عتبة المكتب، قطب حاجبيه وسأل قائلاً:

ـ ماذا تفعل أنت هنا؟



مسكين المفوض بينه! لم يتوقع استقبالاً كهذا. نهض، ثم انغمس، وطلب المعذرة. كانت جوزفين هي التي أدخلته إلى المكتب بينما كانت الدنيا نهاراً. وتركته لمصيره، وظل المفوض جالساً، وقد وضع قبعته على ركبتيه، في الظل، ثم في العتمة التامة.

ـ فكّرت أنه لعلّ علي أن أعلمك بأمر... باعتبار أن الأمر جرى في منزلك، أليس كذلك؟...

عاد لورسا لامتلاك مدفأته، وخمر بورغونيا الخاص به، ولفافات تبغه ربما لرائحته أيضاً.

ـ إذن، ماذا وجدتم؟... أتريد منه؟

ـ بكل سرور.

أخطأ بذلك، لأن لورسا لم يقدم له من خمره إلا من قبيل التأدب، والآن لم يجد كأساً ثانية. وأكّد بينه قائلاً:

ـ لست مصراً عليها على نحو خاص... لاتزعج نفسك...

جعل الآخر من ذلك قضية شخصية، وأصرّ على الاتيان بكأس وذهب من أجله حتى إلى غرفة الطعام.

ووجد أخيراً كأساً جلبها وملأها بحركة مهدّدة تقريباً.

ـ اشرب!... ماذا كنت تقول؟

ـ إنني أردت أعلامك. لعل بالإمكان أن تكون مفيداً لنا. لقد تلقينا قبل قليل مخابرة من باريس. تمت معرفة شخصية الرجل. إنه شخص خطير بعض الشيء، واسمه لويس كاغالن، ويلقب بلويس السمين. أستطيع أن أرسل لك نسخة عن بطاقته. ولد في قرية من منطقة كانتال. عندما كان في السابعة عشرة من العمر، كان عائداً ذات مساء من الحفلة، ووجه له رب عمله اللوم لأنه كان في حالة سكر، قام بضربه بالمعزقة وكاد يقتله. وكلفته هذه القصة أن يمكث في دار للتأديب حتى سن الحادية والعشرين، حيث لم يكن سلوكه بأفضل حالاً، وبالتالي، حصلت له متاعب كثيرة مع رجال الشرطة، أو بالأحرى مع رجال الدرك، لأنه كان يقوم بالسرقات في الريف.

هذا هو شخص عاش أيضاً تحت سقف عائلة لورسا! على بعد أقل من عشرين متراً من هذا المكتب حيث كان المحامي يظن نفسه في بيته! ولم يشك مطلقاً في أن...

ـ أعتقد أن السيد دوكو يحتفظ لنفسه بأمر استجواب الشباب واحداً بعد واحد. بالنسبة لي، لقد واجهت الدكتور ماتري، الذي لم يخلق صعوبات في سبيل إعطائي جميع المعلومات المرغوبة. صحيح أنه ذات مساء، أو بالأحرى ذات ليلة، بما أنه كانت الساعة الواحدة صباحاً، ذهب إدمون دوسان

لاستدعائه وأحضره إلى هذا المنزل مطالباً بالكتمان بموجب السر المهني. وكان لويس السمين قد أصيب بجروح خطيرة بعض الشيء من السيارة التي استعارتها الزمرة في نزهتها الطائشة. وبالتالي عاد الطبيب ثلاث مرات، وفي كل مرة كانت تستقبله الآنسة نيكول. ومرتين، كان المدعو إميل مانو حاضراً...

وكان لورسا قد استعاد كثافة قامته، ونظرته الخضراء المزرقة، وعدم اهتمامه.

ـ والآن، يبقى لي أن أحدثك عن الجزء الأكثر خطورة. وكما رأيت، إنه لاشك هناك مطلقاً في أن لويس السمين قتل برصاصة عن قرب بمسدس من عيار ٦,٣٥. وقد وجدت غلاف الرصاصة في الغرفة. وعلى العكس من ذلك استحال علي إيجاد المسدس.

قال لورسا كما لوكان هناك وضوح تام:

ـ لقد أخذه القاتل معه.

ـ نعم. أو أنه خبأه! ذلك مزعج تماماً.

ونهض المفوض.

وأعلن قائلاً:

ـ أعتقد أنني لن أحتاج للمجيء إلى هذا المنزل. ومع هذا، إن كنت ترغب في أن أعلمك...

كان قد ذهب منذ أكثر من خمس دقائق عندما لاحظ لورسا بصوت مرتفع قائلاً:

ـ ياله من رجل قصير مضحك!

ثم:

ـ بالإجمال ما الذي أتى لفعله؟ ما الذي أراد قوله؟ نظر إلى مكتبه، إلى المدفأة، إلى الزجاجة الناقصة، وإلى لفافة التبغ التي كانت تصدر الدخان في المنفضة، والمقعد المريح الذي أشغله المفوض البدين، ثم، وكما لو أنه اقتلع من كل ذلك، فتح الباب، وهو يتهد وذهب في سبيل الاكتشاف.

ماكاد يصل إلى الدرج الكبير حتى انتصب أحدهم أمامه ولعلّ هذا الشخص انتظر فترة طويلة على مقعد على نحو ما انتظر الشرطي في المكتب.

مضت فترة قبل أن يتعرف لورسا على أنجيل، الخادمة التي طردتها نيكول في اليوم السابق. صحيح أنها كانت تعتمر قبعة قاتمة، وطقم تايور أزرق وقميصاً حريرياً بلون الكريم يظهر ثدييها كبيرين جداً، ووضعت الكثير من المساحيق على وجهها، وجعلت خديها بلون أحمر بنفسجي، ورموشها بلون أسود أو أزرق.

ـ هيا، هل قررت استقبالي؟

هناك، في أعلى الدرج، حصل مشهد غير منتظر، تحمله لورسا دون أن يفهم. شيء آخر لم يتوقعه، إنه الفظاظة والسوقية ذات الصرير لهذه الفتاة التي ثارت فجأة، وسبق لها أن عاشت فترة من الزمن تحت سقفه، وخدمته على المائدة ورتبت له سريره.

ـ كم ستعطيني؟

ثم ماعاد يفهم شيئاً:

ـ لست ثملاً بعد، كلا؟ لم يحن الوقت! لاتظن أنك تخيفني بعينيك المتسعتين، وكذلك ابنتك بحركاتها المتكلفة! لاتظن

أيضاً أنني ساخضع! ركبت القطار وذهبت لأستريح في بيتي. سكنت في بيت والديّ ومن الذي رأيته يأتي: رجال الدرك، الذين اقتادوني وكأني سارقة دون أن يبوحوا لي بالسبب إلى قصر العدل، وجعلوني أنتظر أكثر من ساعة على مقعد خشبي دون أن يتوفر لي الوقت لآكل! كل ذلك بسبب ابنتك الشريرة. لكني قلت لهم، أرجوك أن تصدق...

كان أقل انتباهاً للكلام منه لإيقاعه، وللضغينة، والاحتقار الذي كانت تطلقه هذه الفتاة التي عرفها فقط ترتدي ثوباً أسود وتضع مريلة بيضاء.

ـ أعرف كيف تجري الأمور في القرى ولن يصدق الناس أن رجال الدرك أتوا لاستدعائي من أجل لاشيء! وإذا طلبوا معلومات عني، سيكون هنالك أناس للإضرار بي بأقوالهم. إنكم أغنياء بما يكفي لدفع الأموال، مع أنكم تعيشون كالخنازير...

... «تعيشون كالخنازير»، صدمته الكلمة فنظر حوله إلى المنزل الخرب.

ـ هيا، كم ستعطيني؟

ـ ماذا قلت للقاضي؟

ـ قلت له كل شيء، ماذا! قلت له كيف كانت تسير الأمور هنا، وأننا لوقلنا ذلك سابقاً لأناس عاقلين لما صدقوا... حتى إنني في البداية ظننت أنكما مختلا العقل كليكما... ومن الممكن القول أنتم الثلاثة، لأن ساحرتك ليست بأفضل حالاً.. وهي امرأة شرسة أيضاً، هذه!... لكن الأمر لايتعلق بي... أما حفلات العربدة التي كانت تتم في الأعلى، مع شبان من الأفضل لهم أن يكونوا في سريرهم...

لعله كان من الأفضل إسكاتها؟ وأيضاً لماذا؟ كان أمراً غريباً! ولاحظها بانتباه. ولم يصدّق كل هذا الانفعال وهذا الجنون.

ـ وأتخابث لك متظاهرة بالتعقل! وآتي لمراقبة السكر والزبدة في المطبخ! وأبدي لك ملاحظات! كانت القهوة غير ساخنة كفاية! لكنهم يشربون الكحول كالرجال، ويسرقون الزجاجات من القبو! ويشغّلون الحاكي ويرقصون حتى الساعة الرابعة صباحاً!

وهكذا! حتى إنه كان هناك حاك! وكانوا يرقصون!.. وبعدها أن أتحمل تنظيف كل قذاراتهم!... وأنا سعيدة عندما لايكون هناك مرضى يتقيئون على الأرض!... أو عندما كنت لاأجد صباحاً في أحد الأسرة واحداً لم يستطع الذهاب... إنه شيء مستكر، نعم!... ويعاملون الخدم وكأنهم...

رفع لورسا رأسه. سمع ضجة خفيفة. ورأى في الممر المنار بالكاد، خلف أنجيل، ابنته التي خرجت لتوها من غرفتها وكانت تسمع، بلا حراك.

لم يقل شيئاً، وانطلقت أنجيل أعنف من قبل:

ـ إذا أردت أن تعرف ماذا قلت له، للقاضي ـ حتى وإن كان في الأخير حاول إسكاتي! ـ لست خجلة من تكراره! قلت له إن مكانهم جميعاً هو السجن، ومكان ابنتك أيضاً. فقط، هناك أشخاص لايتجرأ أحد على مسّهم! إسأل مسلطيتك، عما كان في الرزم... أو أفضل من ذلك، اطلب منها مفتاح مخزن الغلال، فيما إذا وجدته... وبالنسبة للآخر، التعيس، فإن كانوا قتلوه، فلعلّ ذلك تماماً لأن لهم أسبابهم، علماً أنه لايساوي

أفضل... لقد سمعت بما فيه الكفاية، نعم؟... لماذا تنظر إلي على هذا النحو؟... مع الضرر الذي يلحقه بي ذلك والزمن الذي أضيعه، فإنني أدّعي أن ذلك يعادل ألف فرنك...

كانت نيكول لاتزال هناك وتساءل ماإن كانت لن تتدخل.

ـ لقد أبلغت القاضي أنك ستأتين لمطالبتي بالمال؟

ـ لقد نبهته إلى أنني أريد تعويضاً... ومن الطريقة التي حدثني بها، فهمت ماكانوا سيفعلونه، هيا! «لاتتكلمي كثيراً»... «كوني حذرة»... «طالما أن التحقيق لم ينته»... وباتاتي وباتاتا... لأن هؤلاء الشبان هم أبناء عائلات!... وفي يوم ما لن يتكلم فيه الناس بعد عن أي أمر كان، وبئس الأمر للرجل المسكين الذي ترك نفسه يقتل... وعندها؟

ـ سأعطيك ألف فرنك.

ليس لأنه خاف. ولاأكثر من ذلك من أجل إسكاتها. لقد قدّر أن ذلك يساوي هذا!

اتجه إلى مكتبه ليأخذ المال منه، واستغلّ الفرصة ليشرب كأس خمر. وعندما عاد، عادت أنجيل وجلست وهي واثقة من نفسها.

قالت: شكراً! وهي تثني الورقة وتدسّها في محفظتها.

لعلها شعرت بتأنيب الضمير؟ نظرت إلى لورسا خفية.

ـ إني لاأقول إنك أنت، شخصياً، سيء، ولكن...

لم تكمل فكرتها. ومامن شك أن ذلك كان قليل الوضوح كثيراً. ومن ثم، كان ماله معها. من يعرف؟ لم تكن مطمئنة تماماً..

ـ لاتزعج نفسك، سأغلق الباب...

وظل هناك، ينظر إلى التي كانت على بعد أقل من خمسة أمتار منه وكانت ترتدي ثوباً بلون فاتح. إن لم تعد مباشرة إلى غرفتها، ذلك لأنها فكرت بأنه سيكلمها.

أراد فعل ذلك. وفتح فمه. لكن ما الذي سيقوله لها؟ وكيف؟

لم يجرؤ على ذلك. كان مخبولاً. كانت هناك أشياء كثيرة تفوته. فهمت الأمر لدرجة أنها قررت فتح بابها واختفت.

إلى أين كان ذاهباً عندما تعثر بالامرأة الشريرة. كان عليه بذل جهد ليتذكر. وبوجه الإجمال، كان ذاهباً نوعاً ما بلا وجهة معينة!

ما الذي أرادت أنجيل أن تعنيه بمخزن الغلال؟ أي مخزن غلال كان مقصوداً بالضبط، لأنه كان هناك أربعة أو خمسة في سقائف المنزل. والرزم؟ رزم أي شيء؟

وانتبه أن هاتفه كان يرن منذ بضع دقائق، لكن فكرة الإجابة لم توافه إلا بعد فترة طويلة لأن هذا الرنين كان يثير أعصابه.

مرة أخرى وجد مكتبه حيث كل شيء كان ثابتاً، حيث الفوضى كانت فوضاه الدافئة.

- ألو... نعم... مارت؟... ماذا تريدين؟

أخته! من المدهش أنها لم تخابر قبل ذلك، وهي متمدّدة على أحد كراسيها الطويلة في دارتها الحديثة.

- إن أنت بكيت وأنت تتحدثين، فإنني أنبهك إلى أنني لن أستطيع فهم شيء...

وتساءل كيف أن هذه المرأة الطويلة الشاحبة والمميزة،

الشاكية على الدوام، والمحنية دوماً وكأنها زهرة قطفت، يمكن أن تكون أخته!

وأعلن بعد أن صب لنفسه كأساً:

- لاأبالي بذلك!

كانت تقول له إنهم استدعوا ابنها لدى قاضي التحقيق.

- ... ماالذي تحكينه... أنا؟

كان ذلك بديهياً! لامته أخته لأنه سبب كل شيء، وأنه أساء تربية ابنته. وماذا أيضاً؟

- ... أن أبذل الجهود من أجل...؟ أبداً مطلقاً!... في السجن؟... إذن، أعتقد أن ذلك لن يسيء إليهم... اسمعي يامارت... أقول لك. اسمعي!... إنك تزعجينني، أتسمعين؟... نعم! مثلما تكتب!... مساء الخير...

لقد مضى زمن طويل لم يحصل له هذا الأمر، وقت طويل، حتى إنه تعكّر من ذلك. أصيب بغضب مفاجئ، غضب عظيم وساخن جداً انطلق من أعماقه ووخز جلده. كان يتنفس بضجيج، ودمدم قائلاً:

- آه! ولكن...

وصل به الأمر أنه تردد في أن يشرب كأسه جرعة واحدة. وتساءل عما إذا كان حقاً يرغب بأن يتخدر مثل باقي الأمسيات.

لم تكن درفات النوافذ مغلقة. خلف الألواح الزجاجية الزرقاء بلون الساتين، كانت هناك المصابيح الغازية، والواجهات، وحجارة الرصف، وأحياناً أناس عابرون.

تذكّر فجأة شارع آلّيه. لم يجرؤ على التساؤل إن كان

يرغب أن يكون مرة ثانية فيه، بين الحشود، تحت أضواء مخزن السعر الموحد أو أمام جزارة الخنازير الفخمة.

في أية ساعة تغلق مكتبة جورج؟ فالرجل ذو المعطر، إميل مانو، كان سيخرج. ما الذي سيفعله؟ أين سوف يذهب؟

لو استطاع التحدث مع نيكول...

لعلهم يشعرون بخوف واخز، جميعاً أياً كانوا، ابن بائع لحم الخنزير، ومن كان موظفاً في المصرف، وهذا الأبله دوسان الذي كانوا يرسلونه كل عام إلى الجبل لأنه مثل أمه، صحته سريعة العطب، بينما يسرف أبوه في الانفاق على جميع الفتيات الجميلات اللواتي التقى بهن أثناء أسفاره للعمل.

واحد لعله تسمم لأقصى درجة، إنه روجيسار الذي خلال فترة مهنته القضائية، عاش خائفاً من حادث سيء!

تلقاه، الحادث السيء! أي مجلس حرب سوف يعقدانه، هو وزوجته، في الغرفة الزوجية الباهتة.

لماذا سحب لورسا الورقة المدعوكة من جيبه وفردها أمامه على المكتب ومسدها بطرف أصابعه؟

... دوسان... دايا.. دستريغو... مانو...

والآخر الميت، ماذا كان اسمه أيضاً؟ لويس كاغالن، الملقب لويس السمين!

بيده الثقيلة كتب لورسا هذا الاسم بعد الأسماء الأخرى، ثم فكّر بأن ذلك سيكون مضحكاً أكثر في أن يكتبه بالحبر الأحمر.

شرب مع هذا. لعل الأمر كان أفضل؟ وقام عن قصد بملء المدفأة بعناية دقيقة، بتنظيم المفتاح، وبتحريك الجمر. لم

يكن سيئاً تكرار الحركات السابقة، وأن يعيش كالسابق، وأن لايترك مجالاً للغضب لأن...

لأن ماذا، أخيراً؟

فتح الباب دون أن يقرع، كانت القزمة، المزعجة على الدوام.

- في الأسفل شاب يطلب الاجتماع إليك.

- من هو؟

- لم يذكر اسمه، لكني أعرف من هو...

وانتظرت، لكي تجبره على سؤالها:

- من هو؟

- إنه السيد إميل...

وكانت فين الحقيرة تلفظ «السيد إميل» بفم يمص السكاكر! لاحاجة لسؤالها إن كانت تعرفه، وإن كان المدلل، وإن كانت مستعدة للدفاع عنه ضد رب عملها الفظ!

- إميل مانو، أليس كذلك؟

وصححت قائلة:

- السيد إميل... أتود مقابلته؟

كان يهيم وحيداً، بممطره، في البهو المبلط، سيء الإنارة، يرفع راسه أحياناً باتجاه الدرج من الحديد المصنع الذي ظهرت أخيراً جوزفين في أعلاه. وقالت له:

- تستطيع الصعود!

وصب لورسا لنفسه كأساً آخر من الخمر ليستعيد ثقته بنفسه، وشربه خلسة تقريباً.

ـ ٤ ـ

ـ اجلس!

إلا أن الآخر كان مهتاجاً ولم يجلس. وصل باندفاعة وكأنه سبق نفسه، وتوقف دفعة واحدة أمام الحقيقة المباشرة لزيادة تدفئة هذه الغرفة، ولهذا الذكر الشيخ الملتحي، بعينيه الواسعتين المتورّمتين، اللابد في مقعده المريح.

ـ جئت لأقول لك...

هاإنه، دون أن يكون أراد ذلك، ولعله كان يحتج على أمر ما، أخذ لورسا يصيح قائلاً:

ـ اجلس، بحق الله!

بالتأكيد، كان يستفظع أن يكون جالساً أمام شريك واقف ـ ومع هذا لم يكن هناك مبرّر لأن يصيح على هذا النحو. نظر إليه الشاب المنذهل بخوف، دون أن يفكر بجلب كرسي. كان يرتدي ممطراً بلون أسمر فاتح، لون أسمر فاتح بولي من تلك

المعلقة على الأرصفة أمام مخازن صنع الألبسة. كان تفصيل حذائه رديئاً وجُدّد نعله مرّات عديدة.

دفع لورسا، الذي انتصب فجأة، مقعداً مريحاً نحو زائره، وعاد فجلس بتنهدة ارتياح.

ـ جئت من أجل أن تقول لي؟...

كان الشاب مبللاً. ومنذ أن قطع له اندفاعه، لم يعد يعرف أين صار. ولم يرتبك مع هذا. كان لديه مزيج غريب من التواضع والعنفوان.

رغم التهديد الصامت الذي وجهه لورسا إليه، لم يدر رأسه وكأنه يقول:

ـ إن كنت تظن أنك تخيفني!

إلا أن شفتيه كانتا ترتجفان، وكذلك أصابعه التي كانت تدقّ على قبعة طرية.

ـ أعرف ما الذي تفكر به ولماذا جئت قبل قليل إلى المكتبة...

كان يهاجم، بصراحة وخبث. وفي ذهنه كانت جملته تعني:

ـ لاطائل من كونك محامياً، متقدماً في السن، وأن تسكن قصراً خاصاً وأن تحاول التأثير علي، لقد حزرت كل شيء...

وتساءل لورسا في اللحظة ذاتها، عما إذا كان في الماضي نحيلاً وعظميّاً،، متهيئاً على الدوام للوقوف على ربلتي ساقيه اللتين لم تكتملا بعد، وجوزة بلعومه البارزة، ونظرته الجافلة. وهل أن رجلاً يبلغ الخامسة والأربعين قد يوحي له بالاحترام أم الخشية؟

صار صوت إميل مانو أكثر وضوحاً عندما أعلن قائلاً:

ـ لست أنا الذي قتلت لويس السمين!

والآن كان ينتظر، مرتجفاً على الدوام، ردة فعل العدو بينما تلونت تكشيرة لورسا بابتسامة.

ـ كيف تعرف أن لويس السمين قتل؟

كان سريعاً. وفهم الغلطة التي ارتكبها. الصحف، وعلى وجه الدقة فإن الصحيفة الوحيدة في مولان لم تتحدث عن شيء. والجوار، إن كانوا رأوا سيارة معرض الجثث تقف مقابل سكن لورسا، كانوا يجهلون الحقيقة عن الحوادث.

ـ لأني أعرف ذلك!

ـ هل نبهك أحدهم للأمر؟

ـ نعم... قبل قليل، تلقيت ورقة من نيكول...

كان قد اتخذ قراره، وانتبه إلى أن الصراحة أفضل، وأعلنت نظرته:

ـ ترى أني لاأخفي شيئاً! بإمكانك أن تراقبني مثلما أنت فاعل، وأنت تلاحظ أدنى منعكساتي...

ومن أجل أن يبرهن على صدقه، سحب ورقة من جيبه.

ـ خذ!... واقرأ...

كان بالفعل خط نيكول الراقي الواضح:

« مات لويس السمين. عذبني القاضي طيلة ساعتين. قلت كل شيء فيما يتعلق بالحادث وبالاجتماعات وأعطيت أسماء.».

ومامن شيء غير ذلك. لاشيء قبله، ولاشيء بعده.

ـ هل كانت هذه الورقة معك عندما جئت إلى المكتبة بعد ظهر اليوم؟

ـ نعم.

ـ جلبها لك أحدهم إذن؟

ـ فين! وكانت تحمل أوراقاً أخرى، لكل منا...

وهكذا فنيكول، بعد انتهاء استجواب دوكو بقليل، كتبت بهدوء خمس أو ست رسائل!... ونطنطت القزمة عبر المدينة لتحملها إلى المرسلة إليهم!...

ـ هناك أمر لاأفهمه أيها الشاب: ذلك أنه لماذا طلبت مقابلتي، أنا، لتؤكد لي أنك لم تقتل لويس السمين.

ـ لأنك رأيتني!

هذه المرة، كان يتحداه صراحة ويحدّق إليه بحدّة مزعجة.

ـ كنت أعلم أنك رأيتني وأنك ستتعرف علي على الأرجح. ولذلك أتيت إلى المكتبة. وإن قلت ذلك للشرطة، سوف يحتجزونني...

مثال واضح للخليط الذي يمثله والذي أذهل المحامي؛ فهو في هذه اللحظة كان عصبياً ومشبوب العاطفة وكأنه رجل. إلا أنه في اللحظة التي تلت، ارتفعت شفته السفلى وكأنها شفة طفل على وشك أن يبكي، وصارت جميع ملامحه غير واضحة بحيث يتساءل المرء كيف جرى أن اعتُبر جدياً.

ـ إذا ألقوا القبض علي، فإن أمي...

لم يكن يرغب بالبكاء، وشدّ على قبضتيه، ونهض باندفاعة نابض، والحقد في عينيه تجاه هذا الرجل الذي أهانه والذي، في لحظة كهذه، كان يشرب ببطء كأساً من الخمر.

ـ أعرف أنك لاتصدقني، وأنني سأذهب إلى السجن وأن أمي ستفقد كل طالباتها..

ـ بلطف! بلطف! أترغب ببعض النبيذ؟
كلا؟ على راحتك! تتكلم عن أمك وليس عن أبيك.
ـ مات منذ زمن طويل!
ـ ماذا كان عمله؟
ـ كان رساماً صناعياً لدى دوسان.
ـ أين تسكن؟ أتعيش وحيداً مع أمك؟
ـ نعم. أنا ابن وحيد. ونسكن في شارع إرنست ـ فوافنون إنه شارع حديث، في حي جديد، قرب المقبرة، وفيه منازل صغيرة نظيفة لصغارالكسبة. وغضب الشاب غضباً شديداً لأنه يسكن شارع إرنستـ فوافنون، وظهر ذلك من الطريقة التي قال بها هذا الاسم. كان متعجرفاً. وجسّم الأمور بقوله:
ـ ماتأثير ذلك عليك؟
ـ رجوتك أن تجلس...
ـ عفواً!
ـ بما أنك أنت الذي رأيته ينزل من سلّم الخدم، فأنا فضولي لمعرفة ماذهبت لعمله في الطابق الثاني. كنت خرجت قبل ذلك بقليل من غرفة نيكول. أفترض أنك كنت مغادراً؟
ـ نعم.
كيف لورسا، هو، كان تصرّف لو أنه عندما كان في سن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة وجد في وضع مماثل؟ لأن الغلام كان أمام والد، والد لايجهل أن في منتصف الليل خرج الآخر من غرفة ابنته!
وبالضبط الآن وقد توصلا إلى لبّ الموضوع بدا مانو أكثر هدوءاً.

ـ كنت سأنزل وأخرج من الزقاق، وبالضبط عندما وصلت إلى الدرج، انطلق العيار الناري. ولاأعرف لماذا صعدت بدل أن أهرب. خرج أحدهم من غرفة لويس السمين...

ـ هل رأيت القاتل؟

ـ كلا، لم يكن الممر مناراً.

كان وكأنه يكرّر، وكان يتباهى كثيراً بأن يظهر وجهه من الأمام:

«ـ ترى أني لاأكذب! اقسم لك اني لم أتعرف عليه!»

ـ وبعد؟

ـ لعل الرجل رآني وانتظرني...

ـ كان رجلاً إذن؟

ـ أفترض ذلك.

ـ ماكان من الممكن أن تكون نيكول، على سبيل المثال؟

ـ كلا، بما أني تركتها على عتبة غرفتها...

ـ ماذا فعل الرجل إذن؟

ـ ركض إلى نهاية الرواق. ودخل في غرفة وأغلق بابها. فخفت ونزلت...

ـ دون أن تحاول معرفة ما آل إليه لويس السمين؟

ـ نعم.

ـ هل ذهبت مباشرة؟

ـ كلا. بقيت في الطابق الأرضي، وأنا أصيخ السمع، بينما كنت تصعد.

ـ لدرجة أنه خلافاً عنك كان هناك شخص آخر في المنزل؟

ـ لقد قلت الحقيقة.!

ثم، بذلاقة لسان أكبر قال:

ـ جئت أطلب منك، مالم يكن فات الأوان، أن لاتعلن أني كنت هنا. فقد لاقت أمي مايكفي من التعاسة هكذا... ونتائج ذلك كله إنما ستقع علينا نحن... لسنا أغنياء..

لم يتحرك لورسا، وكان نور مصباح وضعه على المكتب يضرب حلقة من ظلام حوله، ويجعله يبدو أكثر سماكة وأكثر بحترية وكثافة مادة.

ـ وأردت أن أقول لك أيضاً...

وخفض إميل مانو راسه، وأنفه المبلل شخر، وخفض راسه، ثم نصبه بنشاط يحتوي تحدّياً جديداً.

ـ كنت أنوي طلب يد نيكول منك... لو أن كل ذلك لم يحصل، وتدبّرت أمري ليكون لي وضعي...

لامال دوماً، ودوماً وضعه، عقدة الدونيّة دوماً التي تسحقه والتي كان يناضل ضدها على نحو أخرق، لدرجة أنه صار عدوانياً بسببها!

ـ كنت عقدت العزم على ترك مكتبة جورج؟

ـ إنك لاتعتقد أني ساظل موظفاً تجارياً طيلة حياتي؟

ـ يقيناً.. يقيناً.. لعلك دون شك كنت ذاهباً إلى باريس...

ـ نعم!

ـ ولكنت تعاطيت الأعمال؟

وشعر الآخر بالهزء.

ـ لاأعرف إن كنت سأتعاطى أعمالاً، لكني كنت سأتدبر أمري مثل غيري...

قضي الأمر! إنه ينتحب، الأحمق! إنها غلطة لورسا الذي

لم يعرف كيف يعالج الأمر والذي نظر بعينيه المنزعجتين وفيهما شفقة رغماً عنه.

ـ أحب نيكول... وهي تحبني...

ـ لدي كل الأسباب التي تجعلني أعتقد ذلك، بما أنها تستقبلك ليلاً في غرفتها.

لم يكن بإمكان لورسا ضبط نفسه. كان الأمر أقوى منه. ومع هذا أدرك أنه، بالنسبة لشاب، فلعله يبدو مخيفاً، في الجو المؤثر لمكتبه.

ـ لقد أقسمنا على الزواج...

بحث كثيراً في جيوبه وعثر على منديل، واستطاع مسح عينيه، وأن يتمخط، ويشخر من جديد قبل أن يرفع رأسه.

ـ منذ متى وأنت تعرف نيكول؟

ـ منذ زمن طويل... كانت غالباً ماتأتي إلى المكتبة لتبديل كتبها...

ـ وهكذا تمت العلاقة بينكما؟

ـ كلا... لم أكن سوى موظف!

أيضاً! كم جعلته تفاهة مركزه يختنق!

ـ وعلاوة على ذلك كانت أمي تحدثني عنها... كانت تأتي هنا... وقد ربّتني بإعطائها دروس البيانو بعد وفاة والدي... كانت على الأخص تحدثني عنها، لأنه في معظم الأوقات لم تكن الدروس تتم... ففي الساعة الحادية عشرة صباحاً، كانت نيكول لاتزال نائمة...

وفي فترات، مثلما هي الحال الآن، كان يبدو قادراً على التحدث بهدوء، وكان يبوح بأسراره.

ـ لوسكا هو الذي اقترح علي أن أقدم نفسي للزمرة...

ـ من هو لوسكا؟

ـ ألا تعرف مخزن الأب لوسكا؟ مقابل مدرسة البنين... يبيعون فيه الألعاب، والكرات، والسكاكر، وقصب الصيد... والابن بائع في مخزن السعر الموحّد...

لماذا كان استحضار ذكر مدرسة البنين وبائع كرات زجاج الأطفال تجعل لورسا يشيح برأسه؟ في أيامه لم يكن هناك مخزن لوسكا؟ بل كانت امرأة طيبة، الأم بينو، تعرض معللاتها وعنّابها على طاولة صغيرة مقابل المدرسة...

لو لم يكن الشاب هناك، لعل لورسا كان ذهب لينظر إلى نفسه في المرآة، لأنه كان مندهشاً تقريباً لأنه شعر ان وجهه تغطيه الأوبار الكثيفة.

ـ إذن لوسكا قدمك لمن؟ وأين؟

ـ في محل جو!

ـ من هو جو؟

ـ إنه ملاكم سابق يدير مشرب الملاكمة قرب السوق... والأكثر إثارة، كان أن يعيش في هذه الساعة على مستويين مختلفين. كان لورسا هناك، يقيناً، جالساً أمام مكتبه، وقد ملأ ردفاه السميكان المقعد المريح، وكانت أصابعه غيرالمعتنى بها تعبث بلحيته. كانت زجاجة الخمر عن يمينه، والمدفأة خلفه، والكتب بمحاذاة الجدران، وجميع الأشياء المعتادة في مكانها.

للمرة الأولى فقط، كان يعرف أنه هناك، وأنه لورسا، وأنه بلغ ثمانية وأربعين عاماً، وأنه بحتري لهذه الدرجة، وملتح لهذه

الدرجة، ومتّسخ لهذه الدرجة، كان يصغي لصوت الشاب المتردّد حيناً والسريع حيناً آخر ولاينظر إليه إلا خلسة.

قال لنفسه عندها: «كنت نحيلاً بقدر نحوله نفسه...»

أما هو فلم يكن له سوى قلة من الأصدقاء. كان يعيش وحيداً، يتحمس لأفكار، ولفلاسفة وشعراء.

لعل الضرر كله أتى من هذا الأمر، وحاول أن يرى نفسه كما كان، وأن يرى نفسه على الأخص في مقابلة جنفييف وهو يتودد إليها ويبثها هواه.

في هذه الأثناء، كان إميل مانو، الذي لم يستطع أن يحزر في أية أجواء تاه ذهن محدثه، يتلو بعناية قائلاً:

ـ ذهبت إلى هناك وفي المساء حصل الحادث. لست محظوظاً! إنه أمر في العائلة! مات أبي وعمره اثنان وثلاثون عاماً...

دهش لورسا نفسه وقد سمع نفسه يسأله:

ـ وممَّ؟

ـ من التهاب بالرئة أصيب به ذات يوم بينما ذهبنا لاجتماع طيران وجعلت تمطر...

من الذي مات بسبب التهاب الرئة أيضاً؟ إنه أخو جنفييف، لكنه كان أصغر سناً أيضاً، هو، كان يبلغ الرابعة والعشرين، بعد أسابيع قليلة من زواج لورسا.

لم يجد لفائف تبغ مطلقاً على المكتب وهذا ماأغاظه. وبدا له أن مابين عصر جنفييف واليوم فجوة بل ركوداً غير نظيف. إنه مستنقع صغير مازال يتخبط فيه.

لكن، قسماً كلا! إلى أين كان يجره هذا الشاب، هذا

الغلام العصبي، الذي صلّبه العنفوان.

- لقد أخذت سيارة لاتخصك؟

- قال لي إدمون إنهم كانوا يتصرفون على هذا النحو عندما لاتكون الشاحنة الصغيرة في متناول دايا...

- آه، لأن النزهات كانت تتم في شاحنة بائع لحم الخنزير عادة؟

- نعم! بما أن المرآب بعيد بما فيه الكفاية عن البيت، فإن والده لايعرف أننا أخذناها...

- إجمالاً، لم يكن الأهل يعرفون شيئاً! ماذا كنتم تفعلون عند جو؟

- علمني إدمون كيف ألعب التبعيدة والبوكر...

واحدة أخرى، إنها أخته مارت التي سيكون شكل أنفها مضحكاً عندما ستعرف كل هذه الأمور عن ابنها! كانت حالة إدمون دوسان هي المذهلة أكثر من غيرها: إنه شاب طويل سريع العطب، وجنتاه ورديتان، وعيناه كعيني الفتيات، يقوم دوماًبرعاية أمه المريضة!

- هل كان إدمون الرئيس؟

- تقريباً... لم يكن هناك رئيس إن صح القول.

- فهمت.

بما أني جديد جعلوني أشرب، ثم حدثوني عن الذهاب في السيارة إلى نزل الغرقى...

- وكانت نيكول ترافقكم، بالتأكيد؟

- نعم.

- مع من كانت على الأخص؟ لأن أخيراً، أفترض...

واحمر إميل.

ـ لاأعـرف... كنت أظن ذلك أيضـاً... وبعـدها، أقسـم لي برأس أمه أنه لم يكن بينهما شيء...

ـ من؟

ـ دوسان... كانت لعبة... كانا يتركان الناس يظنان ذلك... وكانا يتعمدان أن يتكلما ويجلسا وكأنهما معاً...

ـ أخذت سيارة لاعلى التعيين؟

ـ نعم... لدي رخـصـتي... قـد يـفـيـد ذلك... بمـا أن ليس لدينا سيـارة ، كـان ينقصني المـران... كـانت تمطر... ومن أجل العودة...

ـ لحظة! ماذا فعلتم في هذا النزل؟

ـ لاشيء... كـان مـغلقـاً عندمـا وصلنا... إنه على نحـو مـا مشـرب ومرقص قرب المـاء... نهضت ربة العمل وجعلت بنتيها تنهضان...

ـ لأنه كان هناك فتيات!

ـ اثـنـتـان... إيـفـا وكـلارا... لاأظن أن الأمـر كـان على نحـو ماتعتقد... خطرت الفكرة لي أنا أيضاً... وحاول إدمون جعلي أظن ذلك... رقـصـنا على أنغـام الحـاكي... ولم يبق من المشروبات سوى الجعة والنبيذ الأبيض... وأخيراً قررنا أن...

ـ أن تتابعوا هنا!

ـ نعم!

ظاهرياً،لم يتبدل موقف لورسا، ومع هذا شعر إميل أنه من الآن فصاعداً يستطيع قول كل شيء.

ـ لاأعـرف كـيف وقع الحـادث... منذ أن كنا في نادي

الملاكمة. سقوني خليطاً.. وفي النزل، تناولت النبيذ الأبيض... وعندما أردت التوقف، كان قد فات الأوان... دايا هو الذي جلس إلى المقود واعتقد جازماً انه توجب أن يساعدوني على الصعود...

ـ الصعود إلى فوق؟...

ـ نعم... نمت.... واستيقظت عند الساعة الرابعة صباحاً، بينما كان الطبيب ذهب...

ـ ونيكول؟

ـ سهرت عليَّ. وعاد الآخرون إلى بيوتهم، عدا لويس السمين الذي استقر في السرير وهو ينظر إلينا... شعرت بالخجل... وطلبت العفو من نيكول ومن هذا الرجل الذي لم أكن أعرفه بعد...

نهض مرة أخرى، وتساءل إن لم يخطئ لأنه تكلم كل هذا الكلام، وإن كان المحامي قد نصب له فخاً. ثم، انتقل فجأة من فكرة لأخرى، وقال بلهجة باتّة:

-إذا حاولت الشرطة القبض علي، فسأنتحر قبل ذلك!

ـ لاأعرف ما الذي أتيت لفعله. لعلها حماقة؟... ومع هذا، قبل أن أذهب، أود أيضاً أن أسألك إن كنت تسمح لي بقول كلمة لنيكول...

ـ اجلس!

ـ لم أعد أستطيع... أستميحك عذراً، لكنني أمضيت يوماً رهيباً. لاتشك أمي بشيء... ومع هذا، فإنها قلقة، منذ خمسة عشر يوماً، لأنني أعود إلى البيت في أوقات غير منتظمة... هل هذا خطئي، أنا؟

هل كان يأمل أن يرفع لورسا من معنوياته؟ قد يظن المرء ذلك. لم يكن ذلك وتراً منه. لم يكن يقوم بذلك عن عمد! لم يكن يرى سواه، لاشيء سواه، أو بالأحرى هو ونيكول. لكن كان الأمر ذاته، لأن نيكول لم توجد إلا تبعاً له!

هل لورسا، عندما ذهبت زوجته...

استعاد الرجل حركته العادية في إفراغ كأس كبير من الخمر؛ وتساءل لماذا، بمناسبة قصص الصبية هذه، فكر كثيراً بنفسه. تنبه لذلك فقط. وبعد ساعة، كان يفكر بنفسه أكثر من تفكيره بإميل ونيكول ورفقائهما. خلط المجموع، وكأن وشائج وجدت بين حوادث اليوم ومامضى من الزمان.

مامن أي علاقة! مامن اي تشابه! لم يكن فقيراً مثل مانو، ولايهودياً مثل لوسكا، ولامعتلاً مثل ابن اخته دوسن، لم يكن يتردد على مشرب الملاكمة ولايتسلى بالتظاهر أن ابنة عمه خليلته.

بينه وبينهم، لم يكن هناك فقط فارق جيل.

هو، كان منعزلاً! تلك هي الحقيقة التي كان يبحث عنها! عندما كان فتياً جداً، كان منذ ذلك الحين منزوياً، بسبب كبريائه. وظن أن بالامكان أن يظل المرء منزوياً ولو كان الأمر يتعلق بشخصين معاً! ثم عندما وجد البيت فارغاً ذات يوم!...

لماذا كان ينزعج كثيراً لشعوره بلحيته الخشنة تحت أصابعه؟

هل سيعترف لنفسه أنه كان فريسة شعور يشبه على نحو رهيب الإذلال؟

لأنه بلغ الثامنة والأربعين؟ ولأنه كان مهملاً، متسخاً تقريباً؟ لأنه كان مدمناً على الشراب؟

لم يعد يود أن يفكر بالأمر. وقد سمع مرتين جرس العشاء ولم يهتم لذلك.

سمع صدى وقع أقدام في الرواق الطويل. دار زر الباب. وراجع الشخص الذي أراد الدخول فكره وقرع الباب.

ـ ماالأمر؟

ـ هذا أنا.

كان صوت نيكول الرتيب. فتح لورسا الباب. ولم يستغرب أن ابنته تعرف بحضور مانو، لأن القزمة حدثتها عن ذلك حتماً.

قسماً من أجل ذلك كانت بمثل هذا الهدوء، وشعرها الأصهب مملّس بعناية، وثقيل على نقرتها، لونها غير لامع، ونظرتها هادئة.

ـ لم يكن في نيتي إزعاجكما...

وتقدمت نحو الشاب، وقد مدّت يدها:

ـ مساء الخير، ياإميل.

وكان هو، بوجه الإجمال، الذي انتهى به الأمر لأن يشعر بنفسه فائضاً!

ـ مساء الخير، يانيكول! لقد بحت بكل شيء لوالدك...

ـ أحسنت صنعاً.

كان يخاطب أحدهما الآخر بصيغة المفرد! والقزمة، وهي شرسة مع الناس جميعاً كانت تدعوه السيد إميل. كانوا هم في المنزل، الذين يعرفون بعضهم بعضاً! وهم الذين يشكلون يداً

واحدة! وهم، العائلة وإلى إميل توجهت الشابة بالسؤال قائلة:

ـ هل قررتما شيئاً ما؟

أدار لورسا لهما ظهره، وهو غير متأكد من تعابير وجهه، وكان قليل الرغبة في إعطائهما رهن دونية. وعندها لم يجد ملاذاً سوى أن يصب الخمرة لنفسه. لماذا كانت حركته تقرفهم؟ ألم يكونوا يشربون هم؟ ألم يكن الاهتمام الكبير لزمرتهم أن يمثاوا وهم يستمعون إلى الحاكي ويرقصون؟

أكان سيفتش لنفسه عن أعذار؟ مامن أحد إلا وهاجمه! حتى إنه كان لايعرف، بما أنه يدير لهما ظهره، إن كانا يظهران قرفاً أم رفضاً.

الحقيقة...

إذن! نعم، الحقيقة، كان مجبراً على قبولها، وماكان يضايقه، والذي، قبل قليل، منذ الصباح تقريباً، ولعله منذ زمن طويل، ماكان ينتهي به الأمر لخلق نوع من الانقباض والحصول على الطعم الباهت للخجل، إنما كان أنه و حيد!

وحيد في الزمان وفي المكان! وحيد مع ذاته، مع جسم سمين غير معتنى به، لحية لم تحلق كما يجب، عينا مكبود واسعتان، وحيد مع أفكاره التي انتهى بها الأمر إلى أن تزنخ، ومع خمرة بورغونيا التي كانت تقززّه في كثير من الأحيان.

عندما التفت، كان يبدي برطمته الخبيثة.

ـ ماذا تنتظران؟

لم يكونا يعرفان، المسكينان! فقد إميل توازنه، وتعلق بهدوء نيكول. وسألت هذه قائلة:

ـ هل أستطيع مرافقته إلى أسفل؟

ـم يجب ورفع كتفيه.

لم يكونا قد قطعا عشر خطوات في الممر حتى تقدم نحو الموقد لكي ينظر إلى نفسه في المرآة.



ـ ألو!... أهذا أنت ياهيكتور؟

المزعجة أيضاً!

ـ إني مجنونة من القلق... ألاتريد المجيء للحظة؟... شارل في باريس من أجل الأعمال... حاولت أن أشرح له الوضع بالهاتف، لكنه لايستطيع الحضور قبل الغد...

كان لورسا هادئاً تماماً. ولو أن أخته تلوّت من الكرب لما اهتز دون شك. أما بالنسبة لصهره المعطّر، ولعله في هذه الساعة يتعشى في مكتب خاص مع نساء جميلات!...

ـ اسمع!... لم يعد إدمون... وبالكاد أتجرأ على الكلام عن هذا بالهاتف... ألا تظن بأنهم يتسممون علينا؟

لم يجب، عن قصد!

ـ إنه لايزال لدى القاضي... وقد كلمني دوكو قبل قليل.. أي أني طلبت منه بطريق روجيسار أن يعلمني بمجرى الأمور.

«يبدو أن الاستجواب لم ينته... لم يعط دوكو تفاصيل إلا أنه لمّح أن الأمر أكثر خطورة بكثير مما ظن وأنه سيكون من الصعب كتم القضية...»

قال بصوته الأكثر تتخماً:

ـ وبعد؟

ـ لكن، ياهكتور...

ـ ماذا؟

ـ جرى الأمر كله في منزلك. نيكول هي... وأخيراً، لو أنك رعيتها... اعذرني!... كلا ليس هذا ماأردت قوله... إني مريضة من القلق، إنك تفهم؟

لقد تمدّدت وطلبت الطبيب قبل قليل...

وبما أنها كانت تستدعيه ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع، دون مبرّر، لأنها كانت لديها هبّات حرارة أو أنها كانت تملّ..

كان المرض بالنسبة لها كالنبيذ الأحمر بالنسبة لأخيها!

ـ اصغ ياهكتور... ابذل مجهوداً... وتعال لملاقاتي بعد قليل.. أو بالأحرى إن كنت لطيفاً...

ـ لست لطيفاً!

ـ اسكت! أعرف أنك لست كذلك! ولاأستطيع مع هذا الذهاب إلى قصر العدل في الحالة التي أنا فيها!

اذهب لاصطحاب إدمون إذا انتهوا منه. إني خائفة كثيراً من أن يرتكب الحماقات!... أعده لي... وستعطيني نصيحة... وستعطي نصيحة له على الأخص..

هل أجاب بنعم أم لا؟ دمدم على كل حال.

وعلق السماعة ووجد نفسه واقفاً أمام مكتبه، وقطب حاجبيه لأنه اشتم رائحة رجل غريب..

بعد أن ذهبت نيكول تركت الباب مفتوحاً. فسار في الممر، ودخل إلى غرفة الطعام، ووجد ابنته مكانها.

نهضت وكأن ذلك بناء على إشارة، وفتحت كوة رافعة ألوان الطعام ـ الحساء، يافين!

كانت تتجنب النظر إليه. ماذا بإمكانها أن تفكر فيه؟ ماذا قال لها مانو على العتبة حيث رافقته ؟ ماكان طعم عناقهما؟

كان تعباً، فجأة. كان لحم بدنه حزيناً، كما في الصباح قبل تناوله كؤوسه الأولى من الخمر.

وسأل قائلاً:

ـ هذا حساء ماذا؟

ـ بالحمّص المهروس.

ـ في هذه الحالة لماذا لايوجد خبز مقلي؟

نسيت فين! لايقدّم حساء الحمص المهروس مطلقاً بلا خبز مقلي! واحتد بعد ذلك.

ـ يقيناً، إذا كانت تجوب المدينة لتحمل الرسائل لجميع الشبان، فلا تستطيع الاهتمام بالمطبخ ومن المفهوم، لم يتم الإتيان بخادمة جديدة!

رأى عينين مندهشتين. ولم يدرك أنها كانت أول مرة منذ سنين يهتم بهذه الأمور.

ـ وجدت واحدة ستأتي غداً صباحاً.

كان حانقاً من ذلك تقريباً. هكذا، وبالرغم من كل ماجرى، ورغم الاستنطاق ورسائل التحذير التي كتبتها، ورغم الشرطة في المنزل، ورغم... رغم كل شيء، ماذا! لقد اهتمت بإيجاد من يحل محلّ أنجيل! وسأل بحذر قائلاً:

ـ من أين تأتي؟

ـ من الدير.

ـ إيه؟ ماذا؟

ـ كانت خادمة في دير. والآن هي مخطوبة... وتدعى إليونور...

لم يكن مع هذايستطيع الدخول في ثورة غضب لأن الخادمة التي استخدموها تدعى إليونور!

أكل الحساء. وأنهى نصف صحنه عندما انتبه أنه كان يأكل بصخب، ويميل رأسه، وهو يتنفس، مثل الأطفال قليلي التربية والفلاحين.

ألقى نظرة جانبية على ابنته. لم تكن تنظر إليه. كانت معتادة ذلك! كانت تأكل بكل هدوء، وهي تفكر بأمر آخر.

عندها، بسرعة، قرّب وجهه من صحنه، لأنه، بلا سبب، كان يحصل له أمر أحمق، أمر لايفهمه ولم يكن هناك سبب لحصوله: كانت عيناه تخزانه، وينتفخ وجهه. لابد أن تعبير وجهه كان جميلاً، نعم!

لكن أيضاً، ماهؤلاءالفتيان القذرون...

ـ إلى أين أنت ذاهب ياأبتِ؟

كانت تقول أبي! وليس بابا، بالطبع! لم يكن ينقص سوى ذلك! كان عاجزاً عن الإجابة مباشرة. رمى منشفته على كرسيه، واتجه نحو الباب.

كان قد وصل إليه عندما دمدم قائلاً:

ـ إلى العمة مارت!

أوف...

والأقوى من ذلك، أنه كان يرتدي معطفه فعلاً ليذهب لعندها!

ـ ٥ ـ

كان لديه انطباع أنه نزل إلى الحياة. كان يقوم بحركات سبق أن نسيها ـ أو لعله لازال يقوم بها دون أن ينتبه لذلك ـ مثل رفع قبة معطفه بصرود، وأن يدس يديه في جيبه وهو يتلذذ بالبرد والمطر، وسر الشوارع المتلألئة بانعكاسات النور.

أناس آخرون، في هذه الساعة كانوا يتجولون في المدينة. وحصل له أن تساءل إلى أين يذهبون. منذ كم من الزمن لم يحدث أن خرج مساءً؟ في شارع أليه، كانت أنوار جديدة ولم تكن دار الخيالة في موقع الدار السابقة ذاته، وكانت تعلن مشاهدها برنين متصل.

مشى لورسا بسرعة. ونظراته على الكائنات الحية والأشياء لم تكن خاطفة بعد وكأنها شائنة.

لم يتنازل دفعة واحدة. وعندما رنّ الجرس على الباب الزجاجي والحديدي لعائلة دوش استعاد كل فظاظته ونظر

بازدراء لرئيس الخدم بسترته البيضاء مثل عامل المشرب الذي أراد أخذ معطفه.

- أين أختي؟

- السيدة في غرفة الاستقبال الصغيرة. لعلّ السيد يريد أن يتجشّم عناء أن يتبعني.

ولو أنه قصد ألا يمسح حذاءه، فإن ذلك بقصد الاحتجاج على هذا البهو الأبيض كلياً، وعلى كل هذا الجديد، والحداثة، الذي يستوقف بقوة النظر، غير أنه لم يفعلها، بل فكر بأن يفعل. ثم أشعل لفافة تبغ وألقى بعود الثقاب على الأرض.

- ادخل، ياهكتور... أغلق الباب، ياجوزيف... إذا عاد السيد إدمون، اطلب منه أن يأتي لمقابلتي مباشرة...

ها إن وبر جسمه قد قفّ جميعاً وكأنه شيهم. لم يكن يحب أخته ومع هذا لم تفعل له شيئاً. كان يكرهها لأنها منتحبة، ترتدي ملابس باهتة، بأناقة رخوة وفاترة، ولعلها أيضاً لأنها زوجة دوسان، ولأنها تسكن هذا القصر، ولها خدم مدرّبون.

لم يكن حسداً. لعله غني بنفس قدر غناها.

- اجلس ياهكتور.... إنه لطف منك أنك أتيت... ألم تمر بقصر العدل؟... ماذا تعرف بالضبط؟... ماذا قالت لك نيكول؟... جعلتها تتكلم أليس كذلك؟

- لاأعرف شيئاً، فيما عدا أنهم قتلوا رجلاً في منزلي...

كان يتساءل الآن لماذا كان يكره كثيراً عائلة دوسان، ولم يجد جواباً شافياً. كان يحتقرهم بالتأكيد لتفاخرهم الفارغ،

وبسـبب هذا القصـر الذي بنوه وصـار سـبب وجـودهم. كـان دوسان بالنسبة له مثال الأبله السعيد، بشاربيه المعطرين على الدوام بالمشروبات الروحية ورائحة خليلة صغيرة.

ـ لاتقصد، ياهكتور، قول إن الأطفال هم...

ـ يبدو لي ذلك تماماً...

نهـضت رغـم ألمـهـا ـ كـانت مـصـابة في بطنهـا منذ ولادة إدمون.

ـ إنك مجنون؟ أو أيضاً إذا كانت هذه مزحة، فأنت كريه. تعرف أني أرتجف. لقد خابرتك لأنني لم أعد أستطيع تحمل كربي. وأتيت مسرعاً! كان علي أن أستغرب ذلك! وكان ذلك من أجل أن تعلن بوقاحة أن أولادنا قاموا...

ـ طلبت الحقيقة، أليس كذلك؟

بالاجمـال، لو أنه لم يحصل شيء في المـاضي، فإن زوجته الآن، لأنه كـان يمكن أن تكون له زوجـة، سـتكون بعـجـز مـارت تقريباً. أكانا سوف يسيران مع التيار الذي دفع خلال السنوات الأخيـرة بعض العـائلات الكبيـرة في مـولان إلى القيـام ببناء مساكن جديدة؟

يصعب القول. وعلاوة على ذلك، كا يفكّر بأشياء كثيـرة، دفـعـة واحـدة، وهو ينظر إلى أخـتـه. تبـين له على وجـه الخصـوص أنه يسـتحـيل عليـه تصـور مـاسـيكون عليـه، وهو متزوج، ولديه أولاد آخرون، ولابمـايكون قـد فـعله خـلال هذه السنين العديدة.

ـ اسـمع ياهـكتـور! أعـرف أنك لست على الدوام في وضـعك الطبيعي. أجهل إن كنت قد شربت اليوم. يجب أن تدرك أنه ليس

الزمن الملائم لانحباسك في مكتبك القذر! ومايحصل فإنما بجريرة خطئك بعض الشيء. لو كنت ربيت ابنتك كما يجب...

ـ هيا، يامارت! أمن أجل توبيخي ناديتني؟

ـ إذا كان ضرورياً إفهامك واجبك!... هؤلاء الأطفال غير مسؤولين... في منزل كما في آخر، لم يكونوا ليستطيعوا الدخول والاستسلام لنزواتهم... أتعرف عما أتساءل؟ عما إن كنت حقاً تجهل ماكان يحصل!... وحالياً فإنك لاتتحرك... إنك محام.. وفي قصر العدل، يشفقون عليك، إلا أنهم يحترمونك، رغم كل شيء...

قالت: «رغم كل شيء»! وأنهم يشفقون عليه.

ـ أجهل إن كانت نيكول تشبه أمها، ولكن...

ـ مارت!

ـ ماذا؟

ـ تعالي هنا...

ـ لماذا؟

من أجل أن يصفعها! وقد فعل ذلك، وقد تعجب من عمله. وزمجر قائلاً:

ـ هل فهمت؟

قالها مخاطباً إياها بالمفرد، بينما لم يكن يخاطبها بصيغة رفع التكلف تلك، إلا عندما كانا صغيرين جداً.

ـ إني لاأهتم بزوجك، ولا...

وتوقف مباشرة. حان الوقت لذلك. أكان ممكناً، هو الذي يحتقرهم جميعاً، البعض وكذلك الآخرين، هو الذي وجد القوة للعيش وحيداً في ركنه، طيلة ثماني عشرة سنة، أن يصل إلى

مثل هذه الحجج؟ وأن يصرخ، إجمالاً، على أخته، أن زوجها، إذا كان على الدوام مسافراً، فإنه ماكان يقوم إلا بخيانتها، وأن المدينة كلها تعرف ذلك، وأنها هي نفسها تعرفه ويعزون سوء صحتها وصحة ابنها إلى مرض قديم محدد لدى الزوج؟

فتش دون طائل عن قبعته التي أخذها منه رئيس الخدم. كانت تبكي. وكان يصعب تصور أنهما كليهما يزيد عمر كل منهما على أربعين سنة وأنهما بالتالي كانا شخصين عاقلين.

- أنت ذاهب؟

- نعم.

- الاتنتظر إدمون؟

- ماعليه إلا أن يأتي لمقابلتي في البيت غداً إذا جدّ امر.

- شربت، أليس كذلك؟

- كلا!

كان مهتاجاً، فقط؛ وماأثاره، إذا ذهبنا لعمق الأشياء، كان هذا السؤال الذي طرحه على نفسه للمرة الأولى:

«لماذا، طيلة ثمانية عشر عاماً، عشت وكأنني دبّ؟» وقد بلغ الأمر به أن يتساءل إن كان حقاً بسبب جنفييف، لأنها ذهبت مع شخص آخر وهو كان يتألم.

ألم تكن غرفته كطالب جامعي، في باريس، تظهر الفوضى نفسها، والألفة الصميمة المريبة نفسها في مكتبه هذه الأيام؟

ومنذ ذلك الحين كان يمضي ساعات يقضم الكتب، ويمضغ الشعراء والفلاسفة وهو يتنفس بذلة خجلة بعض الشيء رائحته هونفسه.

في البهو، اختطف قبعته من يدي رئيس الخدم، واستدار لينظر إليه بازدراء، وتساءل قائلاً:

ـ بماذا يفكر، هذا؟

الحقيقة، أنه لم يحاول مطلقاً العيش. وتأكد من ذلك عندما نزل إلى المدينة، قبل قليل، والأخطر من ذلك أنه يعود إليها من جديد ولم يكن يشعر برغبة في العودة إلى المنزل.

وبمثل مراقبته المتلصصة رئيس الخدم، أخذ يستدير نحو أشباح، على قامات تمر خطفاً في الليل وكان البلل يضفي عليها سرية أكبر.

ـ ماذا كانت أخته تتصور؟ ليس الحقيقة، بالتأكيد! كانوا يشفقون عليه، قالت ذلك! كانوا يعتبرونه غريب الأطوار، وكأنه تعيس، ولم لا وكأنه ساقط؟

وهو كان يكرههم جميعاً، ويحتقرهم! عائلة دوكو، ودوش وروجيسار وجميع الآخرين الذين كانوا يظنون أنهم يعيشون الآن...

كانت تفوح من معطفه رائحة الصوف المبلل وكانت لآلئ من الماء ترتجف على وبر لحيته، وبينما كان ينزل لشارع أليّه بمحاذاة المنازل، دون أن يعرف لماذا، أحدث ذلك انطباعاًفي نفسه بأنه رجل متقدم بالسن يذهب خفية إلى مكان سيئ.

مرّ أمام مخزن لبيع الجعة، كانت الألواح الزجاجية مغشّاة بالبخار؛ لكن في الدخان، كان المرء يرى مع هذا رجالاً يلعبون البليار، وآخرين يلعبون الورق، وفكر لورسا أنه لم يكن مطلقاً قادراً على أن يزرع نفسه على هذا النحو في طمأنينة

الآخرين. غبط هؤلاء الرجال. وغبط كل مايعيش حوله. هؤلاء المجهولين الذين يسيرون ويذهبون إلى جهة ما.

وإميل مانو المرتعش كأنه كبل ممدود، متشنج، وعصبي لدرجة أنه كان مضنياً تتبع التحوّلات المتتالية لوجهه، عندما يتكلم عن الحب وعن الموت، وعندما يتحدّى لورسا، ويتوسّل إليه، ويلاحظه، مستعداً من جديد للتهديد!

مرّوا، هو ورفاقه، في هذه الشوارع، وفي ساعات مماثلة. ونيكول معهم! ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة خلقوا مغامرتهم الخاصة.

في هذه الأثناء، كان الأهل يتظاهرون بالعيش، ويزيّنون المنازل، ويهتمون بأمور الخدم، ونوعية الكوكتيل، ونجاح عشاء أو لعبة بريدج.

ألم تتكلم مارت عن ابنها؟ هل كانت تعرفه إذن؟ حتى ولاأقل مايمكن! وليس أكثر مما كان لورسا يعرف نيكول!.

عندما وصل إلى نادي الملاكمة، لم يتردّد، دفع الباب ونفض معطفه المغطى بالماء.

كانت القاعة الصغيرة بنورها المخفّف شبه فارغة. وكان هرّ ينام على طاولة، ورب العمل يلعب الورق مع امرأتين، قرب طاولة الشراب، امرأتان يظهر أنهما من العرق السفلي اللواتي يصادفهن المرء ليلاً في الشوارع.

لم يخطر بباله مطلقاً أنه يوجد منهن في مولان. جلس، وصالب ساقيه. ترك جو لفافة تبغه وأوراقه، ونهض وأتى نحوه.

ـ ماذا أقدم لك؟

طلب مشروباً ساخناً. وضع جو الماء لتسخينه على موقد، ولاحظ في هذه الأثناء زبونه خلسة. نظرت المرأتان إليه أيضاً، وهما تدخنان لفافة تبغ. ولعل إحداهما حاولت إغواءه، لكن جو أشار لها أن لاطائل من ذلك.

كان الهر يخرّ، كان الهدوء شديداً وفي الخارج لايمرّ أحد.

قال جو وقد وضع المشروب الساخن على الطاولة:

ـ لعلك تحب أن تتحدث لبرهة ياسيد لورسا؟

ـ أتعرفني؟

ـ حتى عندما أتيت بعد الظهر، فكّرت أنك أنت. لقد سمعت الناس يتحدثون، إنك تفهم؟

ونظر آلياً إلى طاولة في الزاوية، تلك التي في العادة يجلس إليها الشبّان.

ـ أتسمح؟

جلس، وانتظرت المرأتان وقد استسلمتا.

ـ يدهشني أن الشرطة لم تأت بعد لاستجوابي. لاحظ أن لادخل لي في كل هذا! وعلى العكس من ذلك، فإذا وجد أحد من أجل تهدئتهم، كان ذلك أنا! لكن تعرف كيف تجري الأمور في مثل هذه السن...

كان مرتاحاً، قادراً على إبداء الطلاقة نفسها أمام قاضي التحقيق أو في محكمة الجنايات.

ـ دون الأخذ بالاعتبار أنهم كانوا يحكون أكثر بكثير مما كانوا يفعلون!... أتريد سماع رأيي؟... إن قطّاع الطريق في السينما هم الذين أداروا رؤوسهم... وعندها، اتخذوا مظاهر المنعتقين في تصرفاتهم وأخذوا يلعبون اللعبة وكأنهم نظاميون...

«لكن إن كنت تظن أن لي ضلعاً ولو قليلاً جداً، فإنك تخطئ... ألست محقاً؟

رفع صوته ليتوجّه بالكلام إلى الامرأتين.

ـ ماذا قلت لكما؟... ألم أقل إنه في يوم أو في آخر سيجلب لي ذلك المتاعب؟

«ولم يمنع ذلك أنه عندما يكونون قد أخذوا استحقاقهم كنت أرفض تقديم الشراب لهم... وفي ذاك المساء، عندما جاء الصغير، الجديد، إميل، وقد أراد بكل قواه أن أقرضه المال على ساعة... أعطيته عشرين فرنكاً، لكن لم أقبل الساعة...

«إنك تفهم أن في سني...»

حيرته شخصية لورسا، وكانت لاتتلاءم مطلقاً مع ماتخيل. ماذا حكى الفتية عنه؟ وقد أظهروه دون شك سكيراً متبلد الإحساس تماماً؟

كان جو يبتسم وقد صار أكثر ألفة.

ـ ومأادهشني على الدوام، أنك لم تكن تسمع شيئاً... وفي بعض الليالي كانت تدوم الأمور حتى الساعة الخامسة صباحاً... حتى إنني تساءلت...

ـ ماذا تتناول؟

غمز بعينه، ولو زاد الأمر قليلاً، لدفع لورسا بمرفقه، ولن ينزعج هذا من الأمر، على العكس من ذلك.

ـ سأعطيك قليلاً من النعنع الأخضر... أتتذكر ذلك؟

وعندما مر قرب الفتاتين رمقهما بنظرة. ووقفت إحداهما ومسدت ثوبها ومن خلاله سروالها الداخلي الذي كان يشدها بين فخذيها.

وأعلنت قائلة:

- سأقوم بجولة.

وبعد قليل كانا وحيدين، لورسا والملاكم، في هدوء المشرب اللزج.

- أتريد أن أدلي لك برأيي؟ لعل موقعي أفضل بقليل من أي آخر في سبيل معرفة ذلك. لم يكونوا يسرّون إليّ بشيء لأني لا أحب هذا... لكن منهم من كانوا يأتون كل مساء... وكنت أسمعهم يتحدثون، دون أن يبدو ذلك علي... وعلى سبيل المثال! فإن آنستك، أراهن لم يكن بينها وبين السيد إدمون شيء... وقد أمضي لأبعد من ذلك! إني مقتنع أن السيد إدمون لايهتم بالنساء... وقد عرفت أشخاصاً على شاكلته... لم يكن متيناً... وأقسم أنه كان خجولاً... والخجولون يتفاخرون...

«أما بالنسبة للصغير...»

الصغير كان إميل مانو، ولم يكن يسيء لور سا أن يسمع أخباره بتعاطف.

- منذ الأمسية الأولى، نصحته... مثل الآخر، الذي يدعونه لوسكا، والذي يعمل في الخارج طيلة النهار، على رصيف مخزن الأسعار الموحّدة... لعلك تفهمني... أما السيد إدمون، هو وشخص آخر أتى من حين لآخر ونسيت اسمه، وهو ابن متعهد، كان باستطاعتهما الاستيقاظ في أية ساعة صباحاً... وإذا حصل لهما حادث مؤلم، فالأهل دوماً مستعدون...

«لكن عندما أرى شباناً لم يتغذّوا على نحو جيد، ونشعر أن في منزلهم يحسبون الفلس بعد الفلس...

«يريدون أن يفعلوا مثل وأكثر من الآخرين...

وهذا لم يشرب حتماً كأساً من الكحول وكان ذلك واضحاً على وجهه...

«لم يعودوا في اليوم التالي، لكن السيد إدمون حكى لي بعد يومين أنهم دهسوا رجلاً وأنهم يعالجونه في منزلك...

«..- إن أردت تصديقي، قلت لهم اذهبوا إلى الشرطة و...»

كان لورسا أحياناً يحتاج إلى جهد ليقنع نفسه أنه هو الذي كان هنا، يسمع، ويتمنى أن يسمع أكثر، حتى وأن يطرح الأسئلة.

- أكنت تعرف لويس السمين؟

- أنا، كلا! لكني سمعت عنه، وفهمت مباشرة، أنه شخص غير صريح، مثل الكثير من سوقيي الريف. من هؤلاء المتشرّدين القادرين على خنق طفلة صغيرة إذا ماصادفوها في ركن من الغابة أو أن يهاجموا الشيوخ من أجل مدّخراتهم... لعلك تعرف الأمر أفضل مني بما أنك محام... والخطأ الذي وقعوا فيه، أنهم فقدوا صوابهم ولم يتركوه على جانب الطريق...

«عندما وجد نفسه في منزلك، في قصر خاص، ومعه شباب خائفون وابنتك التي اعتنت به وكأنها ممرضة، لعلك تفكر بأنه أراد استغلال الموقف!...

«كان ذلك عرق الذهب».

«الآن، وما جعلهم يقدمون عليه...»

قدم لفافات تبغه وكأنه غير فخور، وقدّم النار.

- كل ماأستطيع قوله لك هو أن الآخرين اغتمّوا كثيراً... لم يعودوا يتسلّون كالسابق... كنت أسمعهم أحياناً يتهامسون ويسكتون بمجرد أن أقترب...

«إلا أن ذلك، لم يكن يعنيني، أليس كذلك؟...

«أما بالنسبة لمعرفة كيف قرّروا التخلص منه.. لأنهم أخيراً، لم يكونوا يستطيعون ترك الجثة في منزلك... كان يلزم على الأقل نقلها إلى النهر...

«هاك! أفضل أن أعترف لك بأمر. لم يكن ذلك أكثر من وقت الظهيرة، أتى السيد إدمون لدى خروجه من الدرس. كان أكثر شحوباً من المادة، وعيناه تحيط بهما الزرقة كالنفساء، لدرجة أنني ترددت في تقديم الشراب له.

وقال لي:

«هنالك واحد ارتكب حماقة. هؤلاء القميئون، يأخذون كل شيء على محمل الجد.

«نظرت إليه بأمل أن يتابع، إلا أنه بدا على عجلة من أمره. وتنهد قائلاً لحظة ذهابه:

«ستغمرنا المتاعب حتى رقبتنا! ومع والدتي، لن يكون الأمر مضحكاً...»

كانت القزمة، عندما تتحدث عن مانو تقول: «السيد إميل، بلهجة المودة.

وقال جو الملاكم، في الحديث عن دوسان، «السيد إدمون» لعل ذلك لأنه ابن مصنّع آلات زراعية غني، ولعله لأنه بدا له الرئيس ولأنه في أغلب الأحيان هو الذي يدفع؟

وعندها دخل لورسا في الأمر وكأنه يتصفح كتاباً. أخذ ينقب في أنفه ويقتنص بنهم أقل جزء من الحقيقة.

اعتاد جو كثيراً عليه، على هذا الرأس الكبير المكسو بالشعر وبعينيه الخضراوين المزرقتين ونهض قائلاً:

ـ ستسمح لي بتقديم الدورة الثانية؟

وقدّمها بسطوة، وجلس، دون أي انزعاج.

ـ وفي فترة بعد الظهر تلك، ظننت أنك ستسألني. ثم فكّرت أنه مع الشباب المشاركين، ستحلّ القضية... ومع هذا، يبدو أنهم استدعوا السيد إدمون إلى قصر العدل...

ـ من الذي قال لك؟

ـ ذاك الذي في المصرف... هيا ما اسمه؟... دستريفو، على ما أعتقد... ولم أفهم مطلقاً ما الذي يفعله بين الآخرين... أتعرفه؟

ـ كلا.

ـ إنه طويل نحيل... يقيناً، في هذه السن، هم جميعاً نحيلون أكثر أو أقل، عدا بائع لحم الخنزير... لكنه نحيل من نوع خاص، له نظارتان، وشعره يقسمه فرق حسن الهيئة وخجول لدرجة أنه كان يزعجني... يبدو أن والده أمين صندوق في المصرف ذاته منذ ثلاثين عاماً... وأتركك تفكّر بالضجة التي سيحدثها هذا الأمر... إنه مرتبك جداً...

ـ الأب؟

ـ كلا! الابن... جاء على الدراجة، عند إغلاق المكاتب... وأعتقد أنه تلقى رسالة...

قسماً! إنها بطاقة نيكول، لم تنس أحداً وقد ركضت القزمة في جميع أنحاء المدينة!

ـ ... لم يعد يجرؤ على العودة إلى منزله... وسألني، كما لو أن الأمر لايتعلق به، إن كانت الشرطة في باريس تستطيع بسهولة العثور على أحد الناس... قلت له أن لايفعل، وأن ذلك لن يطول أكثر من عدة أشهر...

لعله شعر بالقلق فجأة أمام الهدوء المطلق للورسا؟

- هل أنت ستهتم بالموضوع، قل لي؟ يبدو أنك عندما تترافع، تتردّى الأمور كثيراً. لكن لايحدث هذا في أغلب الأحيان. على كل حال، إن كنت بحاجة لشهادتي... حصلت لي متاعب فيما مضى، مثلما يحدث لغيري، لكن منذ العفو الأخير، فإن سجلي العدلي نقي... حتى إنه لم يعد لهم الحق بالتحدث عن ذلك!...

لم يقرر لورسا الذهاب. وكان حانقاً على نفسه لأنه هنا، يسمع، ومع هذا كان مهيّجاً مثل طفل تروى له حكايةلايجدها أبداً طويلة بما يكفي.

وسأل بعد أن قاوم الرغبة بطلب كأس رابع:

- ماهو نزلهم للفرقى؟

بدأت عيناه تخزانه. وشعر بارتفاع حرارته. لم يكن عليه، هذا المساء، أن يتجاوز الحد.

- يمكن قول إنه لاشيء. كانوا يتوهمون. خذ مثلاً! لو صدفة وجدوا صديقاً عندي، كانوا يتصورون مباشرة أنه مجرم خطير... وفي مرات أخرى، كانوا متيقنين أن الشرطة تراقبهم وكان علي أن أذهب دون انقطاع لإلقاء نظرة على الرصيف... وأعتقد انهم جميعاً اشتروا المسدسات، ولعلهم لم يتجرؤوا على استخدامها....

قاطعه لورسا قائلاً:

- هناك أحدهم استخدم مسدسه!

عنده! في بيته! ومامن أحد في المدينة، وهو أقل من الآخرين، لم يشك أن زمرة من الفتيان كانت تعيش حياة على

هامش حياة الآخرين.

كان إدمون لطيفاً مع أمه، لطيف وكأنه فتاة، كانت تكرّر قول ذلك بطيبة خاطر وهي تظهره مثالاً للآخرين.وفي المساء...

- بكم أنا مدين لك؟

- ستة عشر فرنكاً... أحاسبك بسعر الأصدقاء، مثلما أعاملهم... أتعتقد أن الذي أطلق النار سيحصل على الظروف المخففة، أنت؟

كان يتكلم وكأنه رجل من المهنة، وتجنب بعض الكلمات.

- إنهم قساة، منذ بعض الحين... وفي روان، نفذوا الحكم بشخص لم يكن يبلغ سوى التاسعة عشرة...

في زاوية الشارع، مرّ لورسا بالقرب من إحدى المرأتين؛ كانت تمسك ممطرة وتذرع الرصيف، إحدى المرأتين؛ جاثمة على كعبيها العاليين، وقالت له بألفة: «مساء الخير».

لم يستسلم للعودة إلى منزله، ولملاقاة مكتب عمله الذي علق فيه مدة ثماني عشرة سنة. كانت حركته فجائية. وبما أنه وصل إلى شارع ألّيه ومرت سيارة أجرة فارغة، نادى عليها.

- أتعرف نزلاً يدعى نزل الفرقى؟

- جهة البريد القديم؟

- أعتقد...

- أتريد أن أقودك إلى هناك؟

ورمق الرجل، وهو رب عائلة طيب، زبونه بنظرة فاحصة، وانتهى به الأمر لفتح باب السيارة.

- سيكون السعر ستين فرنكاً للذهاب والإياب...

منذ كم من الزمن لم يعد يركب سيارة أجرة، ولاسيما في الليل؟ وبالكاد أنه لايزال يحب الشوارع، ومنظر ظاهر المدينة فيما يلي المقبرة، في المكان الذي بنوا فيه الحي الجديد الذي يسكنه إميل مانو وأمه.

وقال السائق وهو يلتفت:

ـ هناك شيء ما يحترق!

كان عقب لفافة تبغ تركه لورسا يسقط على السجادة وسحقه.

ـ أتعرف، من الممكن أن يكون جميع الناس قد ناموا...

كانت سيارة خاصة قديمة، دون فاصل بين السائق وزبونه. ولعل السائق أراد التحدث قليلاً. كانت المساحة تتأرجح بحركة مزعجة. ومن حين لآخر يلتقون بأضواء سيارات أخرى.

ـ انتظر! أعتقد أننا يجب أن نستدير هنا... فمن النادر أن تواتينا فرصة المجيء إلى هذه النواحي...

بعد طريق مليء بالحفر، على بعد مائتي متر من مزرعة دهنت جدرانها بالكلس الأبيض، رأيا انعكاسات النهر، وضفة منخفضة وموحلة، ومنزلاً بطابقين يصدر منه نور.

ـ هل ستتأخر كثيراً؟

ـ لاأظن ذلك.

قرأ كل شيء، وهضم كل شيء، وفكر يوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة بكل المشاكل الانسانية ولم يكن يتقن الاتيان ببعض الحركات، وأن يدخل إلى نزل، وأن يجلس إلى طاولة.

حتى إنه لايعرف، إن صح القول، وجود أماكن كهذه، وتقدم موارياً، وعينه حذرة.

كانت مع هذا قاعة مقهى تافهة، أكثر نظافة مما هي عادة في الريف، جدرانها مطلية بالدهان الزيتي، وعليها طبع حجري ملوّن للدعاية وطاولة مشرب من صنوبر المناقع.

ومع هذا فلسبب أو لآخر، لم يكن المرء يشعر أنه يدخل إلى مكان عام، رغم الطاولات المصفوفة والزجاجات على رف. كان المكان هادئاً جداً،، حميمياً على نحو مطبخ أناس متوسطي الحال. وكانت الستائر سكرية اللون مغلقة تماماً.

كان رجل جالساً إلى طاولة، وهو رجل بلغ سناً متقدمة، ظن لورسا بأنه بائع حبوب أو دواجن. على كل، بدا له أنه لمح شاحنة صغير غير منارة أمام الباب...

كانت شابة على طاولته، وعندما فتح الباب توهم المحامي أن الزبون سحب يده فجأة من حضن رفيقته.

الآن، إنهما ينظران إليه كلاهما، وينتظران، بفعل الفضول أو الانزعاج، ولاشك كلاهما. أما هو فقد جلس وحيداً، ونفض مرة أخرى معطفه.

جاءت الشابة إليه وسألته قائلة:

- ماذا تتناول؟

- مشروباً ساخناً.

- لم يعد لدينا نار وليس لدينا غاز. هل تريد كأساً من الروم.

وفتحت باباً ملمعاً ونادت باتجاه أسفل الدرج:

- ماما!... إيفا!...

ثم عادت نحو رفيقها، ووضعت مرفقيها على الطاولة، وابتسمت بأكبر لطف ممكن يقدر عليه شخص يتهاوى من النعاس.

واستعادت المحادثة من حيث قطعها لورسا وتمتمت قائلة:

ـ ما الذي أجبته به؟

ظلّ الباب الداخلي مفتوحاً. وخلفه، في العتمة، رأى امرأة أتت للنظر إليه، تبلغ الأربعين من العمر، وقد وضعت مجعدات شعرها لليل.

تلاقت نظرتاهما وتراجعت المرأة، واختفت، ولعلها صعدت ولابدّ إلى الطابق، حيث سمعت خطوات شخصين. مضت خمس دقائق قبل أن تظهر إيفا، وكانت شبيهة جداً بالفتاة الأخرى بحيث يعرف المرء مباشرة أنها أختها، وشعر لورسا، عندما اقتربت، برائحة امرأة ناعمة باهتة.

ـ هل طلبت شيئاً ما؟

قالت الأخرى: روم!

ـ كأس كبيرة؟

قال نعم. كل شيء كان يثير اهتمامه. ولم يكن يريد ترك شيء يمرّ. حاول تخيّل زمرة الشباب ونيكول...

إميل مانو الذي خرج ذلك المساء للمرة الأولى وكان ثملاً...

كانوا يلاحظونه ويحاولون أن يعرفوا ماذا أتى يعمل. قدمت له إيفا طلبه ولم تتجرأ على الجلوس إلى طاولته. بقيت برهة واقفة قريباً جداً، ثم ذهبت وتمركزت خلف طاولة المشروب بينما أخرج بائع الحبوب محفظته من جيبه.

ـ بكم أنا مدين لك؟

ـ هل أنت ذاهب منذ الآن؟

وأشار إلى لورسا بنظره وكأنه يقول: «إن كنت تعتقدين أن

ذلك يسرّ الخاطر!»

أظهرت الغنج، ورافقته حتى الباب، وخلفه، لعلها قبلته على خده، وسمحت له بمداعبة.

وعندما عادت، فقدت مرحها لكنها حاولت استعادة جزء صغير منه وقالت للورسا:

- ياللجو السيء!

ثم:

- لست من المنطقة، أليس كذلك؟ أنت ممثل تجاري؟

لم تكونا قبيحتين كلتاهما، كانتا بالأحرى جميلتين إنما باهتتين.

- إني عطشى، ياإيفا!... هل تقدم لي شراب الليمون أيها السيد؟

شعر أن الأم تأتي من حين لآخر لتلقي نظرة من شقّ الباب وانزعج لذلك كما لو أنه ضبط في الخطأ.

- بصحتك!... ستدفع أيضاً ثمن قدح لإيفا كذلك؟... تناولي شيئاً ما يا إيفا...

لدرجة أنهما جلستا كلتاهما إلى طاولته، ولم يدر ماذا يقول وأظهر عدم اغتباطه. وتبادلت الامرأتان نظرات شكلت محادثة كاملة. وهو الذي شعر بالأمر نفد صبره أكثر فأكثر.

- بكم أنا مدين لكما؟

- تسعة فرنكات وخمسين... أليست معك نقود صغيرة؟.. هل أتيت بالسيارة؟...

ووجد السائق على كرسيه، وبدأ الرجل مباشرة طريق العودة.

- لم تسر الأمور، اليس كذلك؟... لقد نبهتك تماماً، لكن لايعرف المرء مطلقاً... فيما يتعلق بالشرب والضحك، والملامسة بعض الشيء، لابأس... أما بالنسبة لما تبقى...عندها فقط، وجد أن ضيقه امتزج ببعض الرضا لأنه اعتبر رجلاً يبحث، على بعد كيلومترات من المدينة، عن منزل يجسّ فيه لحم الفتيات.

ولم يستطع القول لماذا اقترنت أخته مارت بشعوره في هذه اللحظة. لقد عادت له رؤيتها واقفة، بثوب أخضر فاتح، تتلقى صفعة. ودّ لو كانت حاضرة...

وسأل وهو ينحني من أجل سماع جواب السائق:

- هل يأتي أناس كثيرون؟

- المعتادون الذين يتصورون أن ذلك قد يحصل يوماً ما... وزمر من الشباب يرغبون بالضجيج ولايجرؤون على فعل ذلك في مقاهي المدينة...

لم يعد أي نور في الحي الجديد، بشوارعه غير المكتملة، الذي يسكنه إميل مانو. وعلى العكس من ذلك، في مشرب الملاكمة، يخمّن المرء خيالين خلف الستارة.

- أين يجب أن أنزلك؟

- في أي مكان... عند تقاطع الشارعين...

ومثل البعض، الذين لايستطيعون أن يستسلموا لرؤية الحفلة تنتهي، مدّ هذه السهرة، متوقفاً أحياناً لسماع صوت الأقدام في البعيد.

وفي الشارع، مرّ أمام جميع المنازل الكبيرة الشبيهة بمنزله وكرهها، هي وسكانها، مثلما كره أخته، ودوسان

وروجيسار وزوجته، ودوكو ووكيل النيابة، أناس كثيرون لم يفعلوا له شيئاً لكنهم كانوا إلى الجانب الآخر من الحاجز، من حاجزه، بوجه الإجمال، من الذي كان سيكون فيه، لو أن زوجته لم تهرب مع المدعو برنار، لو لم يكن قد أمضى ثمانية عشر عاماً محجوزاً في مكتب عمله ولم يكتشف لتوّه عجيج حياة لم يفكّر به مطلقاً، حياة متوضعة تماماً فوق الأخرى، الحياة الرسمية في المدينة، ولكائنات مختلفة، غير مشكوك بوجودها، نيكول التي جابهت دوكو وأرسلت بطاقات في جميع الاتجاهات، وجو الملاكم الذي قدّم له دورة مشروب وإميل مانو المتحفّز أو الذي ينفجر باكياً، حتى إدمون دوسان، هذا الشاحب، الذي كاد يخلق المشاكل لوالده المتجامل أولأمه المتميّزة كثيراً، وحتى موظف المصرف هذا، ابن أمين الصندوق المثالي، الذي لم يكن يعرفه بعد، والذي كان يريد، الأحمق، أن يذهب للاختباء في باريس، ولوسكا الذي كان يبيع الأحذية على رصيف مخزن الأسعار الموحدة...

عندها حصل مايلي، لم يكن يحمل مفتاحه. وقرع الجرس، وهو يعرف تماماً أن القزمة تخاف كثيراً فلن تنزل وأن نيكول قد تكون مستغرقة في نوم عميق.

وبالمصادفة دخل من الزقاق، ودخل إلى منزله من باب الخدم الذي وجده مفتوحاً مثل باقي الأيام. أعطاه ذلك الوهم بأنه ينتسب بعض الشيء للزمرة.

- ٦ -

هكذا كان الأمر: في سريره، مع نجيل وبره الذي كان يرتعش لكل شخرة، لعله يبدو ضخماً وخبيثاً: «الغول الخبيث»...

وهي، القزمة، التي دخلت على رؤوس أصابعها وظلت بلا حراك، تنظر إليه، إنها: «الجنّية السريعة التي تركض في كل مكان من أجل إنقاذ «أميرتها الصغيرة»، وتحمل الرسائل إلى شارع أليه، إلى لوسكا ودستريفو ودوسان، إنها جنّية فظّة تجاه الآخرين وطيبة بما ليس له مثيل تجاه التي كرّست نفسها لها.

لم يستطع لورسا الامتناع عن الابتسام. اخترقت هذه الفكرة ذهنه بينما كردحت فين حتى سريره ونظرت إليه بكثير من الفضول. من يعرف؟ عندما كان متمدداً على هذا النحو، بلا حراك، تحت رحمتها، ألم تشعر مطلقاً بالرغبة في الانتقام بطريقة غير توجيه التكشيرات له مثلما كان يحصل لها.

كان المطر ينهمر، شعر بذلك. وعلاوة على هذا ففي اليوم الفائت مساءً نسي إقفال مغالق نوافذ مكتبه.

ـ ماهذا، يافين؟

ـ رسالة.

ـ وتوقظينني من أجل رسالة؟

ـ جلبها دركي وقال إن الأمر مستعجل.

وانتبه فقط لملل القزمة، ولهيئتها خائرة العزيمة، مثبطة الهمة. لم تفكّر بالحرب الصغيرة التي يجريانها كل صباح وانتظرت بجلاء أن يفضّ غلاف المظروف.

عندها سألته قائلة:

ـ هل هو سيء؟

ـ يطلب مني وكيل النيابة أن أذهب إلى قصر العدل صباح اليوم.

ولعلها استغربت أن تراه، على خلاف العادة، ينهض مباشرة ويرتدي ملابسه ببضع دقائق.

وسأل وهو يزرّر بنطاله قائلاً:

ـ هل نهضت الآنسة؟

ـ خرجت منذ زمن طويل.

ـ كم الساعة الآن؟

ـ حوالي الحادية عشرة. وعندما خرجت الآنسة لم تكن بلغت العاشرة بعد.

ـ ألا تعرفين إلى أين ذهبت؟

كانت بينهما هدنة مضمرة. وكانت فين متردّدة تماماً بعض الشيء، وظلت نظرتها متحرّزة لكنها اعتقدت مع هذا أن

الأفضل البوح بكل شيء.

ـ إن أم إميل مانو هي التي أتت لاستدعائها.

ـ أم إميل مانو؟

وقالت فين، بقسوة، كما لو أنه كان خطأ معلمها:

ـ لقد ألقوا القبض عليه صباحاً.

هكذا، بينما كان في السرير، يتعرّق، وينام مثل دابة ضخمة مكسوة بالوبر... نظر من النافذة إلى السماء الخضراء المزرقّة، وإلى حجارة الطريق المقفرة المبللة، وإلى بائعة حليب، وعلى رأسها كيس، كانت تجتاز الرصيف، وإلى ممطرة دارت منعطف الشارع وإلى حجارة المنازل التي غطتها بقع الرطوبة.

كان طقساً أصم، أكثر حزناً من البرد الممتقع لكن مصحوباً بالريح في عيد جميع القديسين. تخيل الشوارع الجديدة، هناك، في حي المقبرة. ماكان اسم الشارع؟ شارع أرنست ـ فوافنون! حتى ليس اسم شخص شهير محليّ، بل اسم صاحب الأرض!

والناس الذين كانوا، فيما أرهقه النعاس، نهضوا في الصباح الباكر، وخرجوا في الجو المبلل، معظمهم على الدراجات، لكي يذهبوا للعمل في المدينة.

كيف عملت الشرطة؟ بالتأكيد قبل الساعة الثامنة صباحاً، للإمساك بإميل مانو قبل ذهابه إلى المكتبة. لعل رجلاً من الأمن تمركز في زاوية الشارع، وفحصه الجيران من خلف ستائرهم.

في هذه الأثناء. كانت السيدة مانو تهيء الفطور، وإميل يرتدي ملابسه..

وكأنها أرادت أن تكيل له أقصى الملامة، قالت له القزمة وهي تنظر إلى الجهة الثانية:

ـ حاول الانتحار.

ـ إيه!... حاول قتل نفسه؟... بماذا؟

ـ بمسدس.

ـ أهو جريح؟

ـ لم ينطلق العيار الناري... عندما سمع رجال الشرطة يتحدثون إلى أمه في الرواق، ركض إلى مخزن الحبوب وهناك...

إنه رواق من الرخام المقلّد، كان لورسا متأكداً من ذلك مع ممسحة أرجل أمام كل باب ورجال الأمن الأجلاف هؤلاء الذين شغلوا مكاناً كبيراً وجرّوا الماء الوسخ بأحذيتهم.

بدأت فين ترتيب السرير. وأنزل لورسا معطفه المعلّق الذي كان لايزال رطباً من الليل، وقبعته المكوّرة. كان البرد، في الخارج، نفّاذاً مثل برد الكهف، ويتلقى المرء قطرات أكبر وأسوأ من الأخرى التي تساقطت على سطح المنازل.

وهكذا، فأول فكرة خطرت للسيدة مانو أن تأتي لملاقاة نيكول! لتوجه إليها اللوم؟ ومامن شك أن لا! ومع هذا، في أعماق نفسها، باعتبارها أم الفتى، وباعتبارها أيضاً أخفض اجتماعياً، فلعلها اعتبرتها مسؤولة عن الكارثة.

يالخجلها باجتياز شارعها، وحيها! مشت وهي تبكي وتتكلم لوحدها! وتوسّلت إلى نيكول للقيام بمحاولة.

وذهبتا كلتاهما معاً! ذهبتا للدفاع عن إميل، وتركتا الغول بحراسة القزمة.

بدأ لورسا يفهم الرسالة التي تلقاها والتي لم تكن استدعاء.

صديقي العزيز:

قيل لي أن لاسبيل للاتصال بك في نهاية الخط. أتريد أن تمرّ إلى قصر العدل باستعجال؟

انتظرك.

وقّعها روجيسار، ولاحظ لورسا أنه تجنب، في نهايتها، كل عبارة تنم عن الصداقة.

لم يفكّر المحامي بالتفاخر. لم يدرس موقفه. ومع هذا، عندما اجتاز قاعة الانتظار، المزدحمة بالمترافعين وبزملائه اللابسين أثوابهم، بدا عليه، رغماً عنه، شكل الذي ينتظره الناس ووصل لبدء المعركة.

وهجم، بكتفيه المستديرتين، ويديه في جيبيه، وصعد درج النيابة العامة.

وعندما صار رأسه بمستوى العتبة، رأى امرأتين على مقعد خشبي، أسندتا ظهريهما على الجدار المدهون باللون الأخضر؛ في البداية تنّورة سوداء وحذاء ذو أزرار، إنها السيدة مانو، أم إميل؛ كانت تمسك منديلاً بيدها، وجارتها التي لم تكن سوى نيكول، تشدّ على هذه اليد بحركة آلية أكثر منها ودودة.

لم تكن السيدة تبكي لكنها بكت سابقاً، وكان منذ ذلك الحين في عينيها تعبير زائغ. وكان آخرون ينتظرون، شيخ على المقعد الخشبي نفسه، وسوَقيّ بين دركيين على مقعد مجاور.

ارتقى لورسا الدرجات الأخيرة، ومرّ دون أن ينظر للامرأتين، ودفع باب روجيسار دون أن يقرع.

تجنب مشهد الرواق، وكان ذلك منذ الآن! ففي المكتب المعتم بعض الشيء، كانا اثنين قرب النافذة تبدو صورتهما في معاكسة النور، والتفتا في الوقت نفسه.

ولم يتردّد روجيسار وهو يتجه إلى مكتبه ليجلس إليه أن يقول:

- أخيراً!

كان الثاني دوكو، ورأسه يشبه رأس جرذ أكثر من أي وقت مضى؛ وتجب الملاحظة أن كلاً منهما تدبر أمره بحيث لايكون قرب لورسا، مما قد يجبرهما على الشدّ على يده.

- اجلس، ياهكتور... أراهن أنني أيقظتك...

لم يستطع أن يناديه إلاباسمه، بما أنهما ابنا عم أمضيا طفولتهما معاً، ثم تدارك مباشرة بنهاية الجملة الثانية. وكذلك بموقفه، وتظاهره بتعديل مصنفاته، وكأنه أمام مشبوه عادي يريد أن يؤثر عليه.

أما دوكو، فقد ظل واقفاً، كمشاهد يعرف ما الذي سيحصل ويتلذّذ به مسبقاً.

- إني منزعج جداً، أليس كذلك؟ ما الذي يحصل... حتى أكثر من منزعج... ولكي لاأخفي عنك أمراً، وأطلب منك الاحتفاظ به لنفسك، قمت البارحة بأمر لم أجازف به خلال وظيفتي: خابرت الوزارة طلباً للرأي!

كل هذه المدينة، وهذه الأسطحة تحت المطر، وكميات المياه في أروقة القصر، والامرأتان على المقعد الخشبي...

وإميل؟ لاشك أنه في مكان خفي قذر من المبنى، ينتظر برفقة شرطي؟

ـ من المفهوم، أنني استدعيتك بشكل غير رسمي. كنا متفقين، أنا ودوكو على استشارتك، على الأقل لإخبارك بالوضع. والبارحة، استجوب دوكو مطولاً دوسان الابن وحضرت جانباً من الاستجواب. إنك تعرفه بما أنه ابن أختك...

«وأعترف أن هذا الفتى المسكين أشعرني بالشفقة... لقد أتيحت لي مراراً فرصة لقائه، في منزله، أثناء حفلات العشاء... كان يبدو لي شاباً صحته سريعة العطب، لطيف جداً، يداه ونظرته كالفتاة...

«وفي مكتب دوكو، الذي عامله مع هذا بكثير من الرفق، ظهر بحساسية مرضية وعصبية لدرجة أنني تساءلت إن كان لايتطلب الأمر استدعاء طبيب.

«وبعد أن تخبّط طويلاً، تكلم...»

وقام لورسا بردّة فعل غير متوقعة نوعاً ما، على الأقل بالنسبة لرفيقيه، بما أنهما نظرا إليه بتعجب وبقيا لبرهة صامتين: نهض، بالفعل، وخلع معطفه، وذهب لتعليقه في خزانة في الجدار يعرفها وعاد فجلس وأسند دفتراً صغيراً على ركبته بينما لوّح بيده اليمنى بقلم مداد رصاصي.

ـ أتسمحان؟

وتبادلا نظرة قلقة، وتساءلا عما إن كان عليهما أن يريا تهديداً في هذا الموقف الجديد.

ـ أفترض أنك تحزر ماعلي أن أعلمك إياه، سيعرفه الناس جميعاً بعد بضع ساعات، لأن من المستحيل كتم قضية فيها،

رغم كل شيء، قتيل. إن الوزارة هي من رأيي أيضاً: لم يكن إدمون دوسان في هذه الكارثة إلا صاحب دور ثانوي، ولدرجة ما، ضحية.

«إني أفهمه، الآن وقد استطعت تقدير لأي درجة هو سريع التأثر.

«كانوا بضعة أشخاص يترددّون على مشرب في السوق، شباب أولاد عائلات مرموقة وآخرون، ابن بائع لحم الخنزير وابن...

وقاطعه لورسا قائلاً:

ـ أعرف ذلك!

ـ في هذه الحالة، تعرف أيضاً أن ابنتك نوعاً ما مركز الزمرة، وأن منزلك كان مركز القيادة العامة. إني متأسف لذلك، ليس فقط من أجلك، بل من أجلنا جميعاً، لأن الفضيحة ستمتد على المجتمع الراقي في مولان. وسيكون صعباً على المحكمة، أن تجعل محلفين طيبين يصدقون أن زمرة كاملة من الشباب كانوا يستطيعون الاجتماع ليلاً في منزل، ويرقصون فيه على أنغام الحاكي وأن يثملوا دون أن يكون رب هذا المنزل...

ودوكو، الذي كان يقوم بدور الجمهور، يوافق برأسه.

لم تكن الأمور، دون شك، لتتطوّر أكثر من ذلك بكثير، لولا أنه، قبل أقل من ثلاثة أسابيع، انضم شخص جديد للزمرة، شخص يدعى مانو، ومنذ المساء الأول اقترح سرقة سيارة ـ أو استعارتها إن فضلتم ذلك ـ لإكمال الحفلة في نزل بالريف...

«وبهذا الصدد، وألفت نظرك إلى أن إدمون دوسان تصرّف على نحو جيد جداً، بما أنه هو الذي تطوّع للذهاب وقرع

جرس الدكتور ماتري، مطالباً إياه بالكتمان بمقتضى سرّ المهنة...»

والمثير للفضول، كان أن يلتقي مجدداً، تحت هذا السرد، بعض ذكريات الطفولة، وبعض تعابير الوجه، وبعض مواقف أخته مارت. وظن نفسه يسمعها تقول، عندما يكتشف والداه أمراً سيئاً:

ـ إنه هكتور!

وكانت منذ ذلك الحين ممتلة الصحة، شديدة العصبية، هي ايضاً، وأنهم لم يكونوا يتجرؤون على مناوءتها، وهذا كان لايمنعها من أن توجه نظرها لأخيها معلنة:

ـ لقد تغلبت عليهما، أليس كذلك؟ تم الإيقاع بك!...

وروجيسار الخيط، الذي اتخذ هيئة مناسبة، تابع قائلاً:

ـ لقد أجبرت على الاهتمام بأحد أشكال القضية ولن يتأخر الأمر في إثارته علنياً. لقد أردت إذن معرفة ماكانت العلاقات على التمام بين دوسان ونيكول... أنا مقتنع أن إدمون لم يكذب علي وأنه لم يحصل شيء إطلاقاً بينهما... كانا يتسليان أمام أصدقائهما وأمام الأغراب، بتصرفهما وكأنهما عاشقان، لكن لم يكن ذلك سوى تمثيل... وتعذرني إذا تطرقت لهذا الموضوع.. ولاأظن أن الأمر على نفس الشاكلة مع المدعو مانو... فقد كان وجود الجريح في المنزل عذراً ممتازاً لكي يعود كل ليلة هناك...

«ولدي كل الأسباب للاعتقاد أن هذا الجريح لم يكن بدون تأثير على الشاب...

«رأيي واضح... وستوافقني على أن لي بعض الخبرة في

مـادة الإجـرام... إن مـانو هو مـن تلك الفـصـيلة من الشـبـاب المـتـحـمـسـين والذين مـن المـمكن أن تجعل منهم على السـواء قديسين أو صيد سجون، بمعنى أنهم تحت التصرف، جاهزون لمطاوعة نوع النبضة التي توجه إليهم...

«وحيث قام الآخرون بالأدوار ببراءة تقريباً، فهو قد جلب واقعية خطرة...

«لم يستطع دوسان أن يحدثني بهذا الموضوع؛ ومع هذا فهذا مايستنتج من تصريحاته...

«اتخذت الاجتماعات طابعاً جديداً ووصلوا لدرجة التفكير بطلعات لم يكن لها هدف سوى سرقات حقيقية..

«ولنفترض أن الخطأ الرئيسي يتلبس لويس السمين هذا والذي لازالت تصلني عنه أسوأ المعلومات...

«بهذا الصدد سيهمك معرفة أنه خلال الخمسة عشر يوماً التي عـاشـهـا تحت سـقـفك، أرسل لويس السـمـين، في عـدة حـوالات، مبلغ ألفـين وسـتـمـائة فـرنك لفـتـاة في الريف لهـا منه ثلاثة أطفال وتسكن في إحدى قرى نورماندي... ووجد أثر هذه الحـوالات... وقـد أرسلت إنابة قـضـائيـة إلى هونفلور، لكي يتم سماع إفادة هذه المرأة، وعند اللزوم سأرسل لها مذكرة جلب...

«يقودنا هذا، للأسف! حسب ماأعتقده الحقيقة، ودوكو، الذي تابع هذه القضية باستقامة وحصافة أشكره عليهما...

وسعل لورسا. كان ذلك كل شيء منه لكنه سعل»، ثم تابع الرسم الذي بدأه بلا اهتمام على صفحة من دفتره الصغير.

-... مانو هذا، الذي أثر عليه لويس السمين وحركه هو، لعله ارتكب عدداً من الفظاظات، لأنه، نقلاً عن دوسان، فإن

الألفين وستمائة فرنك لم يكن لها أن تأتي إلا منه... هل انتهى به الأمر انه خاف؟... وأيا ماكان الأمر فإنه قرّر قتله...

وكما لو أن لورسا لم يكن على علم بالموضوع، أضاف بشيء من الاحتفال:

ـ لقد اعتقلته صباح اليوم. إنه هنا. وبعد بضعة أسابيع، اعتزم سماعه...

نهض روجيسار وذهب للتطلع من النافذة.

ـ ومايؤسف له كثيراً، هو أن ابنتك وجدت أن عليها المجيء مباشرة برفقة أم هذا الفتى. إنهما كلتاهما في الرواق... لعلك رأيتهما... أراد دوكو التدخل لدى نيكول، سرّاً، وأن يطلب منها أن لاتعرض نفسها على هذا النحو، لكنه لم يحصل على جواب... في هذه الشروط، إذا أدى بي الأمر إلى تجريم مانو، فسيكون من الصعب فهم...

رفع لورسا رأسه

وهجأ بصوت هادئ على نحو مدهش:

ـ أن لاتعتقل ابنتي؟

ـ لم نصل إلى هذا الحد، بالتأكيد. ومع هذا، فقد طلبت منك المجيء، وأردت أن أحدثك، وأن أجعلك على علم بالأمور. إن وضعك في مدينتنا خاص نوعاً ما. الناس يحترمونك، لأن كلاً منهم يعرف كيف أثرت عليك بعض المحن على نحو مؤلم. ويغفرون لك غراباتك و...

جعلته هذه الكلمات فجأة يتذكر أنه لم يشرب بعد صباح هذا اليوم.

ـ ...لست بحاجة لذكر تفاصيل بقصد الدقة... ولايمنع

هذا دون شك أنه كان من الأفضل لو أن نيكول تلقت تربية مغايرة، ولو أن الإشراف عليها جعل منها فتاة مثل الأخريات، وأن...

سعل لورس أيضاً. ونظر الآخران أحدهما إلى الآخر وقد انشغل بالهما تقريباً. لاشك أنهما توقعا أن يريا رجلاً يرثى له متوسلاً، أو سكّيراً ثائراً يكبحانه بسهولة.

- ألديكما أدلة ضد إميل مانو؟

- قرائن قوية، على الأقل.

كان في بيتك ليلة الجريمة. تعترف ابنتك بذلك. وفاخرت بذلك تقريباً، مع تحديد أنه أمضى جزءاً من السهرة في غرفتها...

وبما أنه لم يترك مجالاً للتأثير عليه، سيحدثانه على شكل أكثر فجاجة.

- هل بدأت تدرك؟

- سأكون سعيداً بحضوري عند استجوابكما لإميل مانو.

- هل تفكر بأن تتكفّل بالدفاع عنه؟

- لاأعرف بعد.

- اسمع، ياهكتور...

وأومأ بإشارة إلى دوكو فخرج بهيئة كثيرة الطلاقة، وتحدث النائب بصوت خفيض، وقد اقترب من محدثه.

- نحن أقرباء... وقد تأثرت زوجتي كثيراً من هذه القصة... وخابرتني أختك مارت صباح اليوم... نام إدمون... وهم قلقون جداً عليه، لأنه فريسة انهيار عصبي خطير.. عاد شارل من باريس صباح اليوم وقد خابرني، هو أيضاً... لست بحاجة لأن أضيف أنه حانق عليك... صباح اليوم، كاد كل شيء

يتدبّر أمره... وعندما ذهبوا لاعتقال مانو، اختبأ في مخزن الحبوب وحاول الانتحار... إما أن السلاح تعطل، أو أيضاً في هياجه، نسي أن يسحب الأمان... أو أنه قام بتمثيلية علينا، وهذا ليس غير مستحيل... ولا يمنع من أنه «لو حصل الأمر»، فقد يصبح من الأسهل تصنيف القضية...

«كونه مذنباً، ليس هناك أدنى شك ولاسيما بعد الحركة التي فضحته...

«لكن، افترض، أنه من أجل الانتقام، يجرّ معه ابنتك وإدمون وكل أصدقائهم؟

«إنك موافق على أن المدينة بكاملها، وأقاربك، وأصدقاءك احترموا قدر مارغبت أنت إرادتك في الوحدة وسكتوا عن ميولك المفرطة وعن شططك... «اليوم الوضع خطير، وهو مأساوي تقريباً...»

ـ ماذا لو تركوا مانو يدخل؟

كان متأثراً، مع هذا. لكن ليس بالمعنى الذي يمكن للآخرين أن يفترضوه. لعل المقارنة كانت خنقتهم، ومع هذا! فإن تأثره يشبه تأثر رجل في موعده الغرامي الأول.

انتظر مانو! واستعجل رؤيته! وغبط القزمة، التي في اليوم السابق، ركضت في المدينة لتوزع رسائل نيكول! وغبط الفتاة الجالسة على المقعد الخشبي، قرب رجال الدرك واللصوص، قرب أمه الباكية، وكانت تتحدى بهدوء فضول وشفقة كل الذين كانوا يتعمدون المرور من هناك للتفرس فيها.

لقد حصل له أمر ضخم، غير منتظر، ومقلق! لقد خرج من عرينه! ونزل إلى الشارع، وإلى المدينة!

كان قد نظر إلى نيكول على المائدة، نيكول التي، لعدم وجود الخادمة، وقفت أحياناً وذهبت لاستلام ألوان الطعام من الكوة، ووضعتها على غطاء الطاولة دون أن تقول شيئاً.

وكان قد نظر إلى مانو... واستمع إلى جو الملاكم... ذهب إلى هناك، إلى هذا النزل الغريب ذي الفتاتين، تراقبهما أم بمبذل من شقّ الباب...

كان يشعر برغبة في...

ويصعب على نحو فظيع القول وحتى الايضاح بالفكر، على الأخص أنه لم يكن معتاداً هذه الأمور، وأنه كان خائفاً من أمر ما يثير السخرية.

لم يتجرأ على قول «الرغبة في الحياة». بل الرغبة في الصراع؟ كان تقريباً ذلك. أن يهزّ نفسه، وأن يحرّك قشّ وجاره، والروائح المشكوك بأمرها التي لاتزال عالقة بجلده، ومرارة أناه التي طبخها على مهل بين جدران غطيت بالكتب.

وأن يهجم...

وأن يقول لنيكول، بعد قليل، عندما سيجلس إلى المائدة، مقابلها، بهيئة من لايفكر بشيء، وبصوت طلق:

ـ لاتخافي!

ولتفهم أنه كان مثلهم، معهم وليس مع الآخرين، أنه كان مع ابنته، ومع القزمة، مع إميل ومع الأم التي تعطي دروس البيانو!

لم يشرب! كان ثقيلاً، لكن متيناً، يملك زمام أمره.

نظر إلى الباب، كان على عجلة من أمره. يترصد الأصوات، وسمع وقع أقدام رجال الشرطة في الرواق الطويل، وصرخة السيدة مانو المختنقة، ودموعها، وشيئاً ما يشبه

الشجار بينما حاولت الارتماء بين ذراعي ابنها وتمّ دفعها عنه.

وأخيراً الباب... ورأس شرطي رسم بقسوة، باللباس المدني، يسأل النائب بعينيه وينتظر أمراً، وهو عند إعطاء الإشارة، سيدخل الشاب...

... ...

سمع صوت روجيسار للمناسبات، وكان يقوم كل سنة بالحج إلى مدينة لورد وإلى روما بأمل أن يرزقه الله بولد!

ـ سيطرح السيد قاضي التحقيق عليك الأسئلة، إلا أن أجوبتك لن تسجّل، لأن الأمر لايتعلق باستجواب رسمي. تستطيع التحدث بكل صراحة، وهذا مهما نصحتك به فلن أفي الأمر حقه.

لماذا رأى الفتى لورسا قبل أي من الآخرين؟ فإنه هو الذي اتجه إليه نظره دائم التحرك عندما دخل الغرفة والتي لم يكن بها سوى إنارة رسمية.

تراجع لورسا، متضايقاً، ومتألماً. نعم متألماً، لأنه شعر أن إميل يمقته، وأنه كان يحمّله هو كل المسؤوليات. وحتى أكثر من ذلك! كان وكأنه يقول:

ـ لقد تصرفت بكل صراحة. وبكيت أمامك. وقلت كل ماأثقل قلبي. وأنت أراك هنا! أنت من اعتقلتني، وأنت من...

تركوه واقفاً. لم يكن كثير الطول، والطين على ركبته اليمنى. رجفت يداه رغم جهده لكي يظل هادئاً. غبطه لورسا ليس لأنه يبلغ الثامنة عشرة بل بالأحرى لأنه اصيب بيأس

كامل وظلّ هنا، وكأنه أصابه الدوار، وشعر بالعالم يترنّح من حوله، وأن يعلم أن أمه تبكي بالدموع، وأن نيكول التي تنتظر ولن تتغيب عنه مطلقاً، والقزمة التي تبنته، هو وحده، عدا عن حبها المطلق لنيكول.

إنهن يحببنه! دون قيود! حباً مطلقاً! من الممكن مضايقته، والحكم عليه، وتنفيذ الحكم فيه، هناك على الدوام ثلاث نساء يؤمنّ به.

ماذا كان يمكن أن يشعر به؟ جعل قامته تتصلب كي لايستدير بعد نحو لورسا، ولكي ينظر إلى دوكو الذي جلس إلى المكتب بينما كان النائب يذهب ويجيء في الغرفة.

ـ مثلما تكرم السيد نائب الجمهورية بقوله لك...

ـ لم أقتل لويس السمين.

وانبجس ذلك وكأنه من ثقب محفور، معكراً، لايقاوم.

ـ أرجوك الا تقاطعني...

ـ مثلما تكرم السيد النائب الجمهوري بقوله لك، لايتعلق الأمر باستجواب بل بحديث خاص...

ـ لم أقتل!

أمسك بالمكتب من خشب الاكاجو المزين بالجلد الأخضر.

لعله ترنّح؟ هو وحده رأى هذا المكتب، وهذه النافذة الدكناء بنور لم يعرفه الآخرون، ولن يعرفوه مطلقاً.

ـ لاأريد الذهاب إلى السجن!... أنا...

واستدار بكليّته، ونظر إلى لورسا وبه رغبة جنونية بالانقضاض عليه بكل قواه.

ـ إنه هو، أليس كذلك؟... الذي قال...

ـ اهدأ!... أرجوك!...

ووضع نائب الجمهورية يده على كتفه أما لورسا فقد حنى هو رأسه، صار فريسة غمّ حقيقي، وخجل مبهم ، غير واضح، خجله من كونه هو نفسه، وأنه لم يستطع إشعار هذا الفتى بالثقة به.

ولا لنيكول! ولا لفين! ودون شك لا لهذه الأم التي مرّ أمامها قبل قليل.

كان العدو!

ـ أنا من رجوت السيد لورسا بأن يتكرّم بحضور هذا الحديث اعتباراً للوضع الخاص جداً الذي يوجد به. وأنا مقتنع أنك لاتستطيع أن تدرك ذلك. إنك شاب ومندفع. لقد تصرفت دون وعي، وللأسف...

ـ تعتقد أني قتلت لويس السمين؟.

كان يرتجف أكثر فأكثر، ليس من الخوف، وحزر لورسا ذلك، بل من الكرب المبرّح، من أنه لايستطيع جعل الآخرين يفهمونه، ومن أنه وحيد ضد الجميع، وقد أحاطوا به يرزح الجميع عليه، وهو فريسة للهجوم الماكر لهذين القاضيين، في مواجهة لورسا هذا الذي بدا له كأنه دابة خبيثة متربص في ركنه.

ـ ليس صحيحاً! لقد سرقت، هذا صحيح! لكن الآخرين سرقوا أيضاً.

كان يبكي دون دموع، وليس إلا بتكشيرات، بتشوهات سريعة للملامح وكان ذلك يسيء للنظر إليه.

ـ ليس لكم الحق باعتقالي وحدي... لم أقتل... أتسمعون؟ لم...

ـ اسكت!... أ خفض صوتك...

وخاف نائب الجمهورية، إذا لابد أن صوته يسمع في الرواق، رغم أن الباب مبطن.

ـ من أجل اقتيادي من منزلي، وضعوا لي الأصفاد وكأنني...

والمفاجئ، كان حركة دوكو الذي ضرب المكتب بقطّاعة ورق وقال على نحو آلي:

ـ السكوت!

كان ذلك غير متوقع لدرجة أن مانو، الذي بوغت سكت، ونظر إلى القاضي باندهاش مضحك.

-إنك هنا من أجل الإجابة عن بعض الأسئلة وليس لكي تترك نفسك لمشاهد لاتليق... أرى نفسي مجبراً على تذكيرك بوجوب الاحتشام...

كان إميل يتأرجح، غير مستقر على ساقيه النحيلتين، والعرق على شفتيه وعلى صدغيه. وإذا نظر إلى رقبته من الخلف، لبدت أشبه برقبة فروج.

ـ أنت لاتنكر أنك استعرت ـ ترى أني لطيف ـ سيارة لنقل رفاقك إلى الريف. كانت سيارة معاون العمدة، ونتيجة لقلة خبرتك، أو بسبب حالة السكر التي كنت فيها، فقد تسببت بحادث...

كان إميل لايفهم، وعلى جبينه ثلاث ثنيات، وقد قطب حاجبيه. كانت الكلمات تصل بصعوبة اليه أو بالأحرى أنها كانت

أصواتاً بلا معنى. لم يكن بصدد أية سيارة هو! كانت الجمل طويلة جداً، ودوكو كثير الهدوء، كثير التيبّس، كثير الحذر.

ـ من الملاحظ أنه حتى ذلك اليوم أو بدقة أكبر تلك الليلة، فإن الذين كانوا سيصبحون رفاقك لم يجعلوا الناس يتحدثون عنهم ولم تحصل لهم أية متاعب...

مرة أخرى، التفت إميل. وتعلق نظره بنظر لورسا، الذي كان في شبه الظل، قرب الموقد الذي من الطراز الامبراطوري.

ظل لايفهم. كان يتحرك في الرخاوة. ويبحث عن نقطة استناد. كانت نظرته تسأل:

ـ ماذا اخترعتم أيضاً؟

ـ استدر نحوي وتفضل بالإجابة عن أسئلتي. منذ كم من الزمن وأنت في مكتبة جورج بصفة موظف تجاري؟

ـ عام واحد.

ـ وقبلها؟

ـ كنت في المدرسة.

ـ عفواً ألم تكن اشتغلت بعض الوقت في مكتب عقاري في شارع غامبيتا.

هذه المرة نظر إليهما بنوبة غضب وصرخ فيهما:

ـ نعم.

ـ هل تريد أن تخبرنا في أية ظروف تركت ذلك المكتب؟

عندئذ تحداهما الغلام. تيبس من رأسه لأخمص قدميه.

ـ لقد طردوني. نعم، هكذا. طردني السيد غولد ستاين الذي كان يدفع لي مائتي فرنك في الشهر شريطة أن أقوم

بالمهات في المدينة على دراجتي الشخصية. وقد طردت لأنه ظهر فرق باثني عشر فرنكاً في الصندوق الصغير...

ـ هذا هو الأمر على وجه التقريب. الصندوق الصغير كان المؤونة المالية التي يصرفها السيد غولد ستاين لك مقابل الطوابع والإرساليات المسجلة، وعلى وجه العموم النفقات الصغيرة. ولمدة بعض الوقت، ملك الصبر على أن يراقبك ويسجل أصغر الإرساليات وأضأل المصاريف. وهكذا، ضبطك ويدك في الجراب... كنت تغش في الطوابع وفي أمر وسائل النقل...

واستمر الصمت مدة لابأس بها، ثقيلاً. كان المطر ينهمر. والصمت في الرواق أوقع في النفس أيضاً من ذلك الذي يسود في مكتب النائب العام.

وأشار هذا الأخير لدوكو بألا يبالغ في الإلحاح على التفاصيل عديمة الأهمية.

لكن كان قد فات الأوان. فقد كان القاضي يلحّ بصوته الحاد،

-بماذا تجيب؟

وصمت.

وكأنما كان يمكن للمرء أن يتابع بنظره الزفرة وهي تتصاعد من الصدر، في نفس الوقت الذي شد فيه مانو جذعه وهو ينظر بتمهل لما حوله، ويقول مفصلاً مقاطع كلماته:

ـ لن أنطق بأي شيء بعد.

ولورسا هو الذي توقفت نظرته عليه، وحدث تردد خفيف، لحظة شك، ربما بسبب عينيه الأكثر اعتكار لون من المعتاد.

بعد مضي نصف ساعة، انتشر الخبر في القصر بأن لورسا تكفل بالدفاع عن إميل مانو. كان لايزال في مكتب نائب الجمهورية. وظل باب هذا المكتب مغلقاً، عدا لحظة، لأن روجيسار وعد زوجته بأن يخابرها الساعة الحادية عشرة والنصف، وبما أنه لم يستطع القيام بذلك من مكتبه، فقد انتقل إلى غرفة مجاورة.

قال الخيط، وهو الاسم الذي كانوا يطلقونه على نائب الجمهورية، لزوجته الطويلة التي كانت على الطرف الآخر من الخط:

لولا قليل لتضرّع للفتى لكي يقبله مدافعاً عنه!

كان يبالغ. والواقع أن ذلك جرى بغباوة، بخطأ كل واحد تقريباً. فقد وجد روجيسار ودوكو نفسيهما مرتبكين أمام هذا الشاب الجفول الذي رفض بالتالي الإجابة عن أسئلتهما. وتشاورا بصوت خفيض، قرب النافذة. وعندما عاد دوكو، أعلن وهو يسعل قليلاً:

ـ أصرّ على تذكيرك بأن القانون يسمح لك، منذ الآن باللجوء إلى محام والالحاح على حضوره في الاستجواب...

وعندها وبصورة طبيعية، عندما سمع مانو كلمة محامي، نظر إلى لورسا. مجرد تقارب في الأفكار. ومع ذلك، لولا القليل لاحمرّ وجهه. ولعله كان باستطاعته إخفاء مشاعره عن رجل في عمره؟ وليس على طفل، وعلى وجه الدقة لأن الشعور الذي ضيّق عليه في هذه اللحظة كان ساذجاً وقوياً وكأنه شعور طفلي.

كان يتحرّق على مساعدة إميل! وكان يشعر بهذه الرغبة لدرجة انها بدت في عينيه حتى إنه أدار رأسه.

كان مانو حذراً. وبسبب حذره...

لم يفهم الآخران، روجيسار ودوكو شيئاً، لأنها لم تكن ردّة فعل شخص كبير في السن؛ إلا أن لورسا، هو، ظن أنه فهم، لأنه كان يرغب في أن يفهم.

كان إميل حذراً. وقال في نفسه:

ـ لعلّي هنا بسببه؟... إنه حانق علي لأنني ورّطت عائلته... إنه قريب هؤلاء الناس...

وقال وهو يبحث عن نظر شريكه:

ـ أختار السيد لورسا!

كان ذلك يعني:

«أترون أني لست خائفاً! ليس لدي ما أخفيه! لا أعلم بعد إن كنت عدوي أم لا، لكن، بمجرد أن أسلم نفسي لك، بكل رضاي لن تعود تتجرأ على خيانتي...»

نظر نائب الجمهورية والقاضي أحدهما للآخر وحكّ دوكو أنفه المدبب بطرف مسكة ريشته.

أما لورسا فقد قال ببساطة:

ـ أقبل.. أيها السادة، وأعتقد في هذه الحالة أنه من المناسب بعد استجواب شخصي، أن أحصل على الوقت اللازم من أجل دراسة الإضبارة.. أتريد أن نؤجل الاستجواب حول صلب الموضوع إلى الغد صباحاً؟

وجرى إدخال كاتب المحكمة.

عندما خرج لورسا، كانت نيكول والسيدة مانو قد علمتا بالنبأ. ونهضتا في آن واحد. لاحظت نيكول أباها بفضول، لاغير. لم تكن تفهم بعد. وفضلت الانتظار.

أما بالنسبة للسيدة مانو، فلم يكن بالامكان أن يطلب منها هدوء بنفس القدر.

وتمت رؤية الثلاثة معاً في قاعة الانتظار، كان لورسا في الوسط، يتفحص الناس جميعاً حوله بتعبير غريب في هيئته. وانتظر البعض عمداً ليروهم وهم في طريقهم.

كانت عينا السيدة مانو محمرّتين، وقد أمسكت بمنديل كوّرته في يدها. وعلى شاكلة جميع الذين لايعرفون، كانت لاتنفك عن طرح الأسئلة.

- بما أنه لم يتّهم بعد، لماذا يحتجزونه؟ من غير الممكن سجنه بينما لايوجد أدنى دليل ضده! إنهم الآخرون، ياسيد لورسا. أؤكد لك، وأنا أعرفه، إن الآخرين هم الذين جرّوه...

ابتسم البعض، وبالنسبة للمحامي، فإن مشهد زميل يتخاصم مع زبونه يبقى على الدوام مثار سخرية بعض الشيء. ولذا فإنهم يتجنبون قدر الإمكان هذه المشاهد العامة.

أما لورسا، هو، فقد ظل هناك، وكأنه شاء ذلك، والسيدة مانو، هي أيضاً، كانت مثاراً للسخرية بعض الشيء، مثاراً للسخرية ومحرّكة للشفقة، حقيرة بكل كيانها، وفي فترات كانت مع هذا تلامس المأساة.

- حتى هذه الأوقات الأخيرة، كان فتى لا يخرج من بيته مطلقاً... لدرجة أنني أنا، بالنهاية، مسؤولة عما يحصل..

وكنت أكرّر له قول: «ياإميل، عليك ألا تحصر نفسك في غرفتك بعد العمل... إنك تكثر من القراءة... الأفضل لك أن تستنشق الهواء، وأن ترافق أصدقاء من عمرك...»

«ورغبت، أليس كذلك؟ أن يأتي بضعة أفراد إلى المنزل مساءً، وأن يلعبوا أية لعبة ما...»

ومن حين لآخر، رغم انفعالها، كانت تنظر إلى لورسا بكثير من وضوح الذهن لأنها، وبالرغم من كل شيء، كانت حذرة منه ولعلها كانت حذرة من الناس جميعاً، حتى من ابنها.

ـ بدأ يخرج مع لوسكا، ولم يعجبني ذلك كثيراً... ثم صار يعود للبيت متأخراً أكثر فأكثر وتبدلت أطباعه... لم أعد أعرف أين يذهب... وفي بعض الأحيان كان ينام ثلاث ساعات بالكاد...

هل كان لورسا يستمع؟ كان يرى نيكول تنتظر بشيء من فراغ الصبر. ويرى وجه الأم النحيل.. وكانت تظن نفسها مجبرة أن تنخر من حين لآخر.

ـ لاسيما، إن كان ذلك يسدي خدمة له، لاتنظر إلى النفقات... لسنا أغنياء... عليَّ إعالة أم زوجي.. ولكن، في حالة كهذه، أفضل أكل الخبز الحاف فيما تبقى لي من أيام...

وكان محام متمرن شاب مراسلاً بشكل ما لجريدة في باريس. ودون أن يخلع ثوبه ، ركض إلى مصوِّر يسكن مقابل قصر العدل. وظهر كلاهما مجدداً، ومع المصوِّر الة تصوير ضخمة مثل التي تستعمل في حفلات الزفاف والولائم.

ـ أتسمحون؟

اتخذت السيدة مانو هيئة ملائمة.. ولم يتحرك لورسا. وعندما انتهى الأمر، قال لنيكول:

ـ عليك أن تصحبي السيدة مانو إلى منزلها. إنها تمطر أكثر فأكثر. خذا سيارة أجرة...

❖ ❖ ❖

كان تقريباً مهمها، لكنهما لم تقبلا به مهمها بعد. وظهر ذلك على الغداء عندما صعدت القزمة لتقوم بالخدمة بنفسها. والخادمة الجديدة التي تقدمت في الصباح لم تكن ملائمة، وعلى الأقل هذا ماادعته فين.

كانت فين على عجلة من أجل أن تعرف، وسألت نيكول بينما كانت تؤمن الخدمة. ولم يكن ذلك من باب الحذر تجاه لورسا. لعل الأمر كان أكثر خطورة أيضاً من الحذر. كانت تتجاهله، وتتحدّاه بأن يكون ضارّاً!

- ماذا قال؟

- لم يقل شيئاً يافين. لقد رأيته بالكاد. وقد اختار والدي ليكون محامياً عنه...

وهو، كان يأكل، وزجاجة النبيذ الخاصة به بالقرب منه، كالعادة، لكنه ظل أخرق. وقال مع هذا:

- سأراه بعد ظهر اليوم في السجن... فإن كان لديك ماتقولينه له، يانيكول...

- كلا... أو بالأحرى... قل له إن رجال الشرطة فتشوا منزله، لكنهم لم يجدوا شيئاً...

والأكثر اندهاشاً، كانت القزمة التي كانت تحوم حول لورسا كالكلب حول سيده الجديد.

وسألت نيكول قائلة:

- في أية ساعة ستقابله؟

- في الساعة الثالثة.

- الا أستطيع مقابلته أنا أيضاً؟

-ليس اليوم. غداً سأوجه طلباً للقاضي.

كل هذا كان لايزال محيّراً، أخرق.

وأكثر من الكلام نفسه، فإن حادثاً صغيراً للغاية، لدرجة أنه أفلت من انتباه فين نفسها، هو الذي كشف عن أن شيئاً جديداً قد ظهر في البيت.

شرب لورسا قرابة نصف زجاجته. عادة، في مثل هذه الساعة يشرب زجاجة كاملة وينهي التي وضعوها له على المائدة. وبما أنه كان على وشك أن يصب لكي يشرب، نظرت إليه نيكول. وخلال برهة، ظلت يده التي تحمل الزجاجة معلّقة. ومع هذا صبَّ، لكن بالكاد نصف إصبع صغير من الخمرة، وكأنه محتشم.

وبعد ذلك بقليل، ذهب إلى مكتبه، حيث، في هذا الصباح، لم يكن لديه وقت لترك خمر بورغونيا يدفأ.



كان هناك على الدوام بلل بارد، في باحة السجن، وفي الممرات، وكان الحارس يدخن غليوناً طويلاً رائحته كريهة.

ـ صباح الخير، ياتوماس.

ـ صباح الخير،ياسيد لورسا. مضى زمن طويل دون أن تسعدنا رؤياك. من أجل الفتى الشاب، أليس كذلك؟ تريد أن تجتمع به في قاعة الحديث أم في زنزانته؟ لم يتكلم منذ أن أتى هنا ولم يرد أكل شيء...

وفي المدينة، بسبب رداءة الجو، بدؤوا بأشعال مصابيح الطرق ومصابيح الواجهات، تبع لورسا توماس وقد أمسك بيده محفظته الجلدية ففتح له باباً، رقم ١٧، وقال:

انتظر! سأخرج هذا...

لأن إميل لم يكن وحيداً في زنزانته. وبمجرد أن رأى الرفيق الذي وضعوه معه، قطب المحامي حاجبيه. كان دون شك أحد مرتادي السجون، رجل سوء مخلّع لعلهم كلفوه باستنطاق النزيل الجديد.

كان مانو جالساً في ركنه. وعندما صار وحيداً مع لورسا، اكتفى برفع رأسه قليلاً جداً والنظر إليه. دام صمت، وكان تأثيره أكبر لأنهم كانوا في مركز المدينة ولا يشعرون بوجيبها؛ والذي قطعه كانت فرقعة عود الثقاب الذي أشعل المحامي به لفافة تبغه.

- أتريد واحدة؟

إشارة نفي. ثم في اللحظة التي بعدها، مدّ إميل يده، وقال بصوت غير متمكن:

- شكراً!

كانت وحدتهما تزعجهما، والأكثر خرقاً من الاثنين كان لورسا، الذي انتهى به الأمر للسؤال، كي يزيل السحر:

- لماذا حاولت الانتحار؟

- لأنني لم أرد الذهاب إلى السجن!

- الآن وأنت فيه، تشاهد أنه ليس أمراً رهيباً جداً كما يتصورونه. على كل، لن تمكث فيه كثيراً. من الذي قتل لويس السمين؟

استعجل الأمر. ونصب الآخر رأسه بحركة سريعة لدرجة أنه ظن أنه سيقفز.

- لماذا تطلب مني ذلك؟ تظن أنني أعرفه، لعلك تعتقد، أنت أيضاً، أنني أنا؟

- إني مقتنع بأنه لست أنت. وأتأمل إثبات ذلك. للأسف لاأستطيع فعل شيء إن لم تساعدني...

وماكان يؤثر عليه، لم يكن وضعهما هما الاثنين في هذه الزنزانة سيئة الإنارة، بل كان وعيه أن طرحه للأسئلة لم يكن بوازع مهني قدر ماكان بالفضول.

وعلاوة على ذلك لم يتعلق الأمر بفضول عادي، لاشخصي. كان يريد أن يعرف لكي يتقرب من الزمرة على نحو افضل، ولكي يندمج فيها.

ولاتعني الزمرة شيئاً! لم تكن سوى تحصيل حاصل ومن طبيعة الأشياء، حياة في الحياة ومدينة تقريباً في مدينة، طريقة ما في التفكير والشعور، قبضة صغيرة جداً من البشر كانوا يتبعون مدارهم الشخصي والخفي دون اهتمام بنظام العالم الأكبر، مثلما تفعل ذلك في السماء بعض الكواكب.

وبالضبط لأن مانو، ولأن نيكول كانا خارج القواعد، كان من الصعب تدجينهما. وكان عبثاً يدير عينيه الواسعتين الخضراوين المزرقّتين، وأن يدور في دائرة مثل الدبّ، أو بالأحرى مثل الفقمة ذات الشاربين...

- أتستطيع أن تدلّني كيف تعرّفت على الزمرة؟

- عن طريق لوسكا، مثلما قلت لك سابقاً!

وهكذا ظهر أكثر موضوعية مما يبدو عليه، لأنه لم ينس البوح الذي قام به في فترات كان من الممكن أن يفقد رباطة جأشه فيها.

- هل قالوا لك الأنظمة وكلمات السرّ، ماذا أعرف؟

حاول أن يتذكّر طفولته، وكان مجبراً على أن يرجع لما

قبل عمر إميل، لأنه عندما كان في الثامنة عشرة كان متوحداً منذ ذلك الحين.

ـ كان هناك نظام داخلي...

ـ مكتوب؟

ـ نعم... إدمون دوسان هو الذي يحتفظ به في محفظته.. لعله أحرقه..

ـ لماذا؟

وجد الشاب السؤال سخيفاً، دون شك، لأنه هزّ كتفيه. أما لورسا، فلم تفتر همته، وقدّر أن هناك تحسناً، ومدّ مجدّداً علبة لفائف تبغه.

ـ أفترض أن دوسان هوالذي حرّر هذا النظام الداخلي.

ـ لم يقولوا ذلك لي. لكن هذا من طبعه.

ـ ما الذي في طبعه؟ تأسيس الجمعيات؟

ـ أن يعقد الحياة! وكتابة الأوراق؟ لقد أجبرني على توقيع ورقة عن نيكول.

أصبح الأمر في صعوبة لامتناهية. كلمة خرقاء وينغلق مانو. لم يتجرأ لورسا على دفعه. وحاول المزاح:

ـ عقد؟

قال الفتى، الذي ثبت نظره على الأرض الاسمنتية:

ـ باعني إياها... لاتستطيع أن تفهم... كان الأمر جزءاً من القواعد... نص النظام الداخلي أن مامن عضو يستطيع أخذ امرأة عضو آخر دون موافقته ودون تعويض.

احمر. وأدرك فجأة أن الأمر سيبدو هائلاً. ومع هذا كانت الحقيقة بدقتها!

ـ وكم دفعت ثمنها؟

ـ كان علي دفع خمسين فرنكاً شهرياً لمدة عام...

ـ لإدمون؟ كان هو المالك السابق؟

ـ كان يجعل الآخرين يصدّقون ذلك، لكني رأيت بوضوح أنه لم يحصل مطلقاً شيء بينهما...

ـ أفترض أن ابن أختي دوسان أحرق هذه الورقة أيضاً؟... حتى هنا، يظهر بما يكفي على أنه الرئيس...

ـ كان الرئيس!

ـ لم يكن المقصود إذن اجتماع أصدقاء بسيط، بل عصبة. أكان لها اسم؟

ـ عصبة الملاكمة!

ـ ألم يكن من أعضائها جو الملاكم؟

ـ كلا... كان يعرف النظام الداخلي، لكنه لم يرد الاختلاط بنا ، بسبب رخصته...

ـ لم أفهم.

ـ لو أمسكوا به، لسحبوا رخصته... بما أنه مجرم محترف...

لم يضحك لورسا من هذه الكلمة غير المنتظرة. وفي الخارج، كان الليل قد أسدل ستاره تماماً. وأحياناً، في الممر، كانت تسمع خطوات الحارس المنتظمة.

ـ كان هناك أيام للاجتماع؟

ـ مبدئياً، كنا نتلاقى كل مساء في مشرب الملاكمة، لكن لم يكن ذلك إجبارياً. فقط يوم السبت كان على الجميع أن يتواجدوا ويجلب...

وسكت.

- ... أن يأتي بـ...

- إذا قلت لك كل شيء، فهل أنت تحفظ السر المهني؟

- لايحق لي أن أبوح بشيء دون موافقتك.

- إذن أعطني أيضاً لفافة تبغ... أخذوها مني في قلم التسجيل. مع كل مافي جيوبي... مع رباط حذائي و...

كان على وشك البكاء. في اللحظة التي سبقت، طرح سؤالاً دقيقاً، وعندما رأى حذاءه بلا رباط، ومرّر يده على قبة قميصه المفتوحة ، ولّد ذلك لديه نحيباً في حنجرته.

قال لورسا دون تهكم تقريباً:

- كن رجلاً، يامانو! كنت تقول إنه في كل أسبوع كان على الأعضاء أن يأتوا...

- بشيء مسروق! هذا هو الأمر! لاأريد أن أكذب. كنت أعلم، عندما قدمني لوسكا، أن هناك التزاماً من هذا القبيل...

- كيف عرفت ذلك؟

- قالوه لي.

- من؟

- كل شباب المدينة تقريباً كانوا على علم بذلك... ليست التفاصيل... لكنهم كانوا يتكلمون عن الزمرة...

- هل جعلوك تقسم يميناً؟

- كتابة.

- أفترض أنه كان عليك أن تمرّ بنوع من التجربة؟

- كانت السيارة... لو أني لم أعرف كيف أسوق، لتوجّب

علي دخول منزل خاو، وأن أظل فيه ساعة من الزمان وأن أعود بشيء ما...

- أي شيء كان؟

- كان الأفضل أن يكون ذا حجم كبير وصعب الحمل...

كانت نوعاً من المسابقة... وأكثرها تفاهة، السرقة من البضائع المعروضة... واستطاع لوسكا في إحدى المرات سرقة يقطينة تزن حوالي عشر كيلوغرامات...

- وماذا كانوا يفعلون بهذه الغنيمة؟

سكوت من جانب أميل الذي اكفهرّ وجهه.

- أفترض أن كل ذلك موجود في بيتي؟

- نعم، في مخزن الحبوب!

- قبل أن تنتسب إلى الزمرة، هل دام ذلك طويلاً؟

- ربما شهرين... ليس تماماً... أعتقد أن إدمون تعلّم اللعبة في العطلة الصيفية، في إيكس لي بن، حيث كانوا بضعة أفراد يعملون الشيء ذاته...

تساءل لورسا كيف نشأت مودة كهذه بين نيكول وابن خالتها دوسان. كان الأمر سهلاً جداً! من الصحيح أن هذا الاستغراب كان بتاريخ صار بعيداً - ومضى على ذلك ثلاثة أيام مليئة؟ - في الحين الذي كان فيه لورسا يعيش في عرينه؟

كانت أخته مارت كتبت له لتخبره أنها استأجرت دارة في ايكس لي بن وسألته فيما إن كان لايريد إرسال نيكول لعندها.

وذهبت نيكول إلى هناك حيث قضت شهراً، وهو لم يشغل باله بأمرها وهي غائبة بأكثر مما كان يشغله وهي موجودة.

هكذا كان هؤلاء الشباب والشابات أولاد العائلات الكريمة قد انصرفوا لهذه اللعبة، فيما كان أهلهم يترددّون على منشأة المياه المعدنية والمقصف!

ـ هل كان إدمون يأتي بأشياء كثيرة؟

ـ جاء ، مرة، بجهاز لتصفية القهوة من الفضة من مشرب جمة غامبيتا. وفي مرة أخرى، حصلت مناقشة، لأن دستريفو زعم انه كان يأخذ الأشياء من بيته خوفاً من ارتكاب أعمال سرقة حقيقية... ولم يمنع ذلك أن تحدث لويس السمين عن الشرطة واعترف أنه بوضع دقيق مع العدالة وأنه لايريد أن يقبض عليه من جديد، وإدمون هو الذي فاخر بكل ماكنا نعمله...

ـ هل كان هذا يجري في الغرفة الصغيرة من الطابق الثاني؟

ـ نعم... أراد أن يكون حاذقاً... إنه من هذا النوع... وأنا متأكد أنه بسببه طالب لويس السمين بالمال... وزعم أنه بسبب الحادث، إذن بسببنا نحن، لم يعد قادراً على العمل وأن زوجته كانت تنتظر حوالاته... طالب في البداية بألف فرنك لليوم التالي...

ـ وتشاركتم؟

ـ كلاّ تخلّى عني الآخرون...

ـ من الذي وجد الألف فرنك؟

ـ أنا...

لم يبك، بل استدار نحو الجدار، ثم شعر بحاجة لأن ينظر إلى المحامي مواجهة متحدياً إياه.

- ماذا كان بإمكاني فعله غير ذلك؟ الجميع كانوا يقولون إن الأمر كان بسبب خطئي، وإني أخطأت بالتفاخر بأنني أعرف السياقة... وبفضل لويس السمين، كنت أستطيع الذهاب للاجتماع بنيكول كل مساء... علي أن أقول لك كل شيء، أليس كذلك؟ فأنت محاميّ... وأنت الذي أردت الأمر!... شعرت بذلك تماماً... ولاأعرف بعد لماذا تصرفت على هذا النحو، لكنك أردت ذلك!... بئس الأمر لك!... لو استطعت الهرب مع نيكول، إلى أي مكان كان...

- وهي، ماذا قالت؟

- لم تقل شيئاً.

- وأين وجدت الألف فرنك؟

- في بيتي... لم تعرف أمي الأمر بعد... ونويت إعادتها يوماً ما... أعرف المكان الذي يوضع فيه هذا المال، تحت البياض في خزانة البياض، في محفظة قديمة لوالدي...

- وباقي المبلغ؟

- أي مبلغ؟

- مبلغ الألفين وستمائة فرنك؟

- من الذي قال لك؟

- إنه للأسف في الإضبارة، وجدت الشرطة الحوالات التي أرسلها لويس السمين لصديقته...

- ماالذي يثبت أنني أنا؟

- لايقومون إلا بافتراض ذلك.

- أقرضني لوسكا أربعمائة فرنك... وبالنسبة لما تبقى... ستعرف ذلك من لحظة لأخرى، لأنه سيجري حساباته... لم

أعـد أعـرف كـيف أتصـرف... كـان لويس السـمـين يهـدّدني، ويدّعـي أنه يفـضّل الاعـتـراف بكل شيء للشـرطـة وإدخـالنا السجن... هل تعرف السيد تستو؟

-صاحب الدخل في ساحة السلاح؟

ـ نعم... إنه زبون... ويشتـري كثـيراً من الكتب، ولاسيـما الكتب الغالية التي نوصي عليها خصيصاً من باريس لأجله... جاء مرة إلى المخزن بينما صعد السيد جورج لحظة لتناول الشـاي، لأنه يتناول الشـاي دومـاً في السـاعـة الرابعـة... دفع فـاتورتـه... ألف وثلاثمـائة واثنان وثلاثون فـرنكاً... احـتـفظت بها... وكنت أنوي إعادتها قبل نهاية الشهر...

ـ كيف؟

ـ لاأدري. لعلني كنت سأجد وسيلة ما... لايمكن للأمر أن يدوم على هـذا النحـو... أقسم لك أنني لست لصـاً... على كل، كنت أخبرت إدمون بالأمر...

ـ بأمر ماذا؟

ـ أعلنت له أنني لاأريد أن أكـون على الدوام كـبش الفـداء... وأن على الآخـرين أن يسـاعـدوني... وانه، وإن كـانوا جعلوني أشرب، يوم الحادث...

وثقب طبقة السكون، منبه سيارة عن بعد، مذكراً أن حولهم توجد مدينة صغيرة كل ساكن فيها يعتقد معرفة الحياة كلها.

لمـاذا في هذه اللحظة بالذات، فكّر لورسـا بنادي قـصـر العدل؟ لم تكن هناك أية عـلاقة! قبل بضع سنوات، قرّر قضاة ومحامون ـ وكان الزمن الذي بدأت فيه لعبة البريدج المعقد تنتشر في المقاطعات ـ إنشاء ناد ، كانت المدينة بحاجة له

وخلال أسابيع أرسلت لجميع الشخصيات في مولان بلاغات واستدعاءات. وتشكلت لجنة مؤقتة، كان دوكو أمينها العام.

ثم انتخبت لجنة دائمة، برئاسة روجيسار وأحد الجنرالات. لماذا الجنرال؟ واشترى النادي بناء في الزاوية، في شارع فكتور هوغو.

اكتشف لورسا اسمه على قائمة الأعضاء، ليس لأنه قبل أن يكون ذلك، بل لأنهم من تلقاء أنفسهم سجلوا أسماء جميع الشخصيات، وتلقى بيانات نشرت على نحو فاخر.

رغم عزلته، سمع صدى المناقشات التي نشبت منذ فتح موضوع قبول أعضاء جدد. كان البعض يريدون مجموعة محكمة الإغلاق، لاتحتوي إلا عليّة مدينة مولان. والآخرون، من أجل أن يزيدوا الميزانية، اقترحوا نظاماً داخلياً أكثر ديمقراطية. وتنافس القضاة ونقابة المحامين على أماكن الشرف، وكرّست ثلاث جلسات من أجل طبيب يجري الجراحة التجميلية وكان بعضهم يريده والبعض الآخر يرفضه.

كان دوكو الأمين العام على الدوام، وتبع نائب الجمهورية عندما قام هذا ومعه أكثر من نصف أعضاء النادي بتقديم استقالته أثناء سهرة حامية الوطيس.

ولم يعد الناس يتحدثون عن الموضوع خلال أسابيع، إلى أن جاء اليوم الذي طالب فيه المورّدون وتنبّه الأعضاء إلى أن المدير وقّع طلبات بضاعة غريبة...

وبالكاد تم تجنب عرض القضية على القضاء. واحتاج الأمر الطلب من كل واحد تضحية مالية لم يقبلوا بها جميعهم.

ـ قل لي، يامانو...

وكان على وشك أن يقول: إميل.

ـ من الضروري أن أعرف جميع أعضاء عصبتكم، كما تقول... ألم يحدثك لويس السمين مطلقاً عن صديق أو شريك كان ينوي المجيء لملاقاته؟

ـ كلا.

ـ عن رحلة ستقوم بها عشيقته إلى مولان؟

ـ لا!...

ـ وفيما بينكم، ألم تفكّروا مطلقاً بمحاولة التخلص منه؟

ـ نعم.

قرع الحارس على الباب، وفتحه قليلاً:

ـ رسالة لك سيدي المحامي... إنها من النيابة العامة حملها شخص...

مزق لورسا المغلّف، وقرأ هذه الملاحظة التي كتبت على الآلة الكاتبة:

ـ يتشرف النائب العام بإعلام الأستاذ لورسا أن المدعو جان دستريفو اختفى من منزل ذويه منذ البارحة مساءً.

كل ذلك لايزال مشتتاً تماماً!

علاوة على هذا، نسي لورسا حياة الرجال، خلال ثماني عشرة سنة!

كان يشعر مع ذلك. وبدا له إنه إذا بذل جهداً إضافياً

سيركّز كل هذه... كل هذه...

كرّر بصوت مرتفع قائلاً:

ـ دستريفو...

ـ ماذا؟

ـ مارأيك بدستريفو؟

ـ إنه جار لنا.. بنى أهله منزلاً في شارعنا.

ـ كيف كان مع العصبة؟

ـ لااستطيع أن أشرح لك... كان يضع نظارات... ويريد دوماً أن يكون أكثر مكراً من الآخرين، وأكثر موضوعية، كما كان يقول... كان شاحباً، سكوتاً...

ـ أعلمتني النيابة العامة أنه اختفى.

فكر مانو وكان مثيراً للفضول رؤية هذا الفتى الكبير يفكر، بهيئة مبسوطة لرجل.

وقال أخيراً:

ـ كلا!

ـ ماذا، كلا؟

ـ لاأعتقد أنه هو... كان يسرق القداحات.

تعب لورسا من الجهد المتواصل الذي توجب عليه بذله. لأنه كان من الضروري ترجمة كل جملة بوضوح، كالاختزال أو رسالة بالرموز.

واعترف قائلاً:

ـ إني لاأفهم.

ـ كان الأكثر يسراً... ويشتري لفافات تبغه من دكان لبيع التبغ كان فيه قداحات على طاولة التاجر... ويتدبّر أمره من

أجل إسقاط عدد كبير منها... ويلمّها وهو يعتذر ويضع إحداها في جيبه...

ـ قل لي، يامانو... مرة أخرى، كاد أن يقول «إميل» وطرح سؤالاً كان من الأفضل السكوت عنه. أراد أن يقول:

ـ ما هو الدافع الذي كنتم تخضعون له عندما تقومون بالسرقة على هذا النحو؟

لكن كلا! كان الأمر غباء! فهم دون أن يفهم، وتخبط بين حدسه وتناقضاته.

ـ إن بينكم مع ذلك واحداً...

ـ نعم.

ـ من؟

ـ حصل صمت. ومانو ينظر على الدوام إلى الأرض.

ـ لاأعرف.

ـ دوسان؟

ـ لاأعتقد... أو عندها...

ـ عندها ماذا؟

ـ عندها ، يكون قد خاف...

للمرة الأولى في النهار ، شعر لورسا بحرمانه من النبيذ. كان تعباً، كان رخواً.

ـ من المحتمل أن يقودوك غداً إلى القصر العدلي منذ الساعة التاسعة صباحاً. سأحاول رؤيتك قبل الاستنطاق. وإلا، سأكون حاضراً على كل حال. لاتتسرع كثيراً في الإجابة. وحين اللزوم، اسألني صراحة المشورة. أعتقد أن من الضروري قول الحقيقة فيما يتعلق بالسرقات...

شعر أن مانو خاب أمله، وكذلك هو، دون أن يعرف بالضبط لماذا. مامن شك في أنه تسرّع بعض الشيء، هل ظن أنه سيدخل دفعة واحدة هذا العالم الذي كان يستشعره.

أما إميل، فلم يقولوا له شيئاً دقيقاً: ووجد نفسه مرة ثانية، وقد أغلق الباب عليه، وكان طافياً مثلما كان سابقاً.

الصحيح أن الباب فتح مباشرة. كان المحامي.

ـ نسيت! سأبذل جهداً مباشرة من أجل تبديل رفيقك في الزنزانة. إنه «إنسان وديع» واحذر أيضاً الذي سيضعونه مكانه...

هل لأن فارق السن بينهما يزيد على ثلاثين عاماً؟ لم تحصل الصدمة. اجتاز لورسا الباب الكبير، تحت المطر، وقد وضع محفظته على وركه الأيسر، ونظر إلى مصابيح الغاز، والانعكاسات والشارع الأكثر ازدحاماً بعد المفترق المقبل.

يميناً، كانت هناك حانة صغيرة يجلب بعض المسجونين وجباتهم منها. دخل فيها.

ـ نبيذ أحمر...

حان الوقت. خانته قدمه، تحسّر على مكتبه ووحدته السميكة.

ونظر إليه بائع الخمر المرتدي صدريته الصوفية وهو يشرب الخمر ثم سأله أخيراً:

ـ هل تعتقد أنه سيكون عدد كبير من المتورطين، أنت؟ هل صحيح أن أكثر شباب العائلات الكريمة منهم؟

هكذا، كل المدينة كانت على علم!

ـ أعد لي هذا...

كان النبيذ خثراً، خشناً، ومائلاً للون البنفسجي. دفع لورسا. ظل فترة طويلة خارجاً، بتماس مع الرجال، وبما أنها المرة الأولى. هل يسير الناقهون، في اليوم الأول، من الصباح إلى المساء؟

ومع هذا، عندما صار خارجاً؛ تردَّد في الذهاب أيضاً إلى القصر، دون سبب واضح، من أجل أن يتنفس هواء المعسكر الثاني.

القسم الثاني

ـ ١ ـ

رفع لورسا رأسه، ووجه لابنته نظرة خاطفة، وغادر كرسيه المريح وذهب لتحريك الجمر في المدفأة التي جعلتها هبات الريح تخــرخــر. شــعــر أن نيكول، التي انحنت بهــدوء على مصنفات كانت تراقبه دون حاجة لتحريك حدقتيها، وأنها تمسك به بطرف خيط، لكنه توجـه مع هذا نحوَ خـزانة في الجدار وفتحها، وأخذ زجاجة من الروم.

وسألها بخرق قائلاً:

ـ ألا تشعرين بالبرد؟

أجابت بلا، مع ملامة وتساهل في آن معاً. حصل ذلك على عدة دفعات بحيث أعاد الزجاجة إلى مكانها دون أن يشرب منها. وهذه المرة اكتفى بالتنهد بحركة تدلّ على الإعياء الحقيقي:

ـ إنها الليلة الأخيرة!... غداً...

كان الوقت بعد منتصف الليل، وكانت المدينة مقفرة، والسماء صافية، كان صفاءً فظاً، والشوارع كنستها ريح رفعت عن حجارة رصف الشوارع غباراً ناعماً من الجليد.

لم تكن مغالق نوافذ مكتب العمل مغلقة؛ ومن الشارع بكامله، وفي الحي بأكمله، كانت نافذة عائلة لورسا البقعة الصغيرة الوحيدة الحية.

وصلوا إلى نهاية النفق، نفق ثلاثة أشهر. والآن، ومنذ صباح الأول من كانون الثاني زالت القلنسوة الثقيلة من الرطوبة التي كانت تثقل على المدينة، ولم يعد الناس يعيشون في الدبق، خلسة، ويلامسون المنازل التي يسيل منها الماء، في عالم أسود على أبيض مبلل وكأنه رسم مطبوع.

كانت الليالي طويلة جداً بحيث لايتذكر المرء النهار، ولايرى سوى الدكاكين سيئة الإنارة، وألواح الزجاج يغشّيها البخار، والشوارع الملبّدة بالظل حيث كل مارّ يصبح سراً.

سأل لورسا وهو يجلس ويبحث عن لفافة تبغ قائلاً:

ـ إلى أي رقم وصلت؟

فقالت:

ـ ثلاث وستون.

ـ ألا تشعرين كثيراً بالنعاس؟

أشارت برأسها أن كلا. ثلاثة وستون مصنفاً من سبعة وتسعين! سبعة وتسعون ملفاً من الورق الأصفر كانت هنا، على المكتب، رزماً، بعضها محشو، والأخرى مسطحة، لاتحتوي في بعض الأحيان سوى قطعة ورق. وفي وسط الموقد، رقم كبير أسود على ورقة التقويم الدكناء: يوم الأحد ١٢ كانون الثاني.

وبما أن منتصف الليل قد انقضى، فقد صرنا في يوم الاثنين ١٢، أي اليوم الموعود.

لعله، بالنسبة، للآخرين، لايعني ذلك شيئاً. أما بالنسبة للورسا ونيكول، وللقزمة، وللخادمة، ولبعض الناس في المدينة وخارجها، كان يوم الاثنين ١٢، نهاية النفق. في الصباح، عند الساعة الثامنة، اتخذ رجال لحفظ النظام غير اعتياديين أماكنهم على درجات قصر العدل، وفرضوا إبراز البطاقات التي لم توزع إلا بشيء من التقتير. وستجلب السيارة الزنزانية إميل مانو الذي زاد نحوله، وطوله، وقد صنعت له أمه في الأسبوع الماضي بزّة جديدة؛ وسيرتدي لورسا، في حجرة الثياب ثوبه، الذي حصلت نيكول على أن ترسله لإزالة الدهن عنهّ.

واستغربت، وتغضّن جبينها إذ قالت:

ـ لم يحصل استجوابان لبيجوله؟

من يعرف إذن من هو بيجوله؟ هم! هم وبعض الأفراد الذين استطاعوا، لكثرة مادرسوا القضية، أن يستعملوا فيما بينهم لغة مبهمة.

وأوضح لورسا دون تردّد قائلاً:

ـ لقد حصل استجواب في ١٢ كانون الأول.

ـ كنت أفكر أنه حصل استجواب ثان...

بيجوله، كان جاراً لعائلة دستريفو، وهو صاحب دخل.

كان ثاني أو ثالث عازف كمان في أوبرا باريس ثم عاد إلى مسقط رأسه. كان جاراً لعائلة دستريفو، وبالتالي سكن الشارع الذي تسكنه عائلة مانو ذاته.

« ـ كنت لااعرفهم... اعرف فقط ان هناك عدة منازل أبعد من منزلي، وشخصاً يعطي دروساً في البيانو...» أما بالنسبة لعائلة دستريفو، كنت أراهم من نافذتي في حديقتهم، وفي الصيف، كما هو مفهوم!... أيضاً عندما يكونون في غرفة طعامهم، كنت أسمع من غرفة طعامي، همس أصوات... ليس واضحاً فيستطيع المرء أن يفهم... كلمة من هنا أو هناك... وماكنت أسمعه، إنما كان عندما يفتحون أو يغلقون الباب.. ولاأنام مطلقاً قبل الساعة الثانية صباحاً... إنها عادة المسرح... واقرأ في سريري... لاحظت أن أحدهم، في عائلة دستريفو، كان يعود متأخراً للبيت كثيراً، لدرجة أنه كان يحصل لي أن أستيقظ مذعوراً...»

كل ذلك للتوصل لهذا السؤال الذي طرحه القاضي دوكو:

« ـ أتتذكر ليلة السابع للثامن من تشرين الأول؟

« ـ تماما.

« ـ ما الذي يسمح لك أن تكون جازماً لهذه الدرجة؟

«ـ أمر: بعد الظهر، صادفت صديقاً كنت أظنه لايزال في مدغشقر...

«ـ ولماذا كان يوم السابع؟

« ـ ذهبنا معاً إلى المقهى، وهذا مايحصل نادراً. وكان أمامي مباشرة، تقويم ولاأزال أرى حتى الآن رقم ٧... وأنا متأكد، من جهة ثانية، أنه في ذلك المساء، عاد أحدهم في عائلة دستريفو، الساعة الثانية صباحاً، تماماً في اللحظة نفسها لأني كنت سأطفئ فيها المصباح...»

سبعة وتسعون إضبارة! أي سبعة وتسعون شخصاً، وأحياناً

غير المتوقعين أكثر من غيرهم، الذين كفوا عن كونهم شخصيات أياً كانت، رجل شرطة، وفتاة صالة، وبائع في مخزن السمر الموحد، وزبون في مكتبة جورج، لكي يصبح جزءاً من المصنف الهائل الذي قابلت نيكول نصوصه للمرة الأخيرة.

في الساعةالثامنة، كان إميل مانو، متهماً بقتل لويس كاغالان، الملقب بلويس السمين، وقد حصلت الجريمة في ٧ تشرين الثاني بعد منتصف الليل بقليل في المبنى الذي يخص هكتور لورسا دوسان مارك، محام في المحكمة سيدشن، في قفص المتهمين، دورة محكمة الجنايات.

خلال الشهور الثلاثة التي تم التحقيق خلالها، لم تنقطع السماء عن البكاء، والمدينة عن أن تكون رمادية ووسخة، حيث الناس يذهبون ويجيئون كالنمل إلى أهداف مجهولة.

والآن، لم يبق سوى سبعة وتسعين ملفاًمن الورق الثخين الأصفر، وعليها أسماء كتبت بالحبر البنفسجي.

لكن، يوماً بعد يوم، وليلة بعد ليلة، وساعة بعد ساعة، وكل ورقة عاشت، وصارت رجلاً وامرأة، لها مهنتها، ومنزلها، وأخطاء أو رذائل، وهوس، وطريقة في التكلم أو الجلوس.

في البداية لم يكونوا سوى قبضة رجال: إدمون دوسان، الذي أرسله أهله إلى مصحّ في سويسرا، ودايا بائع لحم الخنزير الشاب، ودستريفو، الذي وجدوه في سوق الهال، في باريس، وليس في جيبه فلس، يحوم حول عربات الخضار التي ستفرّغ... ثم لوسكا، الذي رأوه جميع الأيام على رصيف الأسمار الموحدة يبيع بالتصفية أحذية الصيد...

وخلال ثلاثة شهور ـ عدا الأسابيع الأخيرة ـ ترك إميل مانو، كل صباح، السجن برفقة دركيين، وكانت الأيام تمرّ على الوتيرة ذاتها، وقد نظِّمت بدقة مثلما يحصل في مكتبة جورج.

ودوكو، الذي كان يعرف أنه لن يحتاجه قبل الساعة العاشرة أو الحادية عشرة، كان يفرض أن يكون السجين تحت تصرفه منذ الساعة الثامنة. وفي هذه الساعة، كانت ممرات قصر العدل لاتزال منارة والنسوة يغسلن بلاطاتها.

يدخل مانو إلى غرفة صغيرة وجدوها له: جدرانها متسخة، وفيها مقعد خشبي، وفي ركن سطول مكلفنة ومكانس. ويذهب أحد الدركيين لشرب القهوة ويعود ومعه صحيفة وتفوح من شاربيه رائحة الروم. عندها يأتي دور زميله. ويشحب المصباح. ويسمعون وقع أقدام فوق رؤوسهم: يصل دوكو، ويجلس من أجل النهار، ويرتِّب أوراقه، ويطلب إدخال الشاهد الأول...

لعل أناساً، في المدينة، كانوا يعيشون بأفكار أخرى، ولهم اهتمامات ثانية، ومشاريع ثانية: بالنسبة للبعض كان العالم مسمَّراً نوعاً ما في ٨ تشرين الثاني لبضع دقائق بعد منتصف الليل.

«ـ أنت المدعوة صوفي ستوف، صاحبة حانة في المكان المسمّى ليه كلوكتو؟

« ـ نعم، ياسيادة القاضي.

« ـ ولدت في ستراسبورغ وتزوجت من السيد ستوف، مأمور التنظيف في مصلحة الطرق... أرملة ولك ابنتان: إيفا وكلارا، عشت أولاً في بيتيني، حيث كنت تقومين بتنظيف

المنازل... وكنت خليلة لرجل يدعى تروله، كـان يضـربك، واضطرك للشكوى عليه...»

كان الأمر يتعلق بمديرة نزل الغرفي. خمس صفحات بالكامل، بما فيه استجواب الفتاتين. أما لورسا، هو، فقد عاد إلى هناك، ثلاث مرات، أربع مرات، ورأى صورة شخصية لستوف بهيئته المنذهلة، وصور أخرى، صورالبنتين عندما كانتا صغيرتين، وصورة تروليه الذي كان دركياً وكان يضرب خليلته.

«ـ من الذي كان أكثر جرأة من العصبة؟بالإجمال، كان دوماً الشخص نفسه الذي يدفع؟

« السيد إدمون، نعم!»

إلا أن لورسا كان يعلم بطريق نيكول، أن كل واحد، قبل أن يذهب كالقنبلة، كان يسلم ماله لدوسان!

«وعندما يرقص، كان يضع قبعته ذات الواقية منحرفة ويترك لفافة التبغ مدلاة من شفتيه، جلب اسطوانات جاويّة (شعبية)، لأنه لم يكن لدينا منها. ويقف متيبساً كثيراً ويزعم أن على هذا المنوال يرقصون في حفلات الرقص الريفية...

«ـ ألم يكن يغازلك؟

«ـ كان يتظاهر بازدرائنا.. (كانت إيفا، الأصغر سناً، التي تحدثت). ويسمينا «الشخاختين»... ويتظاهر أنه يظن أننا... في المنزل...

«ـ قوليه!

« ـ إنك لاتفهم؟ كان يظن أن هناك غرفاً في الأعلى، وأننا كنا نصعد مع أي كان... ولم يرغب أبداً أن يغيّر رأيه...

« ـ ولم يعد يطلب أن يصعد؟

« ... كلا ... ولكن بائع لحم الخنزير؟

ـ «ماالذي كان يفعله بائع لحم الخنزير؟

«ـ كانت على الدوام يداه هنا أو هناك... وكنا عبثاً ندفعه. كان يعاود مباشرة... عندما لايكون الأمر معي، يكون مع أختي، وعمل بقدر ذلك مع أمي... بمجرد أنها امرأة... وكان يضحك... ويقص حكايا مقرفة...»

لم يعد دوكو ولورسا يتصافحان. وعندما يدخل لورسا إلى مكتب القاضي، من أجل استجواب لمانو أو من أجل مجابهة. كانا يقولان أحدهما للآخر ببرودة:

-... أرجوك... بعدك... لو كان المدافع الكريم...

وبدا على لورسا أنه جلب لقصر العدل، في لحيته، وفي ثنيات ثيابه، وفي برطماته وبتهديده بصمت، روائح عفنة لعالم غريب كان ينغمس فيه، وحده، طيلة ساعات، لكي يعود منه بفريسة جديدة، اسم غيرمعروف في اليوم السابق، وملف أصفر جديد ينبغي فتحه.

هو الذي اكتشف السيد بيجوله! وهو الذي جلب بالقوة تقريباً السيد لوسكا السمين، إفرام لوسكا، بفخذيه السمينين لدرجة أنهما يجبرانه على السير وقد باعد بين ساقيه.

وتمتم بائع الألعاب الذي أخافته العدالة كثيراً قائلاً:

« ... ظننت أن ابني عاشق. وقلت ذلك لأمه. كنا قلقين جداً كلانا...»

والمفوض بينيه هو أيضاً كان يغوص في أطراف المدينة ويعود أحياناً بشاهد جديد.

والآن كانت كدسة المصنفات هناك، على المكتب، وكانت المدفأة تخرخر على دفعات، ونيكول تتصلب كي لايظهر عليها أنها على وشك السقوط من النعاس.

كانت هي التي تقوم بدور السكرتيرة، وتطّلع على الملاحظات، والنسخ الأصلية، وترتب، وتصنّف، وتضعها في مكان ظاهر، في ركن من المكتب، وعلى الدوام في المكان نفسه. ذات يوم أخطأ أبوها وخاطبها بصيغة المفرد.

استمر، ولاسيما ليلاً، عندما لايكون سواهما مستيقظاً في المنزل، في الشارع ، ومن الممكن في المدينة، كان لورسا يحرف بصره باتجاه خزانة الحائط للكحول وهو يتنهد.

لأنه كان لايحمل إلى الأعلى سوى زجاجة نبيذ أحمر واحدة، ويداريها! أحياناً كان يحصل أن يغشّ، وأن يخرج من باب صغير في القصر، ومن ثم يدخل إلى حانة يُقدّم فيها نبيذ بورغوني جيد تقريباً.

في البداية، فرض على نفسه الا يشرب سوى كأس واحدة. ثم وبدون انتباه قام بإشارة تدلّ على السكب مجدّداً فسكب له رب العمل كأساً ثانياً دون انتظار.

بالمقابل لم يعد ثملاً! مطلقاً! وعلى العكس! في المساء، مثل الآن، لعله كان يحتاج كحولاً رديئاً إضافياً لكي يستعيد كامل حيويته.

قالت نيكول بعد أن خطّت سطراً واحداً بالأحمر:

ـ ألاحظ تناقضاً في استجواب برغو... يدعي أن إميل أتى في ٢١ تشرين الأول ليقدم له الساعة المعروضة للبيع...

ووفقاً للمصنف، ليس بالامكان أن يكون ذلك إلا في ١٤ أو ١٥... أخطأ برغو بأسبوع...

برغو! وهوشخص أيضاً، في السابق، لم يكن يشتبه بوجوده! ولم يدخل مطلقاً دكانة لبيع الساعات، وكانت ضيّقة حتى أن من يمرّ لايراها وهي في مكان غير ملائم بين جزّار وبقالية، خلف السوق.

هذا هو برغو... طويل ودبق، بطنه متدلّ... برغو الذي كانت تفوح منه رائحة العفن وكأنه خرج للمرة الأولى من كهفه المليء بالجواهر المعلقة بالسلاسل، والساعات المعطلة والحلي غير المعقولة...

مع هذا كان يعيش! وآخرون أيضاً! وأسماؤهم عندما نلفظها، لم تعد لها جهورية الأسماء العادية.

وبالضبط عندما حدثته ابنته عن برغو وجد لورسا تعريفاً لحالته بالذات: كان في هذه اللحظة، مثل عالم كرّس سنين لعمل هائل، وعلى سبيل المثال لمؤلف من عشرة أجزاء عن مغمدات الأجنحة، أو عن الأسرة الرابعة.

كل شيء هنا، على الطاولة! وبكلمات هي، بالنسبة لمعظم الناس، جوفاء، أو أيا كانت.

برغو... بيجوليه... ستوف...

بالنسبة له كانت منتفخة بالمعنى، والحياة؛ والمأساة! وانبنت الكدسة كالعمود و...

نهض مجدداً، ورغم نظر ابنته، فتح خزانة الجدار، وتناول نقطة صغيرة من الروم.

لأنه، الآن قد انتهى الأمر، كان عليه الاحتفاظ بالإيمان. لم

يكن يتوجب، عند الخروج من النفق، أن يترك نفسه تستعيده حياة كل يوم.

ماكان موجوداً، كان لويس السمين، لويس السمين الميت، كما يفهم، لأنه لو كان حيّاً لما شكّل أي اهتمام.

وقد قتله أحدهم...

لم يقتله شخص آخر: إميل، حيناً متشنج وحيناً آخر خائر العزم، يصاب أحياناً بالغضب، بأزمات عصبية حقيقية، في مكتب دوكو ويصيح قائلاً:

ـ لكن بما أنني أقول لك إني بريء!... ليس لك الحق!... إنك شخص قذر!...

قال «شخص قذر» لدوكو المدهون الشعر! وفي مرّات أخرى، كان يتكلم مثل بقية الناس، ويقلق من أجل تفاصيل دقيقة.

ـ هل سيكون هناك ناس كثر؟ أصحيح أن صحافيين سيأتون من باريس؟

استفاد دوكو، المتعب، من عطلة عيد الميلاد ليتنشّط في الجبل.

صار الأمر خانقاً. وأحياناً، كان المرء يشعر أنه يعيش، ليس بين الرجال لكن بين أخيلة الرجال.

تعارك بائع لحم الخنزير دايا وابنه ثلاث مرات منذ بدء الحوادث، باللكمات والركلات.

وصاح الشاب قائلاً:

ـ إنك لاتخيفني!

ـ عندما أفكر أنك لص قذر...

ـ لعلك، لم تتعلم كيف تسرق؟

وتدخل الناس. وفي إحدى المرات، تطلب الأمر استدعاء رجال الشرطة ، لأن دايا الشاب كانت شفته دامية!

أما دستريفو، الذي وجد في باريس والذي كان يرفض بأي ثمن العودة إلى مولان، مدّعياً أنه يخجل وذهب أبوه، أمين الصندوق، والتحق به.

وبالاتفاق فيما بينهما قررا أن يسبق الشاب استدعاءه ويدخل مباشرة في الجيش.

كان في المعتمدية العسكرية، في أورليان ويرتدي قميصاً عريضاً جداً. ويضع نظارته بالطبع، وله حبوب بوجهه.

أربعة استجوابات ومجابهة مع مانو

«ـ لاأفهم كيف استطعت فعل هذا!... تركت الآخرين يسيّرونني... رفضت على الدوام سرقة المال، حتى ولو كان من والديّ...»

أخمدت قصة السرقات. ودفع دوسان الأب للناس جميعاً. تمّ التعويض على التجار، ولم يتقدم أحد بشكوى. وسكتت الصحيفة المحلية.

ولم يمنع ذلك أنهم كانوا بضعة أشخاص، في المدينة، يلتفت الناس لرؤيتهم. ومن الممكن القول إنه كانت هناك مدينتان: تلك التي وجدت ولايعرف المرء كثيراً لماذا وجدت، والثانية، التي كانت تحوم حول قضية مانو، المليئة بزوايا الظلال وبأشخاص غير متوقعين يخرجهم لورسا فجأة بانتظار تحويلهم إلى اسم في المصنف.

ـ ألن تكوني متعبة كثيراً غداً؟

ابتسمت باستهزاء. هل أظهرت إطلاقاً أقل تعب؟ أو أقل فتور همة؟ كانت محيِّرة لأنها كانت هي نفسها، مشرقة، ومثابرة ولم يبق حتى استدارة وجهها وجسمها إلا وأصبحت مزعجة.

لم ينحل جسمها. لم تأخذ عطلة. وكل مساء كان أبوها يجدها في مكتبه، دائماً نفسها، لاتتغيّر.

وامسكت مصنفاً بعيداً عن الآخرين ولم يكن يحتوي سوى ورقة من ورق الرسائل رديء الصنع مثل الذي يباع في البقاليات. كانت الكتابة لامرأة بلا تعليم، والحبر، كان حبراً ذهب لونه في مكتب البريد أوالحانة والريشة نثرت قليلاً من الحبر.

سيدي

كنت محقاً بالتأكيد أن مانو بريء. لاتزعج نفسك من اجله. أعرف من الذي قتل لويس السمين، إذا حكم على مانو، سأقول ذلك.

وصل ذلك بالبريد صبيحة عيد الميلاد، وجميع التحقيقات أخفقت، بما فيها التحقيق الذي فرضه لورسا من قبل الشرطة.

فكّر بأنجيل الخادمة السابقة، تلك التي أتت لتبتزه والتي اشتبه فيها للحظة أنها قتلت لويس السمين.

عملت أنجيل في مقهى في نفير. ذهب لمقابلتها، وحصل على عينة من كتابتها.

لم تكن هي.

فكّر أيضاً بصديقة لويس السمين، تلك المرأة من ضواحي هونفلور والتي بعثت الضحية إليها بالمال. كانت النتيجة سلبيّة.

فتشوا أيضاً في ماخوري المدينة، بما أنه هناك على

الأغلب، يذهب القتلة المحتاجون للبوح من أجل إراحة أنفسهم.

زعم دوكو أنها هرج، إن لم تكن مناورة مشكوك بأمرها من قبل الدفاع.

وانتظروا رسالة ثانية لأن الذين يرسلون رسائل من هذا النوع نادراً مايكتفون بتظاهرة معزولة.

وها إنه في هذه الليلة ـ نيكول ولورسا ارتجفا، ونظرا أحدهما إلى الآخر، لأن الجرس قرع بكل قواه في البهو...

وتمّ سماع القزمة تتحرك في سريرها؛ لكنها كانت هلعة، ولم يكن هناك خطر في أن تنزل لتفتح.

كان لورسا على الباب. نزل الدرج، واجتاز البهو، وفتش عن المزاليج.

وقال صوت عرفه:

ـ رأيت نوراً...

ودخل جو الملاكم وهو يهمهم:

ـ هل بالإمكان محادثتكم للحظة؟

وإن كان لورسا قد أمضى سهرات عديدة في مشرب الملاكمة، فإن جو لم يسبق أن وطئت قدماه هذا البيت ولم يستطع الامتناع عن النظر حوله بفضول. وفي المكتب، حيا نيكول، وتحيّر بين أن يجلس أو أن يبقى واقفاً.

ـ أعتقد أنني ارتكبت حماقة!

قال ذلك أخيراً وقد جلس بفخذ واحد على زاوية المكتب. سوف تعنفني وأنت محق...

وأخذ لفافة تبغ من العلبة التي مدّت له، وقاس بنظرة كدسة المصنفات.

ـ تعرف كيف تجري الأمور مساء في الحانة.. هناك أيام فارغة.. واليوم، كنا أربعة. تعرف أديل، واسمها الحقيقي أديل بيفاس، تلك التي في عينها شيء من الحول وتمارس البغاء في زاوية الشارع..

إنها مع مصارع جوّال، جين ده بوردو، وكان هناك أيضاً... كنا نقوم بلعبة البيلوت، بكل لطف، بانتظار ساعة الذهاب للنوم... ولاأعرف لماذا قلت فجأة:

« ـ كان المحامي لطيفاً. وأعطاني بطاقة...

«لأننا نحن، ندعوك دوماً المحامي... وعندها، استعلمت عما إن كانت بطاقة من أجل الدعوى.. وسألتني إن كان باستطاعتي أن أحصل لها على واحدة... وأجبتها أن ذلك صعب جداً، وأن الناس جميعاً يطلبونها...

« وبعدها بدأنا نتخاصم.

وقالت لي:

«ـ كان بإمكانك أن تفكر بالصديقات!

«ـ ماكان عليك إلا أن تطلبيها منه بالذات...

« ـ إنه مكاني أكثر منه مكانك...

«ـ سأكون فضولياً لمعرفة لماذا...

«ـ لأن!

« ترى هذا من هنا! بينما كنا نتابع اللعب! واستغربت فجأة وقلت:

« ـ هل ستفيقين الساعة الثامنة من أجل الذهاب لحضور الدعوى؟

«ـ بالطبع!!!

وهمهم جين قائلاً:

«ـ إنها تقول هذا. هلاّ لعبنا بجدّية؟

«ـ أقـول ذلك وسـأفـعله... لو رغـبت بطاقـة، مع هذا، لحصلت على واحدة بأسرع من أي كان!...

«ـ سأكون فضولياً لمعرفة كيف سيحصل ذلك؟

«ـ وفي الصف الأول، أيضاً!

«ـ لعل ذلك سيكون مع القضاة؟

«ـ مع الشهود!

«ـ أولاً، لايجلس الشـهـود فـي الصف الأول، بل فـي غـرفـة جانبية، وبعدها لست من الشهود...

«ـ لأنني لاأريد.

« لأن ليس لديك ماتقولينه!

—«ـ لابأس، لنلعب...

« ـ لماذا تبدين بهذا الرأس؟

«ـ أنا؟ أبدي رأساً.

«ودام ذلك. نظر جين إليها على نحو مضحك. أديل، في العادة، ليست فتاة تقوم بالحركات. وأنهينا اللعبة ودفعت ثمن الكأس الأخير.. وعندها أعلنت أديل قائلة:

«ـ بصحة القاتل!

«ـ هل تعرفينه، أحياناً؟

«ـ إن كنت أعرفه!

«ـ إيه؟

« تنهدت المغفلة.

«ـ الاترى أنها تحاول جعل نفسها مثيرة للاهتمام؟...

«أما أنا، كما تفهم، أشعر أن أديل فيها شيء غير طبيعي. أدفعها. وأعرف كيف أعاملها. وأتظاهر بأني لاأصدقها.

« ـ بالطبع أني أعـــرفـــه لحـــتى إني أعـــرف أين رمى مسدسه...

«ـ أين؟

«ـ لن أقول... ذات مساء لم يعد يستطيع...

«ـ هل ضاجعته؟

«ـ ثلاث مرات...

«ـ من هو؟

« لن أقول...

وأعلن جين قائلاً:

«ـ لكنك ستقولينه لي!

«ـ ليس لك بأكثر مما لغيرك!

« وهنا، أظهرت بلاهتي واحتدمت وذكّرت أديل أن عليها حساباً جدّياً، وأنها أيضاً إلى محلّي كانت تأتي ضيفاً عندما لم يكن لديها ماتأكله، وتأكل الشطائر مجاناً...

«ـ إن لم تقولي لي ذلك...

«ـ كلا لن أقوله...

«فلان! أرسلت لها صفعة ملء وجهها! وصرخت في وجهها أنها تقرفني، وأنها كشاطة، ناكرة للجميل، و...

« كنت أشعر برغبة شديدة في المعرفة حتى إني لاأعرف ما الذي قلته لها... وفي النهاية طردتها، وجين معها، لأنه بدأ يدافع عنها... أخيراً! إنها قصة ثانية والذي فعله لايتعلق بنا...

« وهذا هو الأمر!... وبعدها مع الغبية، نظرنا أحدنا إلى الآخر وتساءلنا إن كنّا أحسنّا صنعاً.. وفكرت أنه غداً سيبدأ الأمر، وأنك لن تكون قد نمت...

سأله لورسا وفتح المصنف المسطّح أكثر منه غيره قائلاً:

ـ أتعرف كتابتها؟

ـ حتى إني أجهل إن كانت تعلمت الكتابة... انتظر!... نعم، كتبت مرتين، في بيتي، إلى المصح حيث لها ابن... لأن لها ابناً يبلغ الخامسة من عمره في المصح.. لكنني لم أر الكتابة...

ـ أين تسكن؟

ـ قرب بيتي... في منزل الغادس، وهي عجوز لديها أربع غرف في نهاية فسحة وتؤجرها بالأسبوع.

التفت لورسا إلى خزانة الحائط، وبسرعة تقريباً رغماً عنه، شرب جرعة من الروم.

وبعد مضي ربع ساعة، دخل خلف جو، في ممر مظلم لمنزل منهار. وتشكل ميزاب ماء وسط الممر بسبب فارق الارتفاع. وفي النهاية، كانت فسحة مبلطة، مع سطول، وعلب قمامة وبياض على الأسلاك.

قرع جو باباً. وسمعت حركة، في الداخل. وسأل صوت دبق قائلاً:

ـ ما الأمر؟

ـ هذا، أنا، جو... إني بحاجة للتحدث حالاً مع أديل...

ولعل الصوت خرج من عمق السرير.

ـ ليست هنا.

ـ ألم تعد؟

ـ عادت ثم ذهبت.

ـ مع جين؟

ـ لاأعرف مع من.

فتحت النافذة فوقهما. وظهر رأس غريب الشكل، أضاءه القمر جزئياً، وكان ذلك رأس البلهاء.

ـ أعتقد أن جين كان ينتظرها في الممر... لقد أخفتهما ياجو!... قال لورسا بصوت خفيض:

ـ وددت التحدث إليها.

ـ هيا، أبإمكاننا الصعود للحظة؟

ـ ذلك أن الغرفة غير مرتبة...

وصعدا درجاً مدوراً، دون إضاءة. وظهرت البلهاء بمبذل عليه صور أغصان وزهور، وبيدها مصباح كاز.

ـ أعتذر منك لاستقبالك على هذا النحو، ياسيد لورسا... جاءني الضيوف مرتين و...

ودفعت حوض الاستبراد الخزفي خلف السرير.

ـ أتسمحان أن أعود إلى الفراش فالبرد شديد، هنا!

أود طرح سؤال عليك... إنك تعملين في قطاع أديل نفسه... لعلك تعرفين أي الشباب كانت له صلات بها؟..

ـ قبل أم بعد؟

ـ بعد أي شيء؟

وعلى نحو لاإرادي سأل قائلاً:

ـ بعد أي شيء؟

ـ بعد لويس السمين!... بعد القصة، أخيراً! وقبلها، أعرف أنه كان هناك السيد إدمون... حتى... إليك!... أستطيع قوله

لك... كانت المرة الأولى.... يبدو... أخيراً، يبدو أن الأمر كان صعباً... إنك متفهم؟

- وبعدها؟

- لم أعد أعرف... حكت لي هذا لأنه بكى من الحنق وأعطاها مئة فرنك شرط أن لاتحدث أحداً بالأمر...

- ألم تريها مطلقاً مع أحد الآخرين؟

-انتظر... إني أفكر... كلا!.. نتدبر أمرنا بالأحرى بحيث لاننزعج... والرجال، في أغلب الأحيان، يحاولون الاختباء...

- ألا تعرفين إلى أين ذهبت؟

- لم تقل شيئاً... أعرف فقط أن لها أختاً متزوجة في باريس.. قرب المرصد... إنها بوابة... ولها أخ أيضاً في الحرس السيّار، لكني أجهل أين...

استفاق دوكو مرتمداً على رنين الهاتف. ثم مفوض الشرطة. وترك رجال المركز: رجال شرطة على الدرّاجات، وآخرون مشاة، وفي الساعة الثالثة صباحاً، خرج المفوض بينه بدوره من منزله.

وكان، في تلك الليلة، خفراء حول المحطة، وفي مراكز انطلاق الحافلات، عندما تحصل الانطلاقات الأولى الصباحية بينما في جميع الفنادق طولب المسافرون بإبراز أوراقهم.

في الساعة الثامنة صباحاً، فتح قصر العدل أبوابه، وخلف الحواجز، كان مائتا شخص يتدافعون، تحت سماء متجمدة.

- ٢ -

كان أمراً محتوماً، ومع هذا لم يستطع الامتناع عن تقطيب حاجبيه الكثيفين: كانت السيدة مانو هناك، في الغرفة الضيقة حيث انتظرها ابنها بين دركيين. والأكثر سخفاً أن لورسا شعر بنفحة مناولة أولى أو زواج. هؤلاء الناس في الشوارع المتجمدة، وبعضهم وضعوا أيديهم في جيوبهم والبعض الآخر احمرت أنوفهم، يسيرون باتجاه نقطة واحدة في الوقت الذي كانت فيه أجراس الكنائس الرعوية تقرع معلنة القداس... وهذه البطاقات التي عليهم إبرازها لكي يدخلوا، وهؤلاء المحامون بأثوابهم يسرعون دون سبب بكثير من الأهمية... وأخيراً مانو، وقد ارتدى الملابس الجديدة من قدميه وحتى رأسه، ارتدى بزة لونها أزرق بحري قدرت أمه أنها أكثر أناقة، وانتعل حذاءً ملمعاً تفوح منه رائحة الجدة ويقرقع... ألم ترتب له فراشة ربطة عنقه المنقطة؟

كانت ترتدي ملابس الحفلات، مع نكهة عطر خفيفة. تبكي دون أن تبكي. إنها عادة لديها. واندفعت نحو المحامي وظن، للحظة، أنها ستطمر رأسها في صدره.

ـ أأتمنك عليه، ياسيد لورسا!... أأتمنك على كل ماتبقى لي في هذا العالم...

لكن نعم!لكن نعم! لو أن القضية طالت بعض الشيء، وإذا مثلاً، ذهبنا إلى محكمة الاستئناف، سيتوصل حتماً إلى كرهها بكل قواه! كانت جيدة أكثر من اللزوم! كان « ذلك» تواضعاً زائداً، وعزة نفس، وحسن تربية، وعاطفة!

هل بالإمكان أن لايأسى لها الناس؟ كانت أرملة. وكانت فقيرة. وعملت في سبيل تربية ابنها. ولم تعطه إلا الأمثلة الحسنة، ومع هذا انتقل إلى محكمة الجنايات.

كان من الأفضل لها أن تكون شخصية مأساة، والواقع أنها، في لحظات كانت تبدو مؤثرة، لاسيما عندما تفقد رباطة جأشها، دون سبب وتنسى مركزها، وتنظر حولها بانقباض طفل أضاعوه في الطريق.

لم يحبها لورسا. بئس الأمر. إنه متأكد أن إميل ضرب الأرض برجليه لنفاد صبره في منزلهما الصغير النظيف أكثر من اللازم في شارع إرنست ـ فوافنون.

ـ ألا يزال لديك الأمل، ياسيد لورسا؟

ـ بالتأكيد، أيتها السيدة! بالتأكيد!

كان التدافع. وخاف كل واحد أن ينسى شيئاً ما. وكان الرئيس، وقد ارتدى الثوب الأحمر في الخلف، يشق أحياناً باب المحكمة، وينشغل باله في معرفة إن سيكون الجو دافئاً بعض

الشيء، لأن الصقيع أزال لمعان ألواح النوافذ وكان للنور لمعان الفولاذ.

ألقى لورسا نظرة على قاعة الشهود ورأى نيكول، هادئة تماماً على طرف مقعد خشبي.

لم تعثر الشرطة بعد على أديل بيغاس، ولا جين ده بوردو. كان منظر رأس دوكو غير مستحب، عيناه كعيني الأرنب الروسي، لأن صحته لم تكن بديعة، وبعد مخابرة لورسا، لم يستطع أن يعاود النوم.

ـ أيها السادة، محكمة!

وهجم لورسا، بكميه الفضفاضين نحو مقعده ببرطمة شديدة لدرجة أن الناس توقعوا صوت دمدمة. وضع كدسة المصنفات أمامه السبعة وتسعين ملفاً الصفراء، برضا مهدّد ونظر في القاعة، إلى جهة القضاة، وإلى جهة الحضور، وارتعش بكل أوباره.

واستخاروا القضاة.

ـ لااعتراض من جهة الدفاع؟

ـ لااعتراض...

كان جو الملاكم حاضراً، في الصف، وبدا عليه وكأنه من أفراد العائلة. ثم تمت المناداة على الشهود، بينما كانت القاعة لاتزال مليئة بالضجة.

وقال الرئيس بحزن:

ـ باعتبار هذه القضية شديدة الحساسية، أنبه الحضور أنني لن أقبل أية تظاهرة وبأول حادث سأخلي القاعة...

السيد نيكه. ذلك كان اسمه. وكان يزور عائلة لورسا أيام

أبيه. ولم يكن لأحد إرادة طيبة مثله. كان لديه الكثير منها، وعيناه الفاتحتان، الزرقاوان مثل عيون الملائكة، كانت تُشهد كل واحد على جهوده.

للأسف، كانت هناك ذقنه، ذقنه وفمه. كانت ذقنه عريضة تماماً بمقدار باقي الوجه، مسطحة علاوة على ذلك، وفمه يمتد من أذنه حتى الأذن الثانية. وكان على الدوام منشقاً. كان إعاقة حقيقية ، لأنه فيما كان السيد نيكه جاداً أو حزيناً، فالذين كانوا لايعرفونه كانوا يفكرون أنه يضحك ضحكة استهزائية أو بلهاء.

- أنبه مباشرة السادة المحلفين أن السيد المدعي العام تخلى عن أحد أهم شهود الادعاء، السيد هكتور لورسا سان مارك، لكي يستطيع هذا الاضطلاع بالدفاع عن المتهم. وعلى كل، فإن هذه الشهادة أصبحت بلا فائدة بفعل أن المتهم لاينفي أياً من النقاط المثبتة في بداية التحقيق من قبل السيد لورسا ده سان مارك...

نظر الناس إلى المحامي، وهو وكأنه حيوان متوحش في معرض وحوش، كان يدير رأسه ببطء نحو النظارة، الذين كان فضولهم ظاهراً.

أما إميل، على مقعده الخشبي، بين الدركيين، وكانت هيئته بالفعل، بلباسه الأزرق وربطة عنقه المنقطة بالأبيض، وكأنه يقوم بالمناولة الأولى، وعلى كل حال هيئة شاب صغير السن؛ وأحياناً، عندما يجد مؤونة من الشجاعة بتطلعه إلى الأرض، كان يلقي نظرة قلقة على الحشد ويكتشف وجوهاً يعرفها.

كان الجو بارداً، رغم كل هؤلاء الناس. وبما أن المناقشات ستدوم ثلاثة أيام في أدنى حدّ، قام الرئيس بمعترضة ووعد المحلفين أنه سيهتم، عند تعليق المحاكمة، بتركيب مدفأة مرتجلة.

قراءة قرار الاتهام. استجواب إميل، الذي أجاب ببساطة، وقد تعلقت عينه بمحاميه.

ثم قال لورسا، بكل جوارحه:

ـ سيدي الرئيس، يجبرني عامل جديد على تأجيل المناقشات إلى تاريخ لاحق. صرحت امرأة، هذه الليلة، أنها تعرف قاتل لويس السمين.

ـ أين هي هذه الامرأة؟

تقوم الشرطة بالبحث عنها. أطلب توجيه إحضار لها بكل الوسائل، وأنه بانتظار...

تداولوا إلى مالانهاية. واستشاروا روجيسار، الذي أرسل بطلب دوكو.

ـ من المتفق عليه أن البحث يستمر وأن الفتاة أديل بيغاس ستجلب في أقرب وقت ممكن. ولا يمنع ذلك البدء بسماع السبع وتسعين شاهداً... أدخلوا الشاهد الأول!

وكان دوكو هو، الذي خلال ساعة وربع، سيدلي بالبيان المفصل عن التحقيق الذي جرى معه:

« ... ثماني عشرة سنة... تميّز بسرقاته الصغيرة لدى أرباب عمله الأوائل... متوحد ونفور. إلى اليوم الذي يدخل فيه زمرة مشرب الملاكمة، التي لم تجلب الاهتمام مطلقاً... ويثمل... مدعياً الفخر، ويسرق سيارة مواطن محترم... لأن

مـانو مـتـعـجـرف، غـيـر راض، ومن الـذين يُجـعـل منهم المـتـمـردون... ومـايثيـر اهتـمـامـه، ليس التـسلّي على شـاكلة الشـبـاب الذين في سنه بل أن يندس ـ ومن باب الخـدم ـ في منزل نبيل يؤثر فيه...»

وكـان دوكـو يقطع مـثل مطواة أُحـسـن شـحـذهـا، ويقلّب شفتيه، ويستدير من حين لآخر نحو لورسا.

«... أجوبته، ومـواقفـه، مسـتوحاة من كبـريائه ذاتهـا، حتى محـاولته الزائفـة للانتحـار وبها، عندمـا تم القبض عليه، لايزال يتشبث لجعل نفسه مثار اهتمام...»

لم يسـتطع لورسـا الامـتناع عن النظـر إلى إمـيل مـانو، وطافت ابتسامة مبهمة في لحيته.

كل ذلك كـان صـحيحـاً، وكـان يشـعـر به! فـالفتى الذي كـان يقضمه الشعور بدونيته...

وذات يوم ذهب فيه لورسا لمقـابلة السيدة مـانو في شـارع ارنست ـ فوافنون، طلب منه إميل، لدى عودته بتكشيرة مرّة:

ـ هل أرتك الرسـوم المـائية؟... يوجـد منهـا من أعلى حتى أسـفل المنـزل... كـان ذلك المـثل الأعلى لـوالـدي... وفـي كل مساء، وكل يوم أحد، كان يعمل حسب البطاقات البريدية...

وبعد ذلك بقليل شعر بحاجة لأن يشرح:

ـ في غـرفـتي، توجـد مـغسلة مع طشت وإبريق بـعـروة عليـه زهور بلـون وردي... فـقط، لم يكن لي الـحق باسـتـعـمـالهـا، لأن ذلك قـابل للكسـر... وعند الاغتسال، ينثر المـاء... لدرجـة أنه كان عندي طشت عليه طبقة من الميناء فوق طاولة من الخشب الأبيض، مع قطعة صغيرة من مشمع الأرضية على الأرض...

تألم من كل شيء، من ممطره الرخيص الثمن ولونه كان بشعاً، ومن حذائه الذي جدد نعله مرتين أوْ ثلاث ودون شك من الاحترام الغريزي الذي كانت أمه تحدثه به عن الناس الأغنياء وعن الفتيات اللواتي كانت تلقنهن الدروس..

تألم، لدى جورج، من تقديم الخدمة لزملائه القدماء في المدرسة، ولأنه كان مجبراً، كل صباح، بمنفضة الريش، أن يزيل الغبار عن صفوف الكتب!

وتألم لأن يظل محجوزاً طيلة النهار، ولايرى الحياة تسيل إلا من خلال الواجهة...

وأن يرى منذ الساعة الحادية عشرة، الشباب مثل إدمون دوسان، وقد وضعوا بضعة كتب تحت إبطهم، يخرجون من مدرسة الدراسات العليا ويطوفون أربع أو خمس مرات شارع ألّيه قبل الذهاب للغداء...

وعندما كان يذهب للقيام بمشترياته، كان يتسكع في المدينة ومعه رزم كبيرة، ويقرع جرس الزبائن وأحياناً يعطيه خدمهم حلواناً!

لم يقل دوكو كل شيء، ولم يكن يعرف هذه التفاصيل.

«- متمرد... جفول...»

كان ذلك يكفي! وبصوت أعرض قراراً:

«- لم يكن له مع هذا سوى أمثلة جيدة تحت عينيه...»

وتحول نظر لورسا ليلاقي نظر الفتى. أمثلة جيدة! لكن بالضبط، قسماً!... كان يتوجب رؤية صورة الأب، اللطيف جداً، والمسرور جداً رغم وجنتيه الورديتين للمصاب بالسل وكتفيه الضيقين!

كان رساماً صناعياً لدى دوسان، للآلات الزراعية، وكان يقول: مدير الخدمات الفنية!

أصله من كابستانغ. لم يعد له سوى أمه. وعندما مات، توجب أن يثابر على إرسال مائتي فرنك في الشهر لهذه لكي تعيش، وكتبت العجوز على بطاقاتها للزيارة: إميلي مانو، صاحبة دخل في كابستانغ!

ألم تحفر أم إميل على صفيحة نحاسية: أستاذة بيانو، بينما لم تكن لديها أية شهادة وكانت لاتستطيع سوى تهذيب الأطفال وإعطاء صبغة موسيقية مبهمة لفتيات شابات غير مهتمات؟

وشرائح البقر! أشار إميل إليها مرة: قطع اللحم الصغيرة جداً أبدياً، الرقيقة جداً... مع الجملة الشعائرية:

«ـ يجب أن تتقوّى...»

ماذا كان بإمكان دوكو أن يفهم من ذلك؟ وكل الذين كانوا في القاعة؟

«ـ يؤكد التحقيق، أنه حتى هذا الخريف، لم يكن لإميل مانو سوى صديق واحد، أو بالأحرى رفيق، جوستان لوسكا، وهو ابن تاجر، يعمل مقابل مكتبة جورج حيث كان مانو منشغلاً... في السابق كان الشابان معاً في الصفوف نفسها في المدرسة الابتدائية... ويجب ملاحظة أن مانو، كان تلميذاً جيداً جداً، يتعلم بسهولة، ،علاماته جيدة جداً... أما لوسكا، فعلى العكس، بسبب شعره الأصهب، واسمه، واسمه الحقيقي افراييم، ومن المنشأ الشرقي لوالده، وكان مكروهاً من رفاقه...

«طفلان، ومزاجان بدءا يرتسمان... لوسكا لطيف، يتحمل دون أن ينبس بكلمة المزحات الفظة جداً وأحياناً الأكثر عنفاً...»

كان ذلك دوماً حقيقياً! عدا أن دوكو، بالطبع، لم يكن يفهم شيئاً منه! وصحيح أيضاً أن لوسكا، لكي يتعلم التجارة، لم يخجل من كونه بائعاً في مخازن السعر الموحّد، بائع بسطة، على الرصيف، نبّاح كما يقال؛ وهي بالفعل الوظيفة الأكثر إذلالاً والأشدّ صعوبة.

كان يرتدي ملابس رديئة ولم يكن يبالي بذلك. كانوا يكرّرون القول له إن رائحته كريهة، مثل دكان أبيه، ولم يكن يحتجّ. وكان أرباب عمل مخزن السعر الموحد يمنعون الموظفين الخارجيين من ارتداء المعاطف، مما يعطيهم هيئة الضحايا، وقد خضع لهذا الأمر، وأمضى الشتاء بكنزتين لبسهما إحداهما فوق الأخرى تحت سترته.

- أصررت على إثبات أن مانو هو الذي ألحّ لدى رفيقه لكي يقدمه لزمرة شباب يمكن تسميتهم، وليس دون بعض الرومانسية، الشبيبة الذهبية في المدينة... وفي ذلك المساء، كانت تمطر، ومنذ الساعة الثامنة والنصف انتظر مانو لوسكا تحت الساعة الجدارية الكبيرة والتي يستعملها السيد تروفييه لافتة، في شارع أليه... وصل لوسكا متأخراً، لأن أمه مثلما يحصل لها على نحو متكرّر حصلت لها أزمة قلبية...

«واتجه الشابان نحو مشرب الملاكمة، حيث كانا سيلتقيان الزمرة التي جعلت من المشرب مكان اجتماعاتها....»

لورسا، والذي كان يبدو غافياً، رفع رأسه ببطء، لأن دوكو وصل إلى النقطة الصعبة.

«ـ لو توجه أية شكوى، ولم يتم تحمل أي ضرر، لم يجد القضاء ضرورة للتمسك بأعمال وحركات أعضاء هذه الزمرة... لنفترض أن هؤلاء الشباب تعرضوا لمرض العصر، وأنهم تركوا المجال لتأثرهم بأدب ما، ببعض الأفلام، وببعض الأمثلة التي لم يجدوا القوة الأدبية للدفاع عن أنفسهم منها...»

وسرّ دوكو من دقته:

«ـ لم نعرف العصر الذي أرادت الرومانسية فيه أن يظن الشباب أنفسهم مصدورين. والأكبر سناً فيما بيننا عرفوا العصر الذي كان فيه الضابط الخيّال هو النموذج المثالي، ثم في وقت أقرب منا، عصر «القاصفين» والـ «منتدين»... نعيش الآن عصر ـ قطع الطريق، وعلينا أن لانستغرب إذا..»

وأعطى لورسا نفسه رضا أن يقول له بصوت خفيض:

ـ يالك من غبي!

كان الأمر سهلاً أكثر من اللزوم! كان صحيحاً ومغلوطاً! على كل، كان الوحيد لمعرفة ذلك، وهو سميك، سميك على نحو هائل بين الدمى المتحركة.

لم يشرب شيئاً هذا الصباح.، وانتظر تعليق الجلسة لكي يندفع إلى الحانة المقابلة ويبتلع كأسين أو ثلاثة من النبيذ الأحمر؛ ومن حين لآخر كان يمضغ على الفراغ احتقاره وحقده، ومنه الطعم السيء الذي يشعر به على الدوام صباحاً في فمه.

عندما كان فتيّاً، فكّر بالكاد بوجود أشخاص مثل إميل مانو، فقراء ومتلهّفين، متضايقين من كل الصعوبات.

هل لاحظ شيئاً ما؟ كان يعيش كما في المآسي، بين العواطف النبيلة؛ وعندما أحبّ، فعل ذلك بالكامل، دون أن يترك مجالاً للشك أو للتدقيق الشديد.

ألم يكن مدهشاً أن يفكّر بذلك في هذه القاعة التي كانت موجودة في ذلك العهد ورأت قضايا تمرّ كلها متماثلة؟

وهو لم ير شيئاً، كانت المدينة بذاتها، كان أمراً محتوماً، مع عائلة روجيسار، وعائلة دوكو، وأخته مارت، ودوسان الأنيق منذ ذلك الحين، والأحياء المنخفضة، والمشارب على نحو مشرب جو، ونساء مسرعات على الأرصفة.

وهو ، لورسا، عاش في عالم مثالي مازجاً الدراسة والحب. أو بالأحرى...

كان يحبّ! إذن، كان ذلك كافياً! كان يحب داخلياً، في أعماق ذاته! ماهي الحاجة، منذ ذلك الحين، لإظهاره، وأن يستسلم إلى براهين فظة كثيراً أو قليلاً؟

كان يقبّل امرأته، ويحبس نفسه في مكتبه، ويلاقيها عند الوجبات. انتظرت طفلاً، وكان سعيداً بذلك. وأتته طفلة وكان يمرّ ثلاث أو أربع مرات يومياً إلى دار الحضانة.

وللتكلم مثل دوكو، كان العصر التقليدي. وكانت المدينة واضحة مثل ألعاب البناء: قصر العدل مقر المحافظ، والمختارية والكنيسة! القضاة والمحامون! والبورجوازية الضخمة، وتحتها، أناس لانعرفهم، يذهبون صباحاً إلى المكتب أو إلى المخزن، ثم التجار الذين يرفعون مغالقهم بضجيج في الصباح الباكر...

هذا العصر، بالنسبة له انتهى بين يوم وضحاه، بذهاب جنفييف مع برنار!

وبدلاً من الصراخ أو الأنين، محا كل شيء دفعة واحدة، مثلما يحصل على السبّورة.

لاشيء سوى الأغبياء! مدينة أغبياء، بشر مساكين لايعرفون مايفعلونه على الأرض ويسيرون بخط مستقيم إلى الأمام كالثيران تحت النير، وفي رقبتهم جلجل أو جرس صغير!

لم تعد المدينة سوى تزيين حول ثقب صغير أنعشه لورسا بحياته، بحرارته، برائحته، باحتقاره المترفّع: مكتبه، وأبعد من مكتبه، نوع من أرض مجرّدة، منزل في حالة فوضى نمت فيه طفلة صغيرة لم تكن مثار اهتمامه...

والقضاة! بلهاء أيضاً، معظمهم أزواج مخدوعون.

المحامون! بلهاء كذلك. وبالنسبة لبعض منهم أوغاد.

كل الناس!

عائلة دوسان الذين كانوا لايفكرون سوى بامتلاك أجمل منزل في المدينة ومارت التي أطلقت عادة مدير الخدم بقفاز أبيض، التي لم نعد نراها في مولان منذ زمن طويل قبل الحرب!

وروجيسار الذي كان يقوم بالحج بأمل إقناع السماء بأن ترزقه بطفل طويل ونحيل مثله ومثل زوجته!

ودوكو الذي سيصبح شيئاً ما، لأنه فعل كل مالزم من أجل ذلك!...

مدفأة جيدة، ونبيذ أحمر، أحمر غامق، وكتب، جميع كتب الأرض. هناك كان عالم لورسا. كان يعرف كل شيء! وقرأ كل

شيء! وكان باستطاعته أن يضحك هازئاً لوحده في ركنه.

ـ مجموعة بلهاء!

وأضاف بطيبة خاطر:

ـ بُلَهاء شريرون!

وها أن طلقاً نارياً انفجر في منزله، ووجد فيه ما يشبه عشاً للفتيان!

ثم إنه، خلفهم، صار يجوب المدينة...

واكتشف أناساً وروائح. وأصواتاً، ودكاكين، وأضواءً، ومشاعر ومزيجاً معقداً، وتجمهراً وحياة لاتشبه المآسي والبلهاء المثيرين للعاطفة، وعلاقات غير منتظرة، لايمكن تحديدها بين الناس والأشياء، ومجاري هواء عند ركن الشوارع ومارّاً متأخراً، ودكاناً ظلت مفتوحة، والله يعلم لماذا، وشخصاً ضئيلاً عصبياً، متحفزاً، ينتظر تحت ساعة جدار كبيرة تألفها المدينة كلها، صديقاً عليه أن يقوده نحو المستقبل...

ومن حين لآخر، كان لورسا ينتفض بحركة وهو يدمدم، ويستدير الناس جميعاً نحوه ، أولهم دوكو، الذي كان يخاف من ضياع سلسلة حديثه، رغماً عن أنه حفظه عن ظهر قلب.

مامن أحد فهم كونه هنا، هو، لورسا، وكان عليه استغلال ذلك للقيام بسفرة أو ليكون مريضاً في السرير. قالت له أخته ذلك. ألم تكن مريضة هي؟ ألم يكن ابنها مريضاً لدرجة أنه احتاج جو سويسرا؟

أتى دوسان أيضاً لمقابلته، وروجيسار، الذي حدثه، ليس فقط باعتباره قريباً، بل باعتباره شخصية قضائية.

وبالإجمال، باعتباره في جهة الدفاع، فكان هو تقريباً

المتهم! وما الذي سيفعله عندما سيتكلمون عن ابنته؟ لأنه يجب التكلم عنها! توصل دوكو لذلك، على دفعات صغيرة، مع منعطفات.

«ـ ... والذي يظهر لنا أن هؤلاء الشباب كانوا متهورين أكثر منهم شريرين، ذلك أنه، بعد الحادث الذي تسبب به إميل مانو، لم تخطر لهم ولو لبرهة فكرة ترك الجريح في الطريق، رغم ماكان لوضعهم من مخاطر... هذا الموقف، للأسف، لايمكن حفظه في إيجابيات المتهم، الذي يعترف أنه في هذه اللحظة كان منشغلاً بالتقيء على الجانب المنخفض من الطريق وأنه لم يعد يعرف أين كان...

« وأظهرت الآنسة لورسا عندها دليلاً على الشفقة والشجاعة. وقبلت أن يكون في بيتها أن...»

وهو ، لورسا، وجد رغبة أن يقول، مثلما كان يفعل على الدوام مهووس أثناء اجتماع حضره صدفة:

«غير صحيح!»

وإن لم يقل ذلك، فإن موقفه المزدري كان يعلنه. لم يكن ذلك الصحيح! مامن شيء كان صحيحاً! لا الشفقة، حتى ولا الشجاعة. لأن هذه الشجاعة، التي نسبها الناس جميعاً إلى ابنته، بدأ يعرفها. إنه يعرف الآن أنها كانت توافيها تماماً في اللحظات التي تشعر فيها نفسها أكثر ماتكون مهزومة.

الحقيقة، هي أولاً أنهم كانوا جميعاً ثملين. لقد سألهم واحداً واحداً. وبالكاد إن كان أحدهم يتذكّر مافعله الآخرون. كان المطر يهطل وخلط كل شيء. لم يعرفوا تماماً ما الذي حصل. ظلّت المسّاحة في السيارة تعمل. وإميل، الذي ظن أنه

رأى دماً، كان يتقيأ وقد تعلق بشجرة. ومرت سيارة من الجهة المقابلة، وبما أن السيارة لم تكن مركونة على نحو حسن، فقد صرح شخص قائلاً:

- مجموعة بلهاء!

كان لويس السمين يتحرك. ولم يكونوا يعرفون من هو بعد؛ لكن، فقط في الضوء الأحمر للنور الخلفي،، كانوا يرون شخصاً يتحرك، نصف وجه أحمر من الدم، وعينين بدتا زائغتين، وساقاً خلعت على نحو غريب.

وصاح صوت قائلاً:

- لاتذهبوا... لاتذهبوا... النجدة...

وفي الحقيقة! كانوا على الأخص من أجل إسكاته فقد اقتربوا منه.

وقال:

- لقد نلتم مني، إيه، أيها الأوغاد! يجب أن تأخذوني إلى مكان ما، الآن... وعلى الأخص ليس إلى المستشفى... وعلى الأخص ليس رجال الشرطة، أتسمعون؟... وماذا أنتم؟... سحقاً! أطفال...

هذه هي الحقيقة! كان هو الذي قام بالقيادة! دايا، بائع لحم الخنزير، حمله؛ وساعده دستريفو الذي كان يضيع نظارته على الدوام والذي أمسك بالقدمين. نسوا إميل. لقد ترك نفسه يهبط إلى أسفل الشجرة، وتوجّب حمله،هو أيضاً، وإدخاله، رخواً، مبللاً، ومتسخاً، في السيارة.

سنعرف ذلك بعد قليل عندما يحين استجواب نيكول. إنها لم تتكلم عن شفقة، هي! أجابت فقط عن سؤال:

«ـ إنه هو! طلب منا الذهاب لاستدعاء طبيب، لكن أن لانقول شيئاً للشرطة. وكان إدمون قد لاحظ وشومه...

«ـ من الذي ذهب لاستدعاء الطبيب؟

«ـ قررنا أن يكون إدمون لأنه كان يعرفه على نحو أفضل..»

سنستمع للدكتور ماتري أيضاً. كانت شهادته هناك، في المصنف رقم ١٧.

« ـ في البداية ظننت أن الجريح كان وحده مع الآنسة لورسا وابن عمتها دوسان. ثم رأيت باب الغرفة المجاورة يتحرك. وفقط شيئاً فشيئاً اكتشفت أنهم كانوا عصبة من الشباب، مرضى من التأثر ومن الخوف... كان أحدهم ممدّداً على الأرض، وقد نصحت بتركه ينام لأنه كان ثملاً على نحو واضح...»

مسكين ماتري، الذي كان يداوي أفضل عائلات المدينة وكان له هذا المظهر الشريف بأبهة لأبطال جول فيرن!

وتابع دوكو الذي كان مصاباً بخدر الأنامل ويفرقع أحياناً أصابعه:

«ـ أردت معرفة موقف كل منهم خلال هذه الليلة...»

غير صحيح! بل كان لورسا الذي فرض ذلك!

«ـ أظهرت الآنسة لورسا شجاعة ملحوظة وبرأي الدكتور ماتري فقد تصرفت وكأنها ممرضة حقيقية...»

قسماً! في هذه الحالة، كانت نيكول تثابر على العيش على القوة المكتسبة، وعلى نحو آلي، وهذا ماأعطاها هذا المظهر الهادئ جداً!

«ـ والتمس السيد إدمون دوسان ، وقد قلق كثيراً، نصيحة

من الطبيب الممارس الذي لم يكن يستطيع إعطاءها..
وسيقول لكم ذلك بعد قليل...»

ماذا سيقول؟ إنه لم يكن خطأه! وإنه كان مستعداً لدفع قبول الجريح في عيادة! وأنه اقترح أن يجعل نائباً صديقاً لوالده يعمل لصالح لويس السمين... وأخيراً، دستريفو الذي أضاع نظارته لم يعد يرى هذا المشهد إلا بعيني أحسر، وبعقلية دستريفو المسكينة!

وسيكون تماماً هناك أحدهم يسأل لورسا:

«ـ ولم تسمع حقاً أي شيء؟»

لن يحدثهم حتى عن الممرات الطويلة، والأدراج، وعن جناحي المنزل. سيقول:

«ـ كنت ثملاً، أيها السادة!»

وهذا لم يكن صحيحاً أيضاً، كان على نحو باقي الأمسيات ساخناً، متخدّراً، سميكاً، متدثراً بوحدته.

حاول المحلفون اتخاذ هيئة لامبالية ورصينة، لأنه كان هناك أناس كثيرون يعرفونهم. وانتظر الحشد ذهاب دوكو ودخول الممثلين الحقيقيين. أحياناً، كان أحدهم يأتي ويتحدث في أذن روجيسار، الذي كان يشغل كرسي الحق العام وكان أمامه علبة أقراص النعنع.

وهذا الذهاب والاياب كانا يعنيان:

ـ لم يعثر عليها بعد!

الفتاة بيغاس! لأن، هنا أصبحت أديل الفتاة بيغاس!

نظرة من روجيسار للورسا:

ـ كلا... لاشيء ـ أنا متأسف...

بدأ دوكو يشعر أن شفتيه جفتا، وبدأ يبطئ بالكلام، لم ير لورسا إلا أنه كان يشعر به، هناك، على يمينه، متجهماً وشيطانياً.

«ـ وفي هذه الليلة بالذات، حوالي الساعة الرابعة صباحاً، بدأ المتهم علاقاته مع الآنسة لورسا، التي كانت تسهر عليه في الوقت ذاته الذي كانت تسهر على الجريح...»

ثم بذل كل أمر في سبيل تجنيبه ذلك! توسّلوا إلى لورسا لكي لايظهر في الدعوى، ليس فقط بالنسبة لنفسه، بل بالنسبة لعائلته، ولزملائه، ومن أجل كل من تعد مولان من الأناس الأكارم!

فضّل عرض نفسه في الصف الأول! ولو قال لهم ممَّ كان يبتسم في هذه اللحظة بالذات؟...

وممَّ، في هذا الصباح، قبل أن يأتي إلى القصر، أوشك أن يحلق لحيته! خدعة يقوم بها تجاههم! كان سيصل وقد حلق لحيته للتو، واعتنى بشعره، وله قبة مستعارة كاملة!...

«ـ في استجوابه الثالث، في ١٨ تشرين الثاني، قال لنا المتهم إنه، إن هو دخل، عن طريق رفيقه لوسكا، إلى وسط كان غريباً عنه، فإنما كان ذلك بالتأكيد حباً بالآنسة لورسا... وهكذا فإنه يحاول تفسير موقفه في تلك الليلة عندما، بعد أن استيقظ، وهو لايزال مريضاً، واستسلم إلى بوح طويل ملتهب...

« وأعلنت لنا الآنسة لورسا، من جانبها قائلة:

«ـ كان خجلاً مما حصل ومن فوضى ملابسه... وتوسّل إلي أن أغفر له... كان متأثراً جداً... واعترف لي أنه لايبحث إلا عن التقرب مني...»

دوكو، باعتباره شاهداً لم يكن له حق بالملاحظات. كان مجبراً أحياناً على إغماض عينيه، لكي يجد بالتمام الجملة المهيّأة، ورقم وثيقة.

«ـ من المؤكد أنه بالتالي اندس في المنزل بقدر ماسمحت الظروف له، ولن أذهب للادّعاء بأنه استغلّ بوقاحة الحادث الذي أعطاه عذراًممتازاً...

«ومع هذا...»

غير صحيح! لم يبلغ دوكو مطلقاً الثامنة عشرة من العمر، ولم يحب ولم يكن طموحاً لدرجة الاختناق بذلك!

وكذلك الأمر بالنسبة للورسا. إلا أن لورسا تشمّم مؤخراً ثمانية عشرة الآخرين!

«ـ ومنذ ذلك الحين، أتى كل مساء، وباستطاعتي القول كل ليلة، بما أنه في بعض الأيام لم يعد إلى بيته إلا في الساعة الثالثة صباحاً... ويدخل وكأنه لص، من الباب الصغير الذي يفتح على الشارع المسدود...»

ليس صحيحاً! ليس وكأنه لص!

وأوشك لورسا، لأنه كان بعيداً جداً من هيئة المحكمة أحياناً، أن يأخذ لفافة تبغ من جيبه وأن يشعلها.

«ـ وجواباً على أسئلتي حول علاقاته مع الآنسة لورسا، أجاب بوقاحة:

«ـ ليس لدي تفاصيل أعطيها عن حياتي الخاصة...»

« إلا أنه لم ينف أنه استغل هذه الألفة التي أوجدتها هذه الكارثة لكي يندس مراراً في غرفة الفتاة الشابة..»

وتم تنبيه لورسا:

«ـ ستجعل مهمة العدالة أكثر عقوقاً مما هي عليه الآن...
ستثير حتماً فضيحة!...»

وبالفعل، كان الناس جميعاً ينظرون إليه، بعينيه المتسعتين، وبرطمة رضا في لحيته.

وزمجر صوت الرئيس قائلاً، وقد سرت همهمة في القاعة، وهي همهمة تكونت من الفضول وعلى الأخص من التدافع:

ـ لأول تظاهرة، سأفرغ القاعة!

وشعر دوكو بسخونة في رأسه، وبرودة في يديه، وتابع قائلاً:

«ـ وبعد مضي اثني عشر يوماً، انفجرت الكارثة. إذن يجب بيان ما كانته أن هذه الأيام الاثنا عشر بالنسبة للضيوف المعتادين ووقع على التحقيق أن...»

بالنسبة للورسا، كان الأمر بسيطاً! مدفأته! ونبيذ بورغونيا الخاص به، والكتب التي كان يخرجها دون تعيين من على الرفوف، وكان يقرأ منها ثلاث صفحات أو خمسين، والكؤوس التي كان يملؤها وهذا الجو الجيد الدافئ الذي كان وكأنه يفوح منه والذي ينتهي به الأمر أن يشكل معه، في الغرفة، كلاً متماسكاً، إلى اللحظة التي كان ينام فيها...

«ـ حول أمر العلاقات بين المتهم والآنسة لورسا لاجدوى من...»

لكن بلى! لكن بلى! كانا عاشقين! ومنذ اليوم الثالث على وجه التدقيق! وبالتالي كل يوم! إميل باحتدام، وحمّى، وكبرياء وبشيء من اليأس. ويبدو أن نيكول قهرها جنون كهذا.

كانا يحب أحدهما الآخر. وكانا قادرين على إشعال النار في المدينة لو أن هذه وقفت ضدّ حبهما.

وجميع الآخرين، الذين سمحوا لهما دون أن يدروا أن يتلاقيا أخيراً: جماعة إدمون، ودايا. ودستريفو ولوسكا، وابن المستشار غروَن لم يكونوا سوى أشخاص ثانويين غامضين وممثلين صامتين كانوا يعيقونهما.

وأيضاً أكثر من لويس السمين الذي كان له ميزة تشكيل نوع من إثبات الغيبة، وعذر وسبب للتواجد هنا...

بدأ ذلك قوياً جداً، على مقياس للنغم حادٌ جداً، بسبب الكارثة، والسيارة والدم وكل شيء، حتى إنهما بلغا مباشرة الذروة.

وكان دوكو الذي، بخطمه الشاحب، قطّع كل ذلك إلى شرحات رقيقة أمام المحكمة!

وكان روجيسار أمامه، إلى اليسار قليلاً، على كرسي الحق العام، كان لورسا غير مرئي لكنه أكثر إزعاجاً على اليمين وأمام حصّالة الرئيس نيكه الهائلة الذي كان يفعل كل ما باستطاعته حتى إنه كان يسجل ملاحظات.

ـ وهاأني وصلت إلى الليلة المأساوية و...»

كان لورسا حقاً عطشان. نهض قليلاً، وأصدر حركة الطالب الذي أصابته حاجة صغيرة وهمهم قائلاً:

ـ أعتقد أن تعليقاً...

وانتهى ذلك بضجة أقدام وكراسي ومقاعد.

- ٣ -

في فترة بعد الظهر، لقي كل واحد منهم بالرضا. وكان الناس ينظرون بعضهم إلى بعض ويتبادلون الإشارات المهذبة أو الماكرة، وكان الرئيس نيكه فخوراً بما فيه الكفاية لأنه وضع، في زمن قياسي، مدفأة هائلة، يمر قسطلها من النافذة. كانت المدفأة تصدر بعض الدخان، لكن كان بالامكان الاعتقاد أن ذلك يعود لأنها أشعلت قبل قليل.

كل واحد، على وجه الإجمال، كان جالساً مرتاحاً في القضية.

- إذا لم ير الدفاع مانعاً، سنستمع في البداية للشاهد دستريفو، لأن عليه الالتحاق بقطعته في أقرب وقت...

وانسلّ، وهو يطلب السماح من جميع الذين أزعجهم؛ كان الناس متجمعين في كل مكان، والمحامون واقفين في أدنى الزوايا.

كان الرئيس حقاً مسروراً، واتسع فمه ببشاعة أكثر من أي وقت مضى. تأمّل المحلفين، ومساعديه والنيابة العامة على نحو مايفعل رجل التقى بأصدقائه الطيبين، وبدا وكأنه يقول لهم:

- اعترفوا أن الأمر ليس كثير السوء! لاسيما منذ أن بدأت هذه المدفأة تشخر...

وقال بصوت مرتفع، أبوي، لدستريفو:

- لاتخف من أن تتقدم...

في البنطال من القماش الخاكي، كان بالامكان وضع ثلاثة أزواج أفخاذ مثل فخذي موظف المصرف؛ وكان النطاق، مرتفعاً جداً، وبعيد، بثنيات عميقة، القميص إلى نسب صحيحة، يعطي الشاب هيئة لعبة الشيطان.

- استدر باتجاه السادة المحلفين... لست لاقريباً، ولاتعمل في خدمة المتهم؟... أقسم بأن تقول الحق، كل الحق... ارفع يدك اليمنى...

لم يستطع لورسا الامتناع عن الابتسام. وما كان ينظر إليه، كان إميل مانو، الذي لم يشعر أنه تجري مراقبته وأذهلته رؤية رفيقه القديم. وفي اللحظة نفسها حصل هيجان في آخر القاعة.كان دستريفو الأب، الذي رفع يده إلى وجهه وترك نحيبه ينفجر، وفي موقفه المسرحي، عبّر عن خزيه وألمه، واندفع نحو المخرج دون أن يستطيع تحمّل المزيد.

انغلق الجمهور من جديد، وراجع الرئيس مصنفه.

- لنر... كنت أحد رفاق إميل مانو... وكنت تشكل جزءاً من المجموعة ليلة الحادث؟

ـ نعم، سيدي الرئيس...

لم تكن هناك حاجة لتعليمه كيف يجيب! ولا القول له إن الشاهد عليه الاحتفاظ بموقف بسيط ومتواضع!

ـ هيا!... (تلك كلمة السيد نيكه لكي يستطرد في الكلام.) وقبل هذه السهرة المشهودة، هل كنت تعرف المتهم؟

ـ بالنظر، ياسيدي الرئيس.

ـ آه، بالنظر فقط! لأن، على ما أعتقد، تسكنان الشارع ذاته؟ إلا أنكما لم تكونا صديقين، ولا رفيقين؟

وكان من الممكن الاعتقاد أن الرئيس قام باكتشاف مثير، لشدة السرور الذي أظهره في المتابعة:

ـ بما أنكما كليكما كنتما تعملان في المدينة، ألم يكن يحصل أن تتركا سكنكما في الساعة نفسها؟

ـ كنت أركب الدراجة، ياسيادة الرئيس...

ـ هذا هو الأمر! كنت على الدرّاجة!... لكن لم يكن هناك اي سبب أخلاقي أو سواه يمنعك من معاشرة إميل مانو؟

ـ كلا... لاأرى...

ـ ما الانطباع الذي تركه المتهم لديك عندما عرّفوك عليه في مشرب الملاكمة؟...

ـ ولا أي انطباع، ياسيادة الرئيس.

ـ هل بدا لك خجولاً؟

ـ كلا، ياسيادة الرئيس.

ـ ألم تلاحظ أمراً خاصاً لديه؟

ـ لم يكن يعرف اللعب بالورق...

ـ وعلمته ذلك؟ أية لعبة علمته إياها؟

ـ التبعيدة. وإدمون هو الذي أعطاه درساً وربح خمسين فرنكاً...

ـ كن صديقك إدمون محظوظاً جداً؟

وكان الآخر سليم النيّة، ضللّته مباشرة ردّة فعل القاعة:

ـ كان يغش.

كانت أول ضحكة بعد الظهر، ومنذ ذلك الحين، كان الناس جميعاً على استعداد أفضل.

ـ آه! كان يغش! كان معتاداً على الغش؟

ـ كان يغش على الدوام. ولايخفي ذلك...

ـ ورغم هذا كانوا يلعبون معه؟

ـ من أجل محاولة كشف خدعته.

تبادل روجيسار والمساعد الذي على يساره إشارات صغيرة، لأن المساعد كان مشهوراً في مولان بحيله في ورق اللعب. وحاول الرئيس عبثاً أن يلتقط قليلاً من هذا الحديث الأخرس الذي مرّ من فوق رأسه.

ـ أفترض أنك شربت كثيراً، في ذلك المساء؟

ـ مثل المرات الأخرى.

ـ معنى ذلك؟ أية كمية تقريباً؟

ـ خمسة أو ستة كؤوس...

ـ من أي شيء؟

ـ من الكونياك الممزوج بالبرنو..

ضحك جديد انتقل وكأنه موجة متزايدة حتى نهاية القاعة. ولم يكن جدّياً سوى إميل، يسمع، وذقنه على يديه، وقد ثبّت نظره على رفيقه.

ـ من الذي اقترح الذهاب إلى نزل الفرقى؟

ـ لم أعد أعرف...

إلا أن إميل مانو تحرّك، مما كان يعني بوضوح:

«كاذب!»

ـ هل المتهم هو الذي، من ذاته تحدث عن... لنقل عن استعارة سيارة؟...

لنرَ... كيف كنتم تتصرفون في الأمسيات الأخرى؟

ـ كان دايا يصحبنا في شاحنة أبيه الصغيرة... وفي هذا المساء ذهبت إلى بلدة نفير لكي تحمّل الخنازير.ـ لدرجة أن مانو وجد من المستحسن أن يركب أول سيارة صادفها؟...

ـ لعلهم دفعوه لهذا الأمر...

ـ ماذا، هم؟

ـ الجميع تقريباً...

لعلّه كان يود أن يكون شريفاً بالتمام. وقد بذل جهداً. وشعر أنه كان جباناً، وأن عليه أن يعلن:

«ـ كانوا يسخرون من الجديد. وجعلوه يشرب. وتحدّوه في أن يسرق سيارة...»

ـ باختصار، قادكم المتهم حتى النزل. وهناك، ما الذي حصل؟

ـ شربنا النبيذ الأبيض... لم يعد هناك سواه والجمة في المنزل... ورقصنا...

ـ هل رقص مانو أيضاً؟ مع من؟

ـ مع نيكول...

ـ إن كنت لا أخطئ، كان في هذا النزل الغريب فتاتان: إيفا

وكلارا. ما الذي كنتم تفعلونه لهما؟

كانت الكلمة وقحة، وكان الرئيس فخوراً بها بعض الشيء ومع هذا خائفاً.

- كنا نضجّ عليهما...

- ومامن شيء آخر؟

- أنا لا، على كل حال.

- ورفاقك؟

- لاأعرف... لم أر أحداً يصعد.

ضحكات أيضاً، وابتسامات؛ إميل ودستريفو، وحدهما، لم يجدا شيئاً مدهشاً فيما يقال. كانت تلك لغتهما، وذكرا أشياء مألوفة.

- لن أطلب منك سرد قصة الحادث التي قام بها قاضي التحقيق بمهارة هذا الصباح. أفترض أنك ذهبت كثيراً إلى الآنسة لورسا؟

- في أغلب الأحيان، نعم!

- لتشرب وترقص؟ ألم تخش من رؤية والد هذه الفتاة أن يظهر فجأة؟

والأكثر إثارة للفضول، هو أن دستريفو نظر إلى إميل وكأنه من أجل أن يسأله:

«- ما الذي يجب الإجابة به؟»

وتابع الرئيس قائلاً:

- لنترك هذا الأمر! هل تسبب وجود لويس السمين في المنزل بتغيير في عادات عصبتكم؟

- لقد خفنا.

ـ آه! لقد خفتم! خوف، دون شك، من رؤية لويس السمين يتسبب بفضيحة؟

ـ كلا... نعم... كنا خائفين منه.

أطلق لورسا تنهدة عميقة. أيها الرئيس الأبله المسكين! لم يشعر بالأمر إذن؟ ألم يتذكر تخوّفه عندما كان طفلاً؟ كان الأطفال يلعبون لعبة قطاع الطرق، وها إن قاطع طريق حقيقياً فيما بينهم. إنسان فظ ضخم موشوم سبق له دخول السجن، ولعله اقترف جرائم!...

استفاد من ذلك لويس السمين، أيتها الصاعقة المقدسة! كان يحكي لهم عشر مرات أكثر مما فعل حقيقة! والآخرون، المتفاخرون تماماً، كانوا يفاخرون أمامه بسرقاتهم الصغيرة!

ـ فكر تماماً قبل أن تجيب، لأن هذا الأمر خطير: هل تحدثتم فيما بينكم عن موضوع التخلص من لويس السمين بطريقة أو بأخرى؟... أسألك عما إذا، خلال اجتماعاتكم، إن كان في المنزل، أم في مشرب الملاكمة، أم في مكان آخر...

ـ نعم، سيدي الرئيس؟

ـ من الذي تحدث عن ذلك؟

ـ لم أعد أتذكر... ادعوا أنه سيستمر في ابتزازنا، وأنه وجد عرق الذهب، وأنه ماعليه إلاّ أن يطالبنا إلى مالانهاية بالمال...

ـ وتحدثتم عن قتله؟

ـ نعم، ياسيادة الرئيس.

ـ هل واجهتم الأمر ببرودة أعصاب؟

كلا، ليس ببرودة أعصاب! كان لورسا يضطرب على

مقعده الخشبي. كل ذلك بلا طائل. بما أن مامن أحد يريد فهم لغة الفتيان! ولعلهم ناقشوا حتى أدق تفاصيل الجريمة ولن يكون لذلك أية أهمية! كانوا يخترعون الكوارث لكي يتسلّوا، هذا كل مافي الأمر!

- الأستاذ لورسا... هل تريد أن تطرح سؤالاً على الشاهد؟ لأنهم لاحظوا أنه يتململ!

- نعم، ياسيدي الرئيس... أود أن تسألوا من، عدا مانو، كان عاشقاً لنيكول...

- سمعت السؤال؟ لاتنفعل، أرجوك... أعلم أن الوضع غير طبيعي بعض الشيء، لكن عليك أن لاترى هنا سوى المدافع عن المتهم... أجب...

- لاأعرف...

- أتسمح، سيدي الرئيس؟ قبل وصول مانو، من الذي كان رفيق نيكول المعتاد؟

- إدمون دوسان...

- كان يتظاهر أنه عشيقها، ولم يكن كذلك، أليس ذلك صحيحاً؟ كان ذلك على الإجمال، جزءاً من اللعبة!... لكن هل أحد غيره كان محباً، أقصد قول إنه كان حقاً يهوى نيكول؟

- أعتقد أن لوسكا...

- هل أسرّ لك بذلك؟

- كلا، لم يكن يتكلم كثيراً...

- هل أن الحادث وواقع أنه كان في المنزل جريح شتت العصبة؟

سكت دستريفو، وتابع لورسا قائلاً:

ـ أليس بالأحرى أن نيكول كان لها منذ ذلك الحين محبٌ حقيقي؟

تدافع الناس قليلاً، في نهاية القاعة، لكي يروا. خفض دستريفو رأسه، ولم يعرف بماذا يجيب.

ـ هذا كل مافي الأمر، سيدي الرئيس.

ـ ألم تعد هناك أسئلة؟ السيد المحامي العام؟

ـ مامن أسئلة؟

ـ أما من أحد يرى مانعاً في أن يلتحق هذا الشاهد بتكتته؟... أشكركم.

كان الناس يعرفون سلفاً أن من الواجب الوصول إلى هذه النتيجة، بالطبع، إلا أن الرئيس لم يكن أقل من ذلك فريسة لارتجاف ضئيل مزعج.

ـ أدخلوا الآنسة لورسا... أستميحك عذراً، أستاذ...

وبدلاً من أن يلملم نفسه، على العكس من ذلك بدا عليه الانفتاح!

ـ تقسمين بقول الحق، كل الحق. ارفعي يدك اليمنى، وقولي: أقسم على ذلك... أعلنت للشرطة، ثم للتحقيق أنه مساء ٧ تشرين الثاني، تواجد المتهم في غرفتك...

ـ نعم، سيدي الرئيس...

نظرت بلطف وبساطة وبثقة تامة.

ـ هل صعدتما كلاكما عند الجريح؟

ـ كلا، سيدي الرئيس، ذهبت هناك حوالي الساعة التاسعة، وحملت له عشاءه.

ـ إذن لم يكن هدف زيارة مانو بذل العناية للويس السمين؟

ـ كلا، سيدي الرئيس...

ـ إني لاأصـرّ... لم تكوني تنتظرين، ذلك المسـاء، أياً من رفاقك؟

ـ لاأحد! مضت عدة أيام ولم يأتوا...

ـ وهل عرفت السبب؟

ـ لأنهم كانوا يعرفون أننا نفضل البقاء وحدنا.

كان الناس يراقبون لورسا أكثر مما كانوا يراقبونها، وشعر لورسا أنه يرغب بالابتسام لهم.

ـ في أية ساعة تركك إميل؟

ـ حـوالي منتـصف الليل... أردت أن ينام باكـراً، لأنه بدا متعباً...

ـ تسمين ذلك: النوم باكراً؟

ـ في الأمسيات الأخرى، لم يكن يذهب إلا حوالي الساعة الثانية أو الثالثة...

كان روجيسار يلعب بمداده الرصاصي ـ وكان يثبت نظره عليه باهتمام شغوف.

ـ هل تكلمتما عن لويس السمين؟

ـ لاأتذكر ذلك، لكني لاأعتقد.

ـ عندما تركك مانو، على باب غرفتك. كان المفروض أن يذهب مباشرة. ومع هذا بعد عدة لحظات، رآه والدك ينزل من الطابق الثاني. هل هذا صحيح؟

ـ صحيح بالتأكيد

ـ هل فسرت لنفسك مافعله مانو في الطابق الثاني؟

ـ قاله لك. سمع ضجة وصعد.

وتحدث رجل القضاء بصوت خفيض مع مساعديه. وثلاثتهم رفعوا أكتافهم. ألقى نظرة نحو روجيسار، الذي هزَّ برأسه، ثم باتجاه لورسا...

ـ أشكرك... بوسعك الانصراف

وعندها، قامت بتحية صغيرة، وبأكبر طبيعية ممكنة، أتت وجلست قرب أبيها واستعادت وظيفتها كسكرتيرة. سعل الرئيس. وكاد روجيسار يكسر مدّاد رصاصه. وتحرّك الناس أيضاً، في نهاية القاعة، دون أن يعرف بالضبط سبب لذلك.

ـ أدخلوا الشاهد التالي.. الحقيقة. إدمون دوسان... تقسم أن... الحقيقة... يدك اليمنى... باتجاه السادة المحلفين... أرى هنا شهادة طبية تبين أنك مصاب بمرض خطير وأن حالتك تتطلب مداراة...

كان شاحباً بالفعل، كشحوب امرأة. وكان يعرف ذلك. ويخاطر به. ولايجد حرجاً في النظر إلى مانو مواجهة.

ـ ما الذي تعرفه عن هذه القضية؟ استدر نحو السادة المحلفين. وتكلم بصوت أعلى...

ـ كان علينا إعادة جميع الأشياء، مثلما فعلنا في إيكس...

ـ تقصد في إيكس ليه بن، حيث قمتم باللعبة ذاتها، ولنقل بلعبة قطاع الطرق، وأعدتم الأشياء المسروقة!

ـ كنا نضعها يومياً أمام النبع، وتجدها الشرطة... في مولان،قررنا أولاً أن نجمع غنيمة مدهشة... وعلى الأخص لأن طابقاً بكامله كان تحت تصرفنا...

ـ في منزل خالك، ذلك تماماً؟ ماكان موقف المتهم تجاهك؟

ـ كان يأخذ كل شيء بجدية... ومنذ اليوم الأول، أخبرت الآخرين أنه سيجلب لنا المتاعب...

ومابدا على لورسا أنه يصغي. في بعض اللحظات، كان بالإمكان الاعتقاد أنه نائم، وقد صالب ذراعيه على صدره، وحنى رأسه إلى الأمام، ودفع مساعد الرئيس بمرفقه.

ـ هل بدا المتهم لك خائفاً من المجرى الذي أخذته الحوادث؟

ـ لقد جن جنونه... لاسيما من طلبات لويس السمين للمال...

ـ وكنت تعرف أنه سيسرق هذا المال؟

مامن جواب. راجعت نيكول في هذه الأثناء المصنف، ومدّت ورقة لأبيها.

ـ سؤال، سيدي الرئيس. هل تودّ التكرّم بسؤال الشاهد فيما إذا كانت له علاقات مع الفتاة بيغاس التي لم تتمكن الشرطة بعد من العثور عليها؟

ـ سمعت السؤال؟ أجب...

ـ نعم... بمعنى...

وأصرّ لورسا قائلاً:

ـ لعدّة مرات؟

ـ مرة واحدة...

كانت المدفأة لاتزال تدخّن. والعقارب تتقدم ببطء على ميناء الساعة المصفرّ لساعة جدار موضوعة خلف هيئة المحكمة.

ودائماً، وكأنها هرير، الصيغ ذاتها، والمقاطع نفسها وانتهى بها الأمر أن لم يعد لها معنى، ولم تعد سوى لازمة:

ـ ... استدر نحو السادة المحلفين... مامن سؤال، ياأستاذ؟ وانتفض لورسا، لأنه كان يفكر بأمر آخر. كان يفكر، في هذه اللحظة أن ابن أخته إدمون لن تشيخ عظامه، وأنه مامن شك أن ليس أمامه سوى عامين أو ثلاثة يعيشها!

لماذا؟ إنه انطباع! والآن، كان ينظر إليه بعينيه الواسعتين الضبابيتين تلكما اللتين تكونان له عندما يخترق لب الأمور.

سؤال؟ سؤال؟ لكن كلا! لن يؤدي ذلك لشيء. كانت الأسئلة تملأ مصنفاً أصفر، أسئلة وأجوبة! من كل نوع بما فيها أسئلة عن جدول عمل إدمون مساء ٧ تشرين الثاني.

ظل في مشرب الملاكمة حتى منتصف الليل تقريباً. وعاد إلى منزله، ورافقه دستريفو حتى الباب.

لعل ذلك كان صحيحاً، ولعله مغلوط، لم يستطيعوا إثبات ذلك.

لو أن إدمون قتل لويس السمين...

كان قادراً على ذلك! ودستريفو أيضاً! كلاهما كانا قادرين على ذلك، دون حوافز محدّدة، لأن ذلك هو النهاية المنطقية للعبة!

حتى إميل!...

لماذا لم يعتقد لورسا مطلقاً أن إميل هو الذي أطلق النار؟ كان يراه مقابله، متحفّزاً مرّة ثانية، تاركاً نظرة حقد تثقل على دوسان الابن!

لعله كرهه منذ اليوم الأول، لأنه كان غنياً، ولأنه كان رئيس العصبة المصغّرة، ولأنه تجاه نيكول كان يتخذ هيئة المالك، ولأنه ينتمي لعائلة مهمة، ولأن كل شيء!

وكرهه دوسان أيضاً... لجميع الأسباب المعاكسة...

فقط، لم يكن عن طريق الأسئلة والأجوبة يمكن إفهام هذه الأمور لمحلفين باهتين، ولا لهيئة المحكمة.

ـ عندما علمت بأمر قتل لويس السمين، هل فكرت مباشرة بإميل مانو؟

ـ لا أعلم...

ـ هل فكرت مباشرة بواحد آخر من رفاقك؟

ـ لاأعرف... كلا... لاأظن...

بعد موكب الشباب، سنسرع أكثر. إلا أن الرئيس كان متمسكاً بالقيام بمهنته بوجدان.

ـ قبل قليل، أبدى رفيقك دستريفو خزيه، وتأسفه لأنه ترك نفسه ينجر في مجالات بمثل هذه الخطورة هل من جهتك...

وقال إدمون:

ـ اتأسف...

ليس مثلما فعل دستريفو، الذي حضّر خطابه القصير وتلاه بندم:

«ـ أتأسف على كل مافعلت وأني جلبت الخزي لعائلتي، التي لم تقدم لي سوى الأمثلة الحسنة. أطلب العفو عن الضرر الذي تسببت به، وإني... إني...»

جلسة ساعة أيضاً على ضوء المصابيح الكروية المصفرة التي كانت تنير قاعة المحكمة، تاركة زوايا من الظلال مثلما في الكنيسة، مبرزة بعض الوجوه من المضيء ـ المعتم.

كانت أنجيل، في غرفة الشهود، تحكي بصوت صارخ

قصصاً وسخة عن منزل لورسا، إن كان عن الأب أم عن البنت وعن القزمة التي كانت أيضاً هناك، مقطبة في زوايتها.

وعندما خرج الناس من القصر، بوطء أقدام كما في أعقاب قداس عظيم، كان هناك تفرّب بلقاءهواء الخارج، وأنوار الشارع، وحجارة التبليط المتجمدة، والضجيج المعتاد، والسيارات، والمارة الذين كانوا يتابعون حياتهم اليومية.

تأثّر جو الملاكم خطى لورسا.

- اتساءل أين يمكن أن تذهب! لقد فتشت كل مكان. ولاأستغرب حتى الا تكون غادرت المدينة... ماهو رأيك بالأمر، أنت؟ حتى الآن ليس الأمر سيئاً جداً؟

وعندما عادت القزمة، ذهبت إلى الدكاكين لتشتري ماتستطيع كي تهيء لهم وجبة باردة، وكان المنزل ينم عن الفراغ، ويقرع الخواء.

لم يعد المرء يعرف مايعمل، ولاأين يجلس. لم يعد في القضية كما وإنه ليس في الحياة.

أكلت نيكول. مرات عديدة، باغت لورسا نظرة رمته بها، ولو كان يعرف ماتفكر به، لتمنى أن لاتتحدث عنه.لأن زمناً طويلاً مضى ويحدث لها أن تنظر إلى والدها على هذا النحو، بفضول، وكذلك بعاطفة أخرى أكثر استحياء، ليست الاعتراف بالجميل تماماً، وليست بعد المحبة، بل خليط ممكن أن يدعى استلطافاً ولعله إعجاب؟

وسألته وهي تنهض عن المائدة قائلة:

-ماذا ستفعل هذا المساء؟

- لاشيء... سأنام...

لم يكن ذلك صحيحاً. وقلقت بعض الشيء بسببه. كان هو أيضاً يعرف الأمر، ولماذا. إلا أنه لم يستطع بحشمة أن يعدها بألا يشرب!

على كل حال، كان بحاجة للشرب، وحده، وأن يغلق الباب، وأن يدخن لفافات التبغ، وأن يهز مشبّك المدفأة، وأن يجلس، وأن ينهض، وأن يشخر، وأن يزيل ترتيب لحيته وشعره.

وسمعها تماماً وقد أتت ثلاث مرات حتى بابه لتستمع، ولتطمئن.

أما هو، فكان يدور في مكانه... كان هناك واحد، واحد من هؤلاء الفتية، دخل غرفة لويس السمين وأطلق النار...

وهذا كان يعرف أنه قاتل وأن إميل بريء! كان يعرف ذلك منذ أشهر! وتمّ استجوابه مثل الآخرين، وأجاب، وتمدّد كل مساء، ونام، واستيقظ في الصباح مواجهاً يوماً جديداً من العيش!

وفي بعض الأمسيات، بأمل أن يقتلع نفسه من وحدته المعذّبة، تجوّل في الشوارع واقترب من ظل آخر، ظلّ اديل بيغاس، وتبعها إلى غرفة متعفنة لممارسة الحب.

وقاوم... في كل مرة كان على وشك أن يقول لها...

وعاد. لقد قاوم أيضاً، وبنهاية المطاف، استسلم.

على أي نبرة؟ بتفاخره؟ بضحكه الهازئ، بقيامه بدور الوقاحة؟ أو على العكس، بالاعتراف بهلعه؟

أما هو، لورسا، فلم يكن حتى قادراً على...

نظر في بياض عينيهما مع هذا: دستريفو الذي أراد بحرارة إسعاد الجميع، ودوسان الذي كان سعيداً تماماً بالتخلص من مسؤولياته لأنه كان مريضاً! وكان وكأنه يقول:

« ترون أني ســـريع العطب، لن أعـــيش زمناً طويلاً... تسليت... لذلك أهمية قليلة!...»

وفي اليوم التالي صباحاً، سيتم سماع بائع لحم الخنزير، ثم لوسكا، الذي كـان أبوه، منذ بداية هذه الحـوادث، يذوب كالشمع.

كـانت الأجـراس تقـرع في الكنائس. وكـانت أديل وجـين في مكان ما، مختبئين، وقد تم إخبارهما حتماً أن البحث جار عنهما.

نهض لورسا عـشـر مـرات، وذهـب لفـتح خـزانة الجدار، وصب بضع قطرات من الروم، في كل مرة أكثر قليلاً، وأخيراً نام بشعور واخز أنه لم يبق عليه سوى بذل مجهود خفيف وأن هذا المجهود كان مع هذا مستحيلاً.

كان أفراد عائلة روجيسار مسرورين! لقد تمت الجلستان على نحو جيد. وتم كفاية المرور على بعض المواضيع. ولم يتصرف الدب على نحو سيئ جداً وتحلّت نيكول بسرّية نسبية. وتم تبـادل مـخـابرات الهـاتف. أراد دوسـان أن يعلم إن لم يكن هناك حادث عارض متوقع للغد. وكانت مارت في غرفة ابنها، تسهـر على إدمون الذي ارتفعت حرارته قليلاً. وحبس لوسكا نفسه في الغرفة وأقفل الباب بالمفتاح، غرفة لم تكن غرفة حقيقية، بل نوعاً من العنابر في باحة المنزل.

أما بالنسبة للسيدة مانو، فقد كانت تصلي، وحيدة في منزلها، كانت تصلي ثم تبكي، ثم تذهب لتتأكد من أن الباب كان محكم الإغلاق، لأنها كانت خائفة، ثم أخيراً كانت تبكي قليلاً أيضاً عندما تنام وتتمتم بضعة مقاطع بصوت خفيض وكأنها تهدهد ألمها.

في الساعة الثامنة، في الشوارع، كان الموكب من جديد، رجالاً ونساءً ومجموعات تتقارب نحو قصر العدل وأناس كانوا يعرفون بعضهم بعضاً، ولايسلمون على بعضهم بعضاً لكنهم، بدؤوا يتبادلون ابتسامات مبهمة.

كان إميل يرتدي البزة نفسها، وربطة العنق ذاتها. ولعله بسبب التعب، بدا أكثر باطنية منه في اليوم السابق.

أما جو، فلم يره لورسا في قاعة الشهود حيث، مع هذا، كان من الواجب أن يتواجد، لأن دوره سيجيء صباح هذا اليوم.

- أيها السادة، هيئة المحكمة!...

«- ... الشاهد التالي... قول الحق... كل... حق... سادة... محلفين...»

كان ذلك دايا، يرتدي بزّة داكنة، ويملأ النمش وجهه، وشعره قصير كما في الثكنة. لم يأخذ الأمور على محمل مأساوي، ولعله كان له أصدقاء في القاعة لأنه التفت وغمز بعينيه.

- أنت بائع لحم خنزير وتعمل لدى والدك، وفي التحقيق اعترفت أنك ولعدة مرات جرى أن أخذت أفخاذ خنازير مملحة من الذخيرة..

وقال هو متبجحاً:

- لو أنني لم أقل ذلك بنفسي، لما انتبه أحد لذلك مطلقاً!

- كذلك أخذت مالاً، من الصندوق - الجرار...

- إن كنت تعتقد أن الآخرين يتحرجون!...

- لاأفهم جيدا.

- أقصد القول إن الجميع يمدون يدهم إلى الصندوق ويأخذون منه...

ـ يبدو لي أن أباك...

ـ ليست الحسابات أبداً صحيحة، وتصرخ أمي كل مساء... لذلك إن كان هناك أكثر بقليل أو أقل بقليل!...

ـ تعرفت على المتهم في مشرب الملاكمة مساء يوم الحادث و...

ارتعد لورسا. كان أحدهم، في قاعة المحاكمة، وصل إلى الصف الثالث وعجز عن التقدم أكثر بسبب المحامين بأثوابهم وكانوا يسدّون الطريق، ووجه إليه إشارات قليلة السرّية.

لم يعرفه لورسا. وكان الرجل، شاباً بعض الشيء، وكأنه ينتمي لوسط جو الملاكم.

نهض المحامي، واتجه نحوه.

فهمس الآخر وقد مدّ له، من فوق الأكتاف، مغلّفاً مدعوكاً:

ـ إنه مستعجل!

وبينما كان الاستجواب يستمر، عادَ لورسا إلى مكانه، وقرأ، من دون أن تصدر عنه أية حركة، رغم النظرة القلقة التي أحاطه بها عن بعد روجيسار:

« لقد وجدتهما. لن يكون لطيفاً أن نضعهما في المغطس، لأن هناك أشياء لم أكن أعرفها. وقد يكون جين هو أيضاً محصوراً. حصلت على أن تقول لي أديل فحوى الأمر. إن المعني بالأمر هو لوسكا. وهو الذي أخمد الأخ. ستجد تماماً طريقة للقبض عليه دون التحدث عن الصبية.

«إني في قاعة الشهود، لكن لاتقل كلمة عن هذا! وعدتني أن تكون نظامياً.»

أمال الرئيس رأسه كي يلمح رأس لورسا. وكان المسكين،

بذقنه العريضة وفمه وكأنه تلقى ضربة سيف، يبدو دائماً وكأنه يضحك!

ـ سألتك، ياأستاذ، إن...

ـ عفواً، مامن سؤال، كلا!

ـ السيد المحامي العام؟

ـ مامن سؤال! قد يكون من دواعي الحذر من أجل الإسراع في المناقشات وعدم التفريط بصبر المحلفين...

-... هد التالي....

نظرة أخرى، عبر قاعة المحكمة، إنها نظرة إميل مانو وقد انخبل تماماً.

ـ إفراييم لوسكا، الملقب جوستان تقسم أن.. كل الحق... قل أقسم على ذلك... تفت.. سادة الـ... لفين... تعرفت على المتهم... عفواً! أرى من الإضبارة أنك كنت تعرفه منذ زمن طويل، بما أنك كنت معه في المدرسة...

كانت المدفأة تنفث الدخان. وكان المحلّف التاسع يتلقى انبثاقها في عينيه وكان مجبراً على تحريك منديله.

ظل لورسا دون حراك، وقد وضع مرفقيه على الطاولة، ووجهه بين يديه، وأغمض عينيه.

ـ ٤ ـ

لم يكن جيرانه، في نهاية قاعة المحكمة يعرفونه. لعلهم شعروا على نحو غير واضح أنه ينتمي لهذه السلالة من الرجال الذين يرونهم متمددين في ممرات قطارات الليل، في المحطات، والذين يجدهم المرء في مفوضيات الشرطة ينتظرون بصبر على طرف المقاعد الخشبية أو يحاولون بلا أمل أن يعبّروا بلغة مستحيلة؛ من الذين يجعلونهم ينزلون على الحدود، وتسيء السلطات معاملتهم، والذين بسبب ذلك، لهم عينا ظبية جميلتان ومؤثرتان.

وبعد كل شيء، ألم يكن بابتذال لأن سترته المخملية المضلعة تفوح منها الروائح الكريهة، لذلك كان الناس يبتعدون عنه؟ بدا أنه لم يشعر بذلك. كان سينظر بخط مستقيم أمامه، وكأنه ملهم أو غبي. يدفع حيناً يساراً، وحيناً آخر يميناً. ويزين وجهه شاريان طويلان هابطان للبلغار الذين كان الناس يرونهم

قبل الحرب على الصور، وتم تخيله على أنه بلا جهد يلبس أي لباس قومي، وعلى الأقل، بأزرار معدنية على سترته، مثل الفجر، من هذه الأزرار التي تحتوي قطعاً ذهبية، وجزمة من طراز خاص، وأقراط في أذنيه، وسوط بيده...

من الصحيح، أن الرئيس المسكين نيكه، برأسه الذي شقه فمه إلى جزءين، كان يشبه كثيراً الدمى الصلفة والصخّابة التي تتكلم من بطنها.

ماذا كان يقول، الرئيس؟ كان لورسا يسمع. وتسجلت بعض الجمل في ذاكرته دون وعي منه.

كان ينظر إلى الرجل الذي حصره الجمهور عند الجدار، خلف صفوف المحامين وكان يحافظ على توازنه على رأسي قدميه.

«- ... ولد في باطوم في...»

كان ذلك في الإضبارة! بطاقة لوسكا.

لوسكا الأب ولد في باطوم، هناك عند سفح جبال القفقاس، حيث ثمان وعشرون قومية تتدافع في المدينة ذاتها. هل كان أجداده يرتدون ثوباً حريرياً، طربوشاً، أو عمة؟ يبقى أنه انطلق في أحد الأيام، دون شك مثلما رحل أبوه من مكان ماقبله. وعندما كان يبلغ العاشرة، كانت عائلته في القسطنطينية، وبعدها بسنتين، في شارع القديس بولس، في باريس!

كان أسمر، زيتياً، رخواً تقريباً. والناتج، نتيجة كل هذا التخمّر،لوسكا الشاب الذي كان يتخبط عند الحاجز، كان أصهب، وشعره أجعد بشكل هالة!

«... تعرفت على إدمون دوسان ذات مساء كنت ألعب فيه بالبليار في محل الجمهورية لبيع الجمة...»

وهو برهان على أن الرئيس، تساءل هو أيضاً، بأية وسيلة تسلل بها لوسكا الوضيع البائع ـ النبّاح على رصيف السعر الموحد إلى محيط دوش الأنيق. إن السادة العظماء بحاجة إلى جلساء. كان دوسان سيداً عظيماً على طريقته، وكان على الشرقي الأصهب أن يتملّق كل غرائزه، أن يضحك عندما يحتاج الأمر ذلك، وأن يوافق، وأن ينزلق، ويبتسم، وينحني لنزواته.

ـ منذ كم من الزمن؟

ـ كان ذلك في الشتاء الماضي...

ـ لاتخف من الاستدارة نحو المحلفين... تكلم بصوت أقوى..

ـ كان ذلك الشتاء الماضي...

قطب لورسا حاجبيه. ولعلها مضت خمس دقائق وهو ينظر إلى الأب في نهاية القاعة، ويفكر به، ويحاول أن يشمّ كل...

وبعيني من استيقظ على حين غرة، انحنى نحو نيكول وقال لها بضع كلمات بصوت خفيض. وفي أثناء ماكانت تقلب أوراق الإضبارة، تفحّص لوسكا الشاب، وكأنه استغرب أن يراه لايزال عند الحاجز، يبحث، وكأنه متأخر على القداس، معرفة أين وصلت الأمور.

قالت نيكول:

ـ لكن نعم! أنت الذي ذكرت اسمه...

ونهض. لم يكن يهم كثيراً مقاطعة جملة...

- أطلب عفوك، ياسيدي الرئيس.. ألاحظ أن في القاعة شاهداً لم تسمع شهادته بعد...

نظر الجميع إلى القاعة بالتأكيد.

التفت الجمهور، وبحث الجمهور بين صفوفهم بالذات. والمدهش، كانت هيئة لوسكا الأب وقد دهش بلطف وجعل ينظر مع الآخرين، متظاهراً بالاعتقاد أن الأمر لايتعلق به.

- من المقصود ياأستاذ لورسا؟

- إفرابيم لوسكا... الذي كان يجب أن يكون في قاعة الشهود...

وظل الابن، في هذه الأثناء، متعطلاً عند الحاجز يحك أنفه.

- إفرابيم لوسكا!... من الذي أدخلك إلى هذه القاعة؟ كيف جرى أنك لست مع الشهود... من أين دخلت؟

وأشار الرجل ذو العينين اللطيفتين الواسعتين بحركة غامضة إلى باب لم يدخل منه حتماً. مرة أخرى كان ضحية القدر! لم يفهم لماذا كان هنا، ولاكيف، وانسل بين الصفوف وهو يتمتم كلمات يقولها لنفسه وعاد إلى القاعة التي كان عليه أن يبقى فيها.

- لنعد إلى خرافنا...

قال السيد نيكه ذلك دون أن يرغب بذلك، ودون النظر إلى لوسكا الابن، واستغرب سماع الضحك في القاعة؛ وأخيراً فهم عندما نظر إلى شعر شاهده الأجعد.

- مامن أسئلة تطرح، سيدي المحامي العام؟

ـ أود فقط أن أسأل الشاهد، الذي يعرف المتهم منذ المدرسة، إن كان يعتبره ذا طبع صريح محب للدعابة أو بالأحرى على أنه فتى غائم النفس.

في البداية، شعر إميل مانو، أنه موضع ملاحظة، ولم يتجرأ على أن يكون طبيعياً، أما الآن، فقد نسي القاعة التي أحاطت به، وكان الناس يرونه أحياناً يقوم بتكشيرات لاإرادية. وفي اللحظة ذاتها، قرّب رأسه قليلاً إلى الأمام ليرى لوسكا على نحو أفضل وعاد تعبير وجهه تعبير فتىً يتحدى فتىً آخر.

التفت لوسكا أيضاً نحوه، وكانت نظرته سوداء أكثر أيضاً من نظرة زميله القديم في المدرسة. وانتهى به الأمر أن هجأ:

ـ بالأحرى، غائم النفس.

ضحك إميل هازئاً! ولو زاد قليلاً، لاستشهد بهيئة المحكمة، لشدّة ماظهر له الأمر مثيراً للفضيحة، لامثيل له، أن يتجرأ لوسكا على الادعاء بأنه كان غائم النفس وأوقف بالكاد حركة لكي يقف، ولكي يحتج بصوت عال.

ـ ... لعلك أردت قول، على ماأفترض، أنه كان حسوداً... لاتستعجل الإجابة... كان مانو وضيع الحال، مثلك... وفي المدرسة، كثير من رفاقكما كانوا أقل تباعداً من حيث الثروة... وفي حالة كهذه، تتشكل جماعات... وينشأ الحسد، ويتحول إلى حقد...

وسمع صوت مانو وقد بدأ يقول:

ـ ما الذي أنت...

إلا أن الرئيس صرخ به قائلاً:

ـ اسكت! واترك الشاهد يتكلم...

وللمرة الأولى، اغتاظ مانو وبلغ به الأمر أن استشهد بالقاعة على ضخامة مايجري. وكان عاجزاً عن أن يخضع، وثابر على دمدمة مقاطع؛ وكرّر الرئيس قائلاً:

- السكوت!... الكلام للشاهد وحده...

- نعم، سيدي الرئيس...

- ماذا، نعم؟ هل هذا يعني، وفقاً لكلام المحامي العام، أن رفيقك مانو كان حسوداً؟

- نعم...

وقال روجيسار مستأنفاً:

- حسب تصريحاتك السابقة، فإن المتهم، مع هذا، يؤكد، أنه هو الذي طلب منك أن تقدمه لأصدقائك.. استدع ذكرياتك... هل، منذ المساء الأول، أي منذ مساء الحادث، كان موقف مانو تجاه إدمون دوسان، ما بين الآخرين، لم يكن استفزازياً؟

- كنا نشعر أنه لايحبه!

- حسناً! كنتم تشعرون أنكم لاتحبونه! هل أظهر على نحو أوضح كراهيته؟

- اتهمه بأنه يغش...

في بعض اللحظات، كان بالامكان الظن أن إميل سيقفز من فوق دربزين قفص المتهمين، لشدة ماكان متوتراً.

- بماذا أجاب دوسان؟

- أن ذلك صحيح، وأنه كان الأمكر وأنه ماكان على مانو إلا أن يتقوى بما فيه الكفاية لكي يغش بدوره...

- خلال الأيام التي تلت، هل رأيت كثيراً مانو؟ كنتما

تعملان في الشارع ذاته، أليس هذا صحيحاً؟

ـ في اليومين أو الثلاثة أيام الأولى...

ـ ماذا..

ـ كلمني.. ثم، بمجرد أن سارت الأمور مع نيكول...

رغم بنطاله الذي ليس له ثنية، كانت ترى بوضوح ركبتاه ترتجفان لشدّة اضطرابه.

ـ تابع... نحن نبحث عن الحقيقة...

ـ لم يعد يهتم بنا، لا بي ولا بالآخرين...

وتكلم روجيسار بحسم وقد انتصب، راضياً.

ـ بالاختصار، وصل إلى هدفه!

أشكرك. لم يعد هناك سؤال، سيدي الرئيس...

وببطء، نهض لورسا.



ومنذ الكلمات الأولى، بدأت الأعمال العدوانية.

ـ هل يستطيع الشاهد أن يقول لنا كم كان والده يعطيه مالاً كمصروف؟

وبينما استدار لوسكا بنشاط نحو المحامي، وقد أطار السؤال صوابه، قام روجيسار بحركة باتجاه الرئيس.

وعندما وضع لورسا الأمور في نصابها:

ـ سأل السيد المحامي العام الشاهد، ليس معلومات دقيقة، وموضوعية، بل آراء شخصية تماماً. وسيسمح لي بدوري أن أوضح شخصية إفراييم لوسكا: الملقب جوستان...

وماكاد ينتهي حتى جاوب لوسكا بحدة:

ـ لم يكن لأحد أن يعطيني المال. فقد كنت أكسبه!

ـ حسناً تماماً... هل بالامكان معرفة كم كنت تكسب في محل السعر الموحّد؟

ـ حوالي أربعمئة وخمسين فرنك في الشهر...

ـ بكم كنت تحتفظ لنفسك؟

ـ كنت أعطي والدي ثلاثمائة فرنكاً من أجل طعامي وغسيلي..

ـ منذ كم من الزمن وأنت تعمل على هذا النحو؟

ـ سنتين...

ـ هل وفّرت مالاً؟

كان يقذفه بخبث بأسئلته في وجهه؛ واضطرب روجيسار مجدّداً، وانحنى لكي يسمعه الرئيس دون أن يرفع صوته.

ـ أكثر من ألفي فرنك...

بدا لورسا راضياً تماماً والتفت إلى المحلفين:

ـ إن الشاهد، إفراييم لوسكا، لديه وفر يزيد على ألفي فرنك، ولم يبلغ بعد التاسعة عشرة. ها قد مضى عليه عامان وهويعمل.

ـ هل كان عليك أن تشتري الملابس بالمئة وخمسين فرنكاً التي تبقى لك؟

ـ نعم.

ـ إذن، كنت تتوصل لأن تلبس وأن تضع مايقرب من مئة فرنك جانباً... ومعنى ذلك أنه لم يكن يتبقى لك خمسون فرنكاً من أجل مصروفاتك الصغيرة... تعرف كيف تغش في لعبة البوكر، أنت أيضاً؟

لم يعد لوسكا يعرف ماذا يفعل بعض الشيء. كان عاجزاً عن تحويل بصره عن هذه الكتلة المتحركة، وعن هذا الوجه المكسو بالوبر وكانت الأسئلة تخرج منه وكأنها قذائف المدفع.

ـ كلا...

ـ لم تكن تغش في لعبة البوكر! هل كنت تسرق المال من الصندوق ـ الجرّار لوالديك؟

حتى إميل الذي ذهل! وعبّر روجيسار بإيمائية متخصصة كم كان هذا الاستجواب بلا طائل إن لم يكن فاضحاً وأشار إلى الرئيس لكي يتدخل.

ـ لم أسرق والدي مطلقاً...

وضرب الرئيس مكتبه بقطّاعة ورق؛ إلا أن لورسا لم يسمع.

ـ كم مرة خرجت مع دوسان وأصدقائه؟ إنك تجهل ذلك! لنرَ... ابحث... بالتقريب؟... ثلاثين مرة؟... أكثر من ذلك؟... أربعين؟... بين ثلاثين وأربعين؟... وكنت تشرب؛ كالآخرين، حسب ماأعتقد؟

أي أكثر من أربعة كؤوس في السهرة...

وارتفع صوت الرئيس في الوقت نفسه الذي ارتفع فيه صوت لورسا؛ والتفت لورسا أخيراً من جهته، وقد هدأ حالاً.

ـ أبدى السيد المحامي العام لي ملاحظة أن الأسئلة لايمكن أن تطرح على الشاهد إلا عن طريق الرئيس. لذلك أرجوك، ياأستاذ لورسا، أن تتكرم بقبول...

ـ مفهوم، ياسيادة الرئيس... أتريد إذن أن تتفضل مشكوراً بسؤال الشاهد عمّن كان يدفع عنه؟

وأعاد الرئيس، وقد ضجر كثيراً:

ـ تفضل بالقول للسادة المحلفين من الذي كان يدفع عنك؟

ـ لاأعرف...

وكان نظره المثقل بالحقد لايتحوّل عن لورسا.

ـ أتريد أن تسأله، ياسيادة الرئيس، ماإن كان رفيقه مانو يدفع حصته؟

آه! أراد روجيسار أن تلاحظ الأصول! بئس الأمر! كان على الرئيس أن يكرّر على نحو مضحك جميع الجمل.

ـ .. يسألك إن كان مانو يدفع حصته...

ـ بالمال الذي كان يسرقه، نعم!

قبل ذلك بعشر دقائق، كانت القاعة هادئة، كئيبة تقريباً. وها إن الجميع توقعوا المعركة، وهي بدأت فعلاً، دون أن يعرف كيف. لأن مامن أحد فهم ماجرى. وتأملوا المحامي بشيء من الذهول وقد انتصب وكأنه شيطان وكان يضخم صوته لكي يطرح كالصاعقة أسئلة تافهة.

وبدأت ملامح إميل تتنبه. لعله هو، بدأ يفهم؟

فيما كان لوسكا، بشعره وكأنه رئيس الملائكة، يشعر بنفسه فجأة وحيداً وسط هذا الحشد.

ـ أود أن أعرف، ياسيادة الرئيس، فيما إذا كان للشاهد صديقات طيبات أو خليلات...

وصار السؤال أيضاً أكثر سخفاً في فم الرئيس الهائل.

والجواب المشاكس:

ـ كلا!

ـ هل كان ذلك عن خجل، أم لفقدان الرغبة أم بالأحرى بروح الاقتصاد؟

واحتج روجيسار قائلاً:

ـ سيادة الرئيس، أعتقد أن هذه الأسئلة...

ـ أتفضل أن أطرحها على نحو مختلف ياسيادة المحامي العام؟

إذن سأضع النقاط على الحروف... هل قبل دخول إميل مانو إلى العصبة، لم يكن إفراييم لوسكا عاشقاً لنيكول؟

حصل صمت. ورؤي الشاب بوضوح وهو يبلع لعابه.

ـ قال لنا شاهد البارحة أن نعم... وستتحققون بعد قليل أن هذا السؤال له أهميته... ومأأصر على الجزم به منذ الآن، هوأن لوسكا كان عفيفاً، ومنطوياً وبخيلاً... لم تحصل له مغامرات، شبيه تقريباً بهذا بصديقه دوسان الذي فقط منذ بضعة أسابيع، ذهب ليطلب من محترفة أن تعلّمه على...

حصلت ضوضاء احتجاجات. لكن لورسا جابه ووقف في المواجهة. وضرب الرئيس عبثاً بقطّاعة الورق على مكتبه.

ـ أجبني، يالوسكا!... عندما، بعد مضي بضعة أيام على موت لويس السمين، اقتربت من الفتاة أديل بيغاس في زاوية شارع الفخّارين، ألم تكن تلك أول مرة كانت لك فيها علاقات مع امرأة؟

لم يتحرك. وصار شديد الشحوب، وظلت عيناه مفتوحتين تماماً، دون أن ترفّ أهدابه.

ـ الفتاة بيغاس، التي كانت ترتاد مشرب الملاكمين،

وتمارس مهنتها في أزقة حي الهال، وقد ذكر اسمها بانتظام، وأتأمل أن تأتي بعد قليل إلى الحاجز...

وحاول الرئيس قائلاً:

ـ لم تعد هناك أسئلة؟

ـ بقي بعضها، ياسيادة الرئيس. أتريد أن تسأل الشاهد لماذا فجأة، وفي خلال بضعة أيام، شعر بحاجة لمضاجعة هذه الامرأة عدة مرات؟

ـ هل سمعت السؤال؟

ـ لاأعرف عمن يدور الكلام؟

أما إميل، هو، فلم يعد مطلقاً جالساً ولاواقفاً. وضع يديه على الدرابزين، وقد انحنى كثيراً إلى الأمام حتى إن فخذيه لم يعودا يلامسان المقعد الخشبي وأمسك به أحد الدركيين من ذراعه.

ـ أتريد أن تسأل المتهم...

واستدرك، وقد بدأ روجيسار يحتج.

ـ عفواً!... أتريد، ياسيادة الرئيس، أن تتفضل مشكوراً بسؤال الشاهد عما صرح به لهذه الفتاة، في إحدى الليالي، على المخدة؟

كان من الواجب الحفاظ على ملاحظته بالنظر، لحظة فلحظة، أقل راحة له، وكان قادراً على أن يتمالك نفسه. كان المرء يشعر لديه علواً وانخفاضاً، مداً وانحساراً، في بعض اللحظات كان يتيبس، قاسياً وفظاً، وأحياناً أخرى يبحث فيها عن دعم حوله.

ـ لم أسمع الجواب، ياسيادة الرئيس...

ـ تكلم بصوت أعلى، يالوسكا...

هذه المـرة. كـان إمـيل هو الذي نظر لوسكا إليـه، إمـيل الذي كان يتنفس بقوة، وينحني، وبدا مسـتـعـداً للقـفـز من فـوق الحاجز.

ـ ليس لدي مـاأقـوله... كل ذلك باطل... وتدخَّل روجـيسـار أيضاً:

ـ سيادة الرئيس...

ـ سيـادة الرئيس، التمس الإذن بمتابعة استجوابي المضاد بسـلام... أتريد سؤال الشـاهـد إن لم يكن صـحـيـحـاً أنه، مسـاء يوم الســابع من تشــرين الثــاني، عنـدمــاوصل مــانـو إلى رواق الطابق الثاني، وقـد جذبه صـوت الطلق الناري، لم يكن لـه سوى الوقت الكافي، هو، لوسكا، إلا لأن يـدخل مـخـزن الحـبـوب، حـيث بقي عـدة سـاعـات، وقـد حـاصـرته عن غـيـر قـصـد النيـابة العـامـة والشـرطة؟

لقد ارتصّت قبضتا مانو ولعلهما كانتا تؤلمانه. وفي وسط القـاعـة، حـيث لايتـحـرك أحـد، كـان إفـرابيم لـوسكا، الملقب بجوستان الأكثر جموداً من الجميع، ثابت وكأنه مادة ساكنة.

كـانوا ينتظرون. وكـانوا يحـتـرمـون صـمـتـه. لورسـا نفـسـه، واقفاً، وقد أوقف حركته، كان وكأنه يريد تنويمه مغناطيسياً.

وأخيراً هجا صوت أتى من بعيد قائلاً:

ـ لم أكن في المنزل.

وسـمـع التنهـد فـي القـاعـة كلهـا، ولم يكن تنهـد العـزاء. كان هناك هزء، ونفـاد صـبـر في الجـو. وكان النـاس ينتظرون وقـد يممّوا وجوههم نحو لورسا.

ـ هل يستطيع الشاهد أن يؤكد لنا، وهو تحت القسم، أنه في ذلك المساء، كان في بيته، وفي سريره؟

أيريد أن يلتفت إلى إميل مانو وأن يقول له...

وصاح الرئيس وقد نفد صبره:

ـ سكوت!

لم يتكلم أحد. الأقدام، فقط، في نهاية القاعة تحركت.

ـ بما أنك لاتتجرأ على النظر إلى مانو مواجهة...

وعندها فعل ذلك. استدار بكليته، ورفع رأسه. ولم يستطع إميل المقاومة، انتصب باندفاع، وصرخ وقد تقبضت ملامحه:

ـ أيها القاتل!... أيها النذل!... أيها النذل!...

ارتجفت شفتاه. وظن الناس أنه سيبكي، أو يصاب بأزمة عصبية.

ـ يانذل!... يانذل!..

ورأى الناس الارتجاف وشعروا أنهم سمعوا اصطكاك أسنان الآخر، وكان لايزال وحده في مجال كبير جداً وفارغ.

كم دام الانتظار؟ بضع ثوان؟ بعض أجزاء الثانية؟ ثم أخيراً الحركة غير المنتظرة، رمى لوسكا نفسه أرضاً، على امتداد طوله، ووضع رأسه بين ذراعيه وبكى، بكى...

وفي وسط وجه الرئيس، هذا الفم اللامتناهي، المضحك وكأنه فم مهرّج، من الممكن أن يجعل الناس يعتقدون أنه يضحك.

جلس لورسا ببطء، وبحث عن منديل في جيب ثوبه، ومسح جبينه، وعينيه، وتنهد باتجاه ابنته المكفهرّة.

ـ لقد اكتفيت!

كان الأمر بشعاً: الرئيس الذي غطى رأسه بعد أن أخذ رأي مساعديه، وهذه الأثواب الحمراء والسوداء التي هربت، والمحلفون الذين ابتعدوا نادمين، وقد جذبهم هذا الجسم المسجى على الدوام بين محاميين اثنين ومحامية مفرطة الشقرة.

وإميل، الذي اقتادوه، ولايعرف لماذا، وكان يلتفت، هو أيضاً، وقد تبلبل، وقلق.

بقي لورسا هناك، في مكانه، سميكاً، مقطباً، ومريضاً من كل هذا الحقد الذي أعاده إلى السطح عندما حرّك القاع، وحاقداً لم يكن حتى حقد رجال، بل حقد شباب، أكثر حدّة، وأشد إيلاماً، وأكثر شراسة، قاعدته من الإذلال والحسد، من بضعة فرنكات مصروف جيب وأحذية مثقوبة!

- هل تعتقد أنهم سيأمرون بتحقيق إضافي؟

رفع عينيه الواسعتين نحو الزميل الذي سأله. وهل هذا يعنيه؟ كانوا يضطربون، في الخلفية. ودعوا قضاة كبار السن للمساعدة. وانهمك دوكو، وكان فريسة القلق.

لم يكن سوى الجمهور، الذين خافوا فقدان أماكنهم، ولايتحركون، ويتأملون المحكمة الفارغة حيث لم يكن يرى سوى لورسا جالساً قرب ابنته.

- عليك أن تأتي لاستنشاق الهواء لحظة، ياأبت؟

كانت مخطئة! بئس الأمر! كان يشعر بالعطش، على نحو هائل. وكان يهمه قليلاً أن يرى داخلاً، بثوبه إلى الحانة الصغيرة التي فيها نبيذ بوجوليه.

سأل بائع الخمر وهو يقدمه له قائلاً:

ـ هل صحيح أن لوسكا اعترف؟

نعم! ومن الآن فصاعداً كل شيء سوف يسيل وكأنه آت من النبع، جميع الاعترافات، وجميع التفاصيل، بما فيها تلك التي لم يسألوه عنها، والتي يُفضّل عدم سماعها!

ألم يفهم الآخرون أنه عندما ارتمى أرضاً، كان ذلك إعياء، وباندفاع نحو الوئام؟ وأنه إذا بكى، فإنه يبكي من العزاء.

أخيراً. لقد نجا من الانفراد مع نفسه، ومع الحقائق القذرة جميعاً التي كان وحده يعرفها والتي أصبحت أمراً آخر، كارثة حقيقية، على نحو مايتصور الناس الكوارث.

لقد انتهى هذا الغمّ الموبوء، وهذا الخزي في كل لحظة وعلى الأخص انتهى الخوف!

أكان يعرف لماذا قتل؟ لم يعد لذلك أهمية إطلاقاً! ستقال الأشياء على نحو آخر. ستترجم إلى لغة لائقة.

سيجري الكلام مثلاً عن الحسد... وعن الحب المحبط... عن الحقد على المنافس الذي أخذ منه نيكول، والتي لم يتجرأ، هو نفسه، مطلقاً بالتحدث عن حبه...

سيكون ذلك صحيحاً! جميلاً تقريباً!

بينما، حتى الآن، عندما كان وحيداً يمضغ ذكرياته، لم يكن ذلك سوى غيرة فتى فقير مؤلمة، غيرة إفراييم، ولوسكا، حتى إنها ليست غيرة ضد الغني، ضد دوسان الذي خضع لخدمته، بل ضد آخر مثله، واحد جلبه هو، واحد كان يبيع الكتب في الناحية المقابلة والذي داسه دون أن يبدو عليه أنه لاحظه.

وتنهد لورسا قائلاً:

ـ الأمر نفسه،

كم كانت الساعة؟ لم يعد يعرف شيئاً. واستغرب رؤية مرور جنازة في الطريق. وعلى الأرصفة، كان أناس من المحكمة، بعض المحامين بأثوابهم... وخلف عربة الموتى أيضاً، أشخاص بلباس موحّد، والآخرون يلبسون السواد...

وكان الفريقان ينظران بعضهم إلى بعض بفضول وكأنهم خدم لحفلتين مختلفتين.

ونقاشات مملّة، في الخلفيّة، لاتنتهي، وكانوا يلجؤون للهاتف. وأثواب حمراء تسرع في الممرات. وأبواب تصفق. ويرفع رجال الدرك أكتافهم عندما تطرح الأسئلة عليهم.

طلب لورسا كاساً آخر وكان الخمر بنفسجي اللون على أوباره. ومسّ أحدهم ذراعه.

ـ يطلبك الرئيس، ياأبتِ...

وشعرت أنه متردّد في الذهاب، وأبدت رجاء بعينيها.

ـ لحظة...

أفرغ كأسه الثالث، وبحث عن النقود في جيبه.

ـ ستدفع بعد قليل، ياسيد لورسا.. سيرى أحدنا الآخر، أليس كذلك؟

ـ ٥ ـ

مسكينة القزمة! كانت تبذل جهداً كبيراً لدرجة أن وجهها يصبح جذاباً تقريباً!

ـ على السيد مع هذا أن يأتي إلى المائدة... وعلى السيد أن يأكل شيئاً ما...

لم تستطع أن تكون حزينة، رغم الزجاجتين اللتين رأتهما على المكتب، وأعقاب لفافات التبغ التي نثرت على أرضية المنزل، والجو المكثف، في مكتب العمل الذي ذكّر بالأيام الرديئة.

وكان لورسا ينظر إليها، أخضر مزرقّ وباهتاً.

ـ نعم... كلا... قولي لهما إني متعب، يافين...

ـ السيد إميل وأمه يودان كثيراً شكرك..

ـ نعم... بالتأكيد!...

ـ هل أخبرهما بأنك ستأتي؟

ـ كلا... قولي لهما... قولي إني سأقابلهما يوماً ما... نيكول، التي كانت تتوقّع ذلك، فهمت مباشرة عندما رأت القزمة تعود إلى قاعة المائدة. وبذلت جهداً لكي تبتسم ولكي تعلن للسيدة مانو قائلة:

ـ أطلب منك الا تعيري لذلك اهتماماً.. عمل والدي كثيراً في هذه الأوقات.. إنه ليس رجلاً على نمط الآخرين...

وظن إميل أن عليه أن يعلن قائلاً:

ـ لقد أنقذ حياتي!

ثم، ببساطة أكثر:

ـ إنه شخص مميّز!

اهتمت السيدة مانو بأن تتصرف على نحو حسن على المائدة، وكانت جلستها جيدة جداً، متيبسة كثيراً، ورسميّة كثيراً.

ـ إنك لطيفة لجلبك لنا إلى هنا من أجل العشاء.. عبثاً أجد نفسي سعيدة كما لم أسعد في حياتي، يبدو لي، أنه في منزلنا الصغير، كلانا، إميل وأنا، قد تكون هذه الأمسية حزينة..

شعرت برغبة بالبكاء، دون سبب.

ـ لوتعلمين كم تألمت!... عندما فكرت أن ابني...

ـ بما أن الأمر انتهى، ياوالدتي!

كان لايزال يرتدي بزته الزرقاء، وربطة عنقه المنقطة كانت القزمة تحوم حولهم، وتقدم له الطعام بوفرة، وكأنها تقول:

ـ كل! بعد كل الذي عانيته في السجن...

كانت نيكول تصيخ السمع أحياناً. وانتبه مانو لذلك وكان غيوراً تقريباً. شعر انها لم تكن تنتبه للحديث، وأنها تفكّر بامر آخر، بشخص لم يكن هناك.

ـ ماذا بك، يانيكول؟

ـ ليس بي شيئ، ياإميل...

كانت تتساءل، إن كان، فيما مضى، كانا يتخاطبان بصيغة المفرد أم بصيغة الجمع. وبدا لها أن اليوم هناك أمراً غير اعتيادي.

ـ هل أخبرته اني سأسافر إلى باريس؟

ـ نعم...

ـ مارأيه بذلك؟

ـ أن ذلك حسن جداً...

ـ هل سيسمح لك بأن تلحقي بي وأن نتزوج بمجرد أن أحصل على وظيفة؟

لماذا كان يتكلم كثيراً جداً، عن أشياء دقيقة جداً؟ كانت تصغي. لم يكن يسمع شيء، سوى ريح الشمال في الموقد والشوكة التي كانت السيدة تستعملها بطرف أصابعها، مثلما كانت تأكل بطرف أسنانها، لكي تكون مميّزة.

ـ أتساءل كيف عمل ليكشف كل شيء ولاسيما لكي يجعله يعترف...

كانوا يأكلون لحم العجل. وكان ناضجاً أكثر من اللزوم. واعتذرت القزمة لذلك، لكن كان عليها أن تفعل كل شيء لأنها طردت الخادمة التي كانت تتكلم بالسوء عن الآنسة.

ـ أتسمحان لي بلحظة؟

نهضت نيكول، ونهضت مسرعة وتوقفت في ظلمة الممر، وسمعت باب مكتب العمل يغلق، ومشية أبيها المترددة. ابتعدت قليلاً لتدخل ركناً مظلماً أكثر، ومرّ بالقرب منها، كما حصل ذلك مرات عديدة فيما مضى، دون أن يرتاب بوجودها.

ألم يكن حقاً يرتاب بوجودها؟ لماذا، في هذه الحالة، كان هناك زمن توقف، وتردّد؟ كان يتنفس بقوة. لقد تنفس دوماً على هذا النحو، لاشك أنه بسبب النبيذ. نزل الدرج، وأخذ قبعته ومعطفه، وتلمّس من أجل أن يسحب المزلاج.

لم تتحرّك نيكول، وظلت هناك أيضاً بعض الوقت. ثم أرادت الابتسام، بما أنها كانت سعيدة، ودخلت قاعة الطعام.

ـ قدمي الجبن، يافين.

أما هو فقد سار على الأرصفة التي كان يبلغ عرضها تقريباً، ولم يكن يعرف أين يذهب. خطر ذلك بباله في اللحظة التي كان يعيد فيها ملء المدفأة. وتوقف. ونظر حوله وشعر وكأنه غريب على البيئة التي كانت زمناً طويلاً بيئته. الكتب، مئات آلاف الكتب، والجو الثقيل، والهدوء المطلق لدرجة أن المرء يسمع نفسه يعيش..

مشى وهو ينخر، ويتظاهر بأنه يجهل هدفه. ويضحك هازئاً حتى وهو يفكر بالخيطين، روجيسار وزوجته، ولعلهما انزعجا تماماً، وبصهره دوسان وأخته، التي أرسلت بطلب الدكتور ماتري، ذلك كان مؤكداً.

اجتاز شارع أليه، حيث كانوا يلعبون البليار في مشرب للجعة. لم يكن بالامكان رؤية اللاعبين، بسبب ألواح الزجاج الكامدة، لكن كان يُسمع اصطدام الكرات، وبالامكان التنبؤ بالضربات.

عندما كان يلعب البليار إفرابيم لوسكا...

وكانت الدكان هناك، ضيقة، في جناح منزل قديم، ومغالقها من الطراز القديم، وكان يتوجب المجيء إلى الرصيف لتعليقها.

كان النور يتسلل. وكانت الدكان معتمة، إلا أن باب الاتصال بالمطبخ، الذي كان يستخدم أيضاً على أنه غرفة طعام وغرفة للزوجين لوسكا، كان مفتوحاً. ومن هناك أتت الهالة.

من منزل مقابل، خرج شاب، كان سعيداً جداً بذهابه إلى السينما.

لم يكن لورسا يستطيع النظر من ثقب القفل، ولا قرع الباب، وأن يقول للبائع ذي الشارب البلغاري:

ـ إذا سمحت، سأتكفل تماماً بـ...

كلا! كفى! لن يفهموا بعد! ـ سيحسبونه مجنوناً! لا يدافع المرء عن رجل سحقه هو سحقاً ثقيل الوطء! رجل؟ حتى إنه ليس كذلك! بزة رجل! بزة كارثة.

واحتك بشرطي فاستاء هذا ورفع كتفيه عندما رآه يدخل مشرب الملاكمة.

ما الذي افترضه الشرطي أنه أتى يبحث عنه؟

ـ فكّرت كثيراً أنك ستأتي، إلا أنني لم أتوقع مجيئك اليوم... بالنسبة للرسالة التي سلمتك إياها، علي أن أشرح لك... يبدو أن جين اقترف حماقة بشعة، منذ شهرين في أنغوليم وأنه، إذا تم إلقاء القبض عليه...! هيا! وددت لو كنت هناك عندما هاجمت لوسكا الشاب... يدّعون أنك كنت رهيباً... ماذا أقدم لك؟... بلى! إنها جولتي... وسأقدم جولة ـ

من الشمبانيا ـ للسيد إميل عندما سيأتي لمقابلتي... إنه جريء، هذا الطفل...

ولأنه تعوّد لمدة طويلة أن يعيش وحيداً كان لورسا يتعود على نحو رديء.

ثم كان يقول لذاته إنه سيكون في حال أفضل في مكان آخر، في نزل الغرقى، مثلاً: وعرف جميع السائقين الأمر، أنه كان يوقفهم ليلاً ليحملوه إليه.

لم يكن هناك في حال أفضل. حتى إنه حدث له أن فكر، عندما مرّ أمام منزل دوسان المنار، مساء استقبال:

ـ لو أني دخلت وأعلنت أنني أتيت لألعب البريدج مع الاخرين؟

إلا أنه كان يفضل الذهاب لتناول كأس من الكحول الرديء مع عجوز الشارع المسدود، تلك التي عندها كانت للمغفلة غرفتها والتي انتهى الأمر بأديل بيغاس أن تعود، عندما رأى جين مناسباً اجتياز الحدود.

كل هذا، كانوا أناساً لايتكلمون كثيراً. كان المرء يفرغ كأسه. وينظر أمامه. كانت الكلمات أكثر ثقلاً كلما كانت نادرة وأن الذين يتلفظون بها كانوا يعلمون كل ماكان بالإمكان معرفته.

أديل، منذ ذهاب جين، الذي أرسل بطاقة بريدية من بروكسل، كانت تحقق نجاحات . جو، الذي لم يكن مشريه ناجحاً تماماً، تحدث عن شراء تخشيبة متنقلة.

كانت الشوارع، مساء، ولاسيما الضيقة، وكأنها سراديب في المدينة، وكان لدى المرء الانطباع بأنه يتسلل تحت حياة الآخرين، الذين نظن أننا نسمع شخيرهم.

والمزعج أكثر من غيره، أن القزمة أرادت مرافقة الآنسة إلى باريس عندما ستتزوج.

وعندها، عليه أن يتمارك مع شبيهات أنجيل أو مع خادمات كهنة عجائز!

وأكد قاضي التحقيق، الذي لم يكن دوكو وعين مؤخراً، بطيبة خاطر قائلاً:

- لورسا؟ إنه بالتأكيد الرجل الذي يعرف أكثر من غيره المدينة وخفاياها...

ثم، بعد أن نظر إليه الناس بصرامة:

- من المؤسف أن ذكاء متألقاً كهذا...

وكان بالامكان، في نهاية الجملة، إدراك بغموض، كلمة:

- ... الشراب...

مثلما عندما كانت الدمية التي كانت تتكلم ببطنها تتلو في محكمة الجنايات:

«-... أقسم هكذا... مساعدة... له... فع يدك... تدر... نحو... سادة الـ.. لفين...»

حكم على لوسكا بعشر سنين. ماتت أمه وثابر والده على بيع الكرات في دكان تزايدت رائحتها أكثر فأكثر.

بطاقة بريدية تمثل بركان فيزوف الثائر، بخمسة ألوان، مصقولة، تحمل على صفحة البطاقة:

«قبلات طيبة من نابولي»

«نيكول» «إميل»

وكان إدمون دوسان في مصبح فاخر.

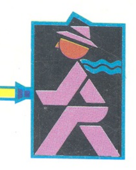
ورفع دستريفو لرتبة رقيب أول، ودوكو في فرساي،

وروجيسار في لورد لمدة ثلاثة أيام، نقّال جرحى متطوع.
ودوسان الأب في أحد المواخير الأنيقة مع الفتيات.

وتزوج دايا الابن من ابنة بائع فوسفات.

أديل والمغفّلة على رصيفهما .

ولورسا، وحيداً تماماً، ولايزال وقوراً، في حانة، أمام كأس من النبيذ الأحمر.



منذ ثماني عشرة سنة انقضت على تخلي زوجته عنه، لم يعد المحامي هكتور لورسا يرافع، واجداً سلواه في الخمر. وهو يعيش في مدينة مولان، مع ابنته نيكول التي لا يحبها، في منزل كبير ثلاثة أرباعه مهجور لا يسكنه أحد. وقد اكتشف فيه ذات ليلة مجهولاً قتل للتو. وسيكون ذلك كشفاً يجلو كل حياة ابنته السرية.

«انتهيت للتو من كتابك المجهولون في المنزل. مضى زمن طويل ولم يهزني اهتمام مشوق بهذا القدر. لكم أتمنى لو يمكنني أن أتبادل الحديث طويلاً معك !

يا لروعته، ذلك الرنين القوي للحكاية عن المحامي. أنت محق، فموضوع الكتاب هو في ذلك.»

أندريه جيد



دار المدى للثقافة والنشر